

الديكاميرون 2020

نحكي لننجو

فكرة وإعداد: روعة سنبل

قراءات نقدية: فدوى العبود

الديكاميرون 2020

الديكاميرون 2020.. نحكي لننجو (قصص)
فكرة وإعداد: روعة سنبل (كاتبة من سوريا)
القراءات النقدية: فدوى العبود (كاتبة من سوريا)



الأردن، عمّان، شارع الملكة رانيا، عمارة البيجاوي (69)، ط3.
هاتف: 797162720، 65620722 (962+)
alaan. publish@gmail. com
alaanpublishers. com
المراجعة اللغوية: م. سامر المجالي
الإخراج الداخلي:م. سجود العناسوة
تصميم الغلاف: بسام حمدان

الديكاميرون 2020

نحكي لننجو

فكرة وإعداد : **روعة سنبل**

القراءات النقدية : **فدوى العبود**

قصص



فهرس المحتويات

الثيمة الأولى

المرايا

الثيمة الثانية

القطارات

الثيمة الثالثة

الحبال

الثيمة الرابعة

الفقاعة

الثيمة الخامسة

الأحلام

الديكاميرون 2020

حكايات للنجاة من كورونا

روعة سنبل

في زمن الموت الأسود، ثلاثة شبان وسبع شابات غادروا فلورانسا– إيطاليا، قاصدين منطقة ريفية، هربًا من الطاعون الذي كان يفتك بأوروبا في تلك الفترة، دون أن يجدي معه دواء ولا دعاء، وفي كل ليلة يختار الأصدقاء أحدهم ليكون ملكًا، له الحق عند بداية الليلة في اختيار موضوع للحكايات التي سيروونها جميعا طوال الليل، وهكذا ومع الصباح ستكون الحصيلة عشر حكايات.

هذه هي الحكاية الإطارية التي بنى عليها الكاتب الإيطالي (بوكاشيو) كتابه (الديكاميرون) الذي ألّفه في القرن الرابع عشر.

حكى أبطال بوكاشيو مئة حكاية في عشر ليالٍ، كي يهزموا شبح المرض، وينسوا هاجس الموت، وكي يؤنسوا عزلتهم، ويبتعدوا عن أخبار الفظائع التي يقترفها الوباء.

«نحن نحكي لننجو» هذا ما أراد بوكاشيو قوله، وهذا ما قاله كتاب «ألف ليلة وليلة» قبله.

الآن، وبعد قرون من ديكاميرون بوكاشيو، وفي زمن الوباء اللعين كورونا، قد يخطر لنا أن نتساءل: هل ما زالت الحكايات مجدية؟

أراهنُ شخصيًا أنْ: نعم، ما زلنا نحكي لننجو!

حتى اللحظة، ومنذ سنوات، حكايات كثيرة نجحت في التربيت على كتفي بحنان، حتى أغفو أو يهدأ خوفي، حكايات سمعتُها، أو قرأتُها، أو كتبتُها، كانت أمانًا لي منذ كنت طفلة تخشى العتمة، ثم حين أصبحت أمًّا تضم طفلتين فتحتا عيونهما على الحرب، والآن حين نعيش كلنا هذا الرعب من كوفيد 19، وهذا الانتظار الذي قد يبدو لنا -في لحظات يأسنا- لا نهائيًا.

إنه إذن الرهان الذي قام عليه مشروع الديكاميرون 2020.

على مدى ثلاثة أشهر تقريبًا حاولنا أن تكون صفحة الديكاميرون على الفيسبوك مكانًا دافئًا، لنذنا به نحن محبي القصة القصيرة كُتّابًا وقرّاء، لنحتمي من وحشتنا وقلقنا.

وعلى خلاف مشاريع كثيرة ظهرت في هذه الفترة، فإن خيار الديكاميرون 2020 لم يكن نشر نصوص كُتبت في ظروف العزلة والخوف من كورونا، بل كان الخيار أن ندير ظهورنا لما يحدث، وأن نتبادل نصوصًا كُتبت من قبل، تدور حول ثيمات تحفر عميقًا في الذات الإنسانية عمومًا.

كنتُ أختار ضيفًا، تاركة له حرية اقتراح ثيمة معينة، ثم أبدأ بجمع عشر قصص قصيرة حول هذه الثيمة، معتمدة على رصيدي من القراءات، وعلى

اقتراحات أصدقاء الصفحة من القرّاء لقصص اطّلعوا عليها من قبل، وكذلك على مساهمات من أصدقاء قاصّين تواصلوا معي مشكورين، وأرسلوا نصوصهم.

تم اختيار النصوص مع مراعاة التنوع، سواء في طريقة تناول الثيمة، أو في زمن ولادة القصة، وكذلك مسقط رأسها.

أعتقد أن القارئ سيلاحظ هذا التنوع، كما سيلاحظ أيضًا التفاوت في النصوص، التي كانت قسم منها لقاصّين مخضرمين، وقسم آخر لقاصين شباب موهوبين، ما زالوا يتلمسون خطواتهم الأولى.

مدينة بالشكر لكثير من الأصدقاء القراء والكتّاب على حد سواء.

مدينة بالشكر للأديبة السورية فدوى العبود، التي تابعت المشروع خطوة فخطوة منذ كان فكرة في رأسي، بحثت معي عن النصوص، ونسخت بعضها بنفسها، وقرأت القصص بشغف، وأضافت في نهاية كل ثيمة مقالًا قدّم نقدًا جماليًا، محاوِلةً تضييق المسافة بين الشعور الذي اعتمل في روح الكاتب، ولغته. لم تكن مقالات الأستاذة فدوى مجرد تعقيبات، أو تأويلات للقصص، بل استنطقت مراجعاتها النصوص، قرّبتها من القارئ، وأضاءت الجوانب المشعة فيها، فخرجتْ نصوصًا على نصوص، جمعت المتعة والفائدة.

مدينـة بالشـكر للأسـتاذ جعفـر العقيلـي والعائلـة الجميلـة في مؤسسـة (الآن/ ناشرون وموزعون)، فبجهودهم ها هو المشروع يصبح كتابًا متاحًا للجميع.

يضمُّ هذا الكتاب سبعاً وأربعين قصة، ضمن خمس ثيمات، بالإضافة إلى خمسة مقالات نقدية في نهاية كـل ثيمـة، أتمنـى أن نكـون قـد وُفّقنـا في اختيار القصص، أنا وكل من ساهم معي.

ملاحظة لا بدّ منها: جزء كبير من قصص كتابنا، تمّ نشره سابقـاً ضـمن مجموعات قصصيّة تخصّ الكتّاب أنفسهم، ونحن إذ نعيد نشرها هنا نفعل هذا بعد موافقة مؤلفيها أو مترجميها وبالتنسيق معهم.

2020 /7 /2

زمن الكورونا

الثيمة الأولى

المرايا

*اختارت هذه الثيمة **روعة سنبل**.*

وهي كاتبة سورية، من مواليد المملكة العربية السعودية 1979.

تحمل إجازة في الصيدلة والكيمياء الصيدلية من جامعة دمشق.

تكتب في القصة القصيرة، والرواية، والمسرح، وأدب الطفل.

صدرت لها مجموعتان قصصيتان: «صيّاد الألسنة»، 2017، دائرة الثقافة والإعلام في الشارقة. (المجموعة حائزة على جائزة الشارقة للإبداع العربي). «زوجة تنين أخضر وحكايات ملونة أخرى»، 2019، الآن ناشرون وموزعون. وصدر لها أيضًا «أعشاش»، 2019، وهو نص مسرحي مطبوع من قِبَل دائرة الثقافة في الفجيرة (النص في القائمة القصيرة لجائزة راشد بن حمد الشرقي).

(1)

المرأة التي تحوّلت إلى بخار

فدوى العبود

كاتبة سورية، ماجستير في الفلسفة والأدب، طالبة دكتوراه.
تكتب القصة القصيرة، حائزة على جائزة منى الشافعي عام 2018 عن قصتها «كاميرا ملونة».
تنشر المقالات في الإمارات الثقافية وعدد من الصحف والدوريات العربية.

عندما كانت هيلا تستحم سقطت أذنها..

تفقدت أذنها الثانية فلم تجدها حاولت تذكر آخر مرة رأتها فيه فلم تتذكر، لا بد أنها سقطت في محل المنظفات، أو بينما كانت تنظف المنزل. أيًا كان فهي ببساطة قد اختفت!

في الأسابيع الماضية كان الآخرون يُضطرون لرفع أصواتهم وهم يتحدثون إليها. البارحة فقدت القدرة على سماع أيّ صوت..

وقفت في وسط الحمام، وانسابت مياه الدشِّ فوق كتفيها.

ماذا ستقول لزوجها اليوم؟

هل ستتحمل سخريته اللاذعة مجددًا؟

أم ستقضي ليلها تُرضع الصغير وتبكي؟

أحست برخاوة في قلبها فنظرت إلى أظافر يديها التي ذابت هي الأخرى، والتي أخفتها بطبقة من الطلاء الشفاف، كانت نهايات أصابعها تؤلمها حين ترتطم بالأشياء، أحيانًا كان الألم ينفلت على شكل آه، تعلمت منع هذه الآه بالعضِّ على شفتيها.

فكرت في ما قاله لها الطبيب الذي زارته: «يبدأ الأمر بالتدريج ثم يتساقط كل شيء مثل ستارة تُرمى دفعه واحدة».

صار الماء البارد يضرب ظهرها، جذبت شعرها من الجهتين وغطت أذنيها وهي تفكر في كيف ستخفي الثقبين؟

اقتربت من المرآة الطولية لكنّ البخار الكثيف حجبها، مسحت المرآة فتراكم فوقها البخار مجددًا شعرت بعجز كبير؛ حتى المرآة تقف ضدَّها ولا تريها ذاتها، فكرت وهي تعض شفتها: ما الذي تريد أن تراه أصلًا؟

هيلا الفتاة التي تدير الرؤوس بحيويتها لم تعد موجودة، الفتاة التي كانت في شبابها نارًا مستعرة تفكر الآن في طريقة لإخفاء تفكّك جسدها عن الآخرين. لو عرف سام فسوف يدمر ما تبقى من روحها بسخريته اللاذعة.

منذ توقف عن حبها غطى وجهه قناع ممثل هزلي، وكل همه إضحاك الجمهور بأي ثمن، إذا اكتشف غياب أذنيها سينتظر اجتماع العائلة ثم يبدأ بتلك الحركات كأن يزيح خصلة شعرها أو يتحداها أن ترفعه..

المسرحية اليومية التي تبدأ بعد تناول العشاء ستكون هي بطلتها، ستغضب في النهاية وتركض نحو غرفة الصغيرين تصفق الباب بقوة وتستمع لتأنيب والديه وبقية الجمهور الذين سيتقاذفون كرة الشفقة، وهو يردد: إنني أمزح.

تتذكر هيلا جيدًا كيف بدأ الأمر؟

حين أنجبت طفلها الأول سقط أحد أسنانها، ومع ولادة طفلها الثاني لاحظت تغضنًا عند عينيها فأُصيبت بفزع كبير، عندما اكتشفت عشيقة في حياة سام تساقطت أسنانها دفعة واحدة وهي تنظّفها صباحًا بالفرشاة، سقطت مع المياه في المغسلة مثل زجاج مكسور ثم ذابت مع الرغوة، وحين لاحظ غياب أسنانها صار يطلب إليها في حضور والديه وأصدقائهما أن تفتح فمها لثانية ثم يكرّ في ضحك رخيص.

طلبت الطلاق لكن القاضي أخبرها أن الطفلين سيكونان للزوج، وقبل أن تغادر القاعة شعرت أن حذاءها صار واسعًا، أخرجت قدمها من الحذاء كانت الاصابع قد تحوّلت إلى ديدان صغيرة..

صار سام يغيب عن المنزل ويُلمّح إلى عشيقاته الشابات موفورات الصحة ذوات الأرداف الضخمة، أما هي فقد تعلمت التجاهل وبرعت فيه.

في صباح البارحة كانت تُعِدّ زجاجة الحليب للصغير حين رنّ هاتفها وأخبرها أنه لن يعود اليوم أيضًا.

لا بأس (قالت له بصوت جهدت ليبدوَ طبيعيًا).

اقتربت من المرآة ومسحت البخار، منذ طفولتها كانت تحبّ المرايا، وتعتقد أنه يوجد خلفها عالم مختلف عن عالمنا. تذكّرت الحكاية التي كانت ترويها لها جدّتها؛ أخبرتها أنها إذا تمنّت بصدق فسوف تسمعها المرآة، لذلك أغمضت عينيها وقالت وهي تلصق وجهها بالمرآة: «ليته لا يعود أو أختفي أنا».

سمعت المرآة صوتها وارتجفت صفحتها الصلبة وتحولت إلى نهر عذب عندها رأت هيلا ظلًّا يتشكل، كان ذلك ظلّها الذي أخذ يتضح بالتدريج وعندها عرفت ما ستفعله..

سكبت الشامبو في راحة يدها وبدأت بفرك رأسها، كانت خصل الشعر تذوب مع رغوة الصابون حتى تلاشت، سقطت القدمان وارتطمت ركبتاها بالبلاط، جذعها أيضًا هوى وتبدد قبل أن يصل إلى الأرض، الرموش الكثيفة التي كانت تدير الرؤوس يومًا لم تكن موجودة هي الأخرى، العينان البنيتان اللتان كانتا بلون الشوكولا الغامقة طارتا نحو المرآة.

لم يبق منها سوى القلب النابض مرميًا فوق البلاط مثل حبة فراولة ضخمة، كان ينتفض كل دقيقتين تحت الرذاذ البارد.

أطلت من المرآة شابة جميلة بشعر طويل وأظافر لامعة وثديين أخّاذين ونظرت نحو ما تبقى من هيلا، ابتسمت المرأة فظهرت أسنانها الصغيرة، القلب النابض فوق أرض الحمام سحرته الابتسامة فصار يقفز مثل عصفور، تعثَّرَ مرتين قبل أن يتمكن من القفز، باعدت الشابة بين ثدييها وقفز القلب إلى مكانه.. تكاثف البخار وغطّى المرآة التي سكنت صفحتها بالتدريج، وأغلقت بواباتها مثلما يغلق باب قصر سحري.

أمام الباب السحري يوجد حمام، خارج الحمام توجد شمس حادّة، وشوارع ترابية، وجباه قاسية، وتلفاز غبي.. ثرثرة الجيران، والحروب.. داخل المرآة، يوجد قمر فضي وسهل لا حدود له.. يوجد صباح طازج وفارس ينتظر..

هيلا لأن لديها حبيبا تجوب برفقته السهول ويتراهنان كل صباح على من يجمع أكبر قدر من الفراشات. (في عالم المرايا لا توجد ذاكرة ولا قوانين ولا زمن، فقط مروج صفراء وعشاق لا يعرفون الملل).

2018

(2)
الآخَر

عبداللَّه ناصر

قاص سعودي، صدر له: «فن التخلي» 2016، «العالق في يوم أحد» 2019.

يخاف المرآة، يخاف أن تعكس صورة رجل لم يلتقِ به من قبل، فيحدق إليه طويلًا ذلك الرجل، ولا يتزحزح من مكانه حتى عندما يغادر الغرفة.

يخاف أيضًا ألّا تعكس المرآة صورته، أن يظهر كل من في المكان إلّا هو ينزلق إلى الجانب الآخر من المرآة، الجانب الرصاصي اللصيق بالجدار، حيث يتراكم الغبار فوق صورنا القديمة.

يُنزِل المرآة، ويجعل وجهها إلى الجدار، لم يكن على الإنسان أن يخترع شيئًا مدمّرًا كهذا. لو شاء الرب أن نحدّق في وجوهنا طوال الوقت، لجعل اعيننا في باطن أيدينا. يتساءل: أليس الإنسان مرآة الإنسان؟

يخاف المرآة إلى درجةٍ لم يعد يتوقف أمامها حتى عندما يغسل أسنانه، أو يحلق ذقنه، خصوصًا عندما يحلق ذقنه. يخاف، وفي يده موسى الحلاقة، ان يلتقي بالرجل الذي خرَّب حياته.

2018

(3)

بوح المرايا

ملك القاري

كاتبة ومترجمة سورية، صدر لها «تاء التأنيث الساخنة»، الآن ناشرون وموزعون- الأردن 2019، ترجمت عددًا من الكتب صدر منها كتاب «انشر فنك» للكاتب أوستين كليون عن دار شفق- الكويت 2019، ومترجمة للعديد من المقالات الموجودة على موقع «تكوين منصة الكتابة الإبداعية».

تقف أمام مرآتها، تلثغ بالسّؤال:

«من هي أجمل نساء الكون؟».

تعاكسها مرآتها، تلدغ بالجواب:

«جدّتك».

تبتسم برضا؛ هي سَميّة جدّتها، وريثة عينيها الخضراوين، والشّامة الدّاكنة وسط الجبين، هي أجمل نساء الكون!

تنتعل حذاء أمّها، لتحصل على بضعة سنتيمترات إضافيّةٍ، تزيد من طولها، تقرقع بالكعب العالي، تقف على رؤوس أصابعها، تحصل على مزيدٍ من الطّول، تردّد في نفسها:

متى سأكبر وأصبح جدّتي؟

تدخل أمّها إلى الغرفة، تؤنّبها لعبثها بأغراضها الشّخصيّة، تأخذ الحذاء منها، وتخرج.

يداهمها الحزن، فتصعد على كرسيٍّ وضعَتْه فوق طاولة السّرير، لتصل قامتها إلى مستوى سقف الخزانة، تستعين بذراعيها الضّعيفتين، كي تعتلي السّقف، تعتكف هناك لدقائق، حيث يصقلها النّسيان ويعود مزاجها لطبيعته الرّائقة، فتنزل مباشرةً وكأن شيئًا لم يكن، ثمّ تتابع يومها بشقاوة كالعادة.

***

تكبر قليلًا،

تقف أمام حقائب السّفر المرصوصة، دمعةٌ مالحةٌ، تصل إلى شفتيها من عين أمّها وهي تغرقها عناقًا ونحيبًا.

تعيد الأمّ قولها مرارًا:

«ليتني لم أجعلك سميّةً لجدّتك، لقد أورثتك حظّها السّيئ».

تودّعها، تودِعها يد المضيفة، تلوّح لها قبل أن تتلاشى الطّائرة في السّماء.

في تلك السّنّ المبكّرة، لم تكن تعي بعدُ ملامح حظّ جدّتها، لكنّها أدركت لاحقًا، أنّ وجود زوجةٍ لأبيها، تحتلّ مكان والدتها، هو جزءٌ من إرثها الحزين.

***

تقف أمام مرآتها، تئنّ بالسّؤال:

«من أسوأ فتيات الكون حظًّا؟».

تجابهها مرآتها، ترنّ بالجواب:

«أنتِ».

تبتئس بمرارة، تلقي الخيبة رداء اليُتم عليها، تجرجر أذيال حلمها المهترئ، وتمضي بحثًا عن عشٍّ تضع فيه انكساراتها الفتيّة. لم تعد تعتلي سقف الخزانة؛ إذ كان منتهيًا عند سقف الغرفة تمامًا، فاستبدلتْ قعر الخزانة بسقفها، وجعلتْه مُعتكفًا جديدًا لساعات حزنها التي طالت.

هناك، في مدرستها، فسحةٌ ضيّقةٌ من السّعادة، فسحةٌ يبترها جرس انتهاء الدّوام، بحضور أمّهات الطّلاب، لاصطحاب أطفالهنّ. وحدها على قارعة الحنين، تجد أباها بانتظارها ليصحبها إلى بيتٍ لا أمّ لها فيه.

صفعتها يد القانون مرّةً حين جعلت الحضانة من حظّ أبيها، غير آبهة لنقصٍ في الحنان قد يعطب طفولتها الغضّة، وصفعتها يد القدر مرّةً أخرى، حين رسم لها السّفر بينًا سحيقًا، أذبل روح الأمل في قلبها.

تنظر إلى جواز سفرها، تحلم أن تنقضي السّنوات التّسع التي تفصلها عن أمّها، تدرك أنّ الفارق بين النّصف الأوّل من طفولتها والنّصف الثّاني منها، هو تلك المسافة بالضّبط، ما بين سقف الخزانة وقعرها.

***

تكبر قليلًا،

تقرأ كثيرًا، تجد في الحروف السّلوان الضّائع، تهبها الكتب حياةً أخرى، تحملها بعيدًا عن واقعها، تخلق لها بلاغةً تواجه بها سياط لسان زوجة أبيها، ترسم لها أحلامًا كانت غائبةً خلف غباش الفقد المحدق بها. تدرك زوجة والدها ما تبثّه الكتب من جرأةٍ في نفس ربيبتها، تثير حفيظة أبيها عليها، بحجّة الخوف من مفسدةٍ قد تنثرها الكتب في رأسها، فتُصفَّد عن المكتبات وتُحجَب عنها. تتذكّر قصصًا كانت تحكيها لها أمّها قبل النّوم، تتخيّل لو أنّها برفقتها الآن، لأحضرت لها المزيد والمزيد من الكتب!

تتمرّد شيئًا ما، يُولَدُ تمرّدها على هيئة حروفٍ تتسلّل لمسودّاتها، تُفصح خواطرها عن مكنوناتها، تفضح آمالها العذبة، فتقع أوراقها ضحيّةً لسخرية زوجة أبيها، تتنكّر لحروفها، تتنصّل من أحلامها، وتنسبها لكتّاب مرموقين. تصمها زوجة والدها بالسّارقة -أدبيًّا-!

يتراءى لها لو أنّ أمّها من قرأتْ تلك الحروف، لأغدقت عليها محبّةً وفخرًا.

***

تكبر قليلًا،

تتملّك حلمها، تعبر بجواز سفرها على يُتم الأعوام التّسعة، تُقفل عائدةً إلى حضن أمّها، لكنّها إذ ارتمَتْ عليه، فقد أساءت التّوقيت، وتأخّرت في تحقيق الحلم. ومثلما انتهت صلاحيّة الوصاية القانونيّة، انتهت فعاليّة الحنان الّذي مُنع منها آنفًا. ثمّة فجوة في الطفولة، لا يرتقها لقاء، ولا يردمها عناق.

***

تقف أمام مرآتها، تهمس بالسّؤال:

«من هي أقسى أمّهات الكون مشاعرَ؟».

تعرّيها مرآتها، تجهر بالجواب:

«أنتِ!».

تنكمش بخزي، تسدل ستار العار على ماضيها، تلملم أدران الذّاكرة، وتبحث عن مقبرةٍ لأشلاء مشاعر كانت تظنّ أنّها تملأ قلبها.

شاه مقام الأمومة كثيرًا، لم يجد له صنوًا يردف غيابه. وهي، لم تجد لها خزانةً تتّسع لحزنها، لجرحها القديم، ولأمومتها العرجاء، بعد أن غدت زوجة أبٍ مثاليّةٍ لفلذات كبدها الثلاث!

2019

(4)

كمُستير *

جعفر العقيلي

كاتب أردني، صدر له: «للنار طقوس أخرى»، «ضيوف ثقال الظل»، «كمستير»، «مسافة كافية».

إنّه رأسي؛

الوجهُ الناحلُ الذي ورثتُهُ عن جدّي لأبي، العينان المغروزتان في أعماقِه، الأنف المضغوط الباسط قاعدته فوق أرجاء وجنتين ضامرتين، والفم الممتدّ حتى أطراف الأذنين المنكمشتين بعيدًا..

بالتأكيد إنّه هو.. رأسي الذي أعرفه جيّدًا؛

الشَّعْرُ المتجعّد بخصلاته المتماوجة كيفما اتّفق، الجبهة المفلطحة التي تضيق عند حدود الحاجبين، والندبة السوداء التي تزيِّن حنطةَ خدّي الأيسر.

* لعبة يمارسها الأطفال، يُغمض فيها أحدهم عينيه بينما يختبئ البقية في محيطه. ثم يفتح عينيه ويبدأ البحث عنهم.

نعم، لا أشكُّ في مقدرتي على معرفتي -أقصد معرفة رأسي-، فما زلتُ أذكرُه تمامًا بكامل بُؤْسِه الذي رأيتُه فيه آخر مرّة..

هل مِن أحدٍ غابت تفاصيلُ رأسِهِ عن ذهنِهِ يومًا ما؟ هل من شخصٍ ينسى ملامحَهُ؟ حتّى أولئك الموغلون في السنوات يَذكرونَ وجوهَهم العتيقةَ التي لا تفتأُ تشي بتاريخٍ فائضٍ بالأحداث والصُّوَر والتفاصيل كبيرها وصغيرها.

***

إنّه رأسي.

بدا الأمرُ غريبًا إلى الحدّ الذي لا يمكنُني فيه أن أستوعبَه.

صباح أمسِ رأيتُه في مواجهتي، يُطلُّ علَيَّ من فضاء مرآةِ الحمّامِ الدائرية ذات الإطار البلاستيكي المُزركش.

تمعّنْتُ فيه كعادتي، ورفعتُ حاجبَيّ مرّات عِدّة. شذّبتُ ما شذّ من شَعْرهما. سبَّلتُ جفنَيّ؛ دكونَةٌ ما تُلوِّنُهما. إنّه الأرق. ابتسمتُ، فابتسمتُ. أعني ابتسمَ الذي يقابلني. أزَحتُ رأسي إلى اليمين، ففعلَ البغيضُ مثلي.. وحين عبستُ في وجهِهِ، لم يتوانَ عن العبوس في وجهي بكثيرٍ من الشّماتة. حينها راودتني رغبتي التي بدأتْ منذ ثلاثين عامًا ونيّف وما زالت عصيةً على التحقّق؛ في أنْ ألعبَ «الكُمُستير» مع قريني؛ أغافله وأمسك به.

مددتُ لساني، ثُمَّ أعدتُهُ إلى فمي بلمْحِ البصر، توقّعْتُ ألّا يفطنَ لحركتي هذه، لكنّه كرّرها بحذافيرها. بصقتُ في وجهِهِ حَنقًا، فَردّ الصّاعَ

صاعَين، حتّى شعرتُ أنّ وجهي تَعكّرَ بسائلٍ لزج.

لَكَمْ كرهتُ هذا النِّدَّ الذي لم أحمل أُلفةً تجاههُ منذ معرفتي به.

***

المهمُّ أنني الآن في مواجهةِ رأسي. بدت فكرةً فانتازية كلّما أمعنتُ فيها قادتني إلى ضفاف الجنون. رأسي معروضٌ للبيع في حانوتٍ قديم. رأسي الذي أستطيعُ تمييزه من بين ملايين الرّؤوس، ينتظرُ من يشتريه. يا لها من «مسْخَرَة»!

تذكّرتُ المرآةَ التي كم تمنّيتُ أن أنسحبَ من محيطها تاركًا صُورتي فيها. كم حاولتُ أنْ أمضي بينما رأسي محاصر بإطارها البلاستيكي، ولكن..!

عندما لاحَ لي هذا الخاطرُ بدوتُ أكثرَ تقبُّلًا لِمَا يدور حولي؛ فما الفرقُ بين أن أتركَ رأسي في المرآة، وبين أنْ يُزيِّنَ واجهةَ حانوتٍ قديمٍ يكتظّ بالتُّحَف؟ هكذا قُلتُ لي مقرّرًا مواصلةَ مشواري الذي خرجتُ لأجلهِ. لكنّني تراجعتُ! تفرَّستُ في رأسي مرّة أُخرى؛ كان يكتسي ملامحَ صامتة؛ الفمُ يتّخذُ خطًّا مستقيمًا بانحناءةٍ بسيطةٍ عند طرفَيه، والعينان تُحملقان فِيَّ بحياديّة كأنّني لستُ بصاحِبِهما.

إذن، كيف وصلتُ إلى هنا دون رأس؟ من غير المعقول أن يحدثَ هذا. كان صباحًا طبيعيًا، ألقيتُ فيه التّحيّةَ على «أبو العبد» و«سعيد» والآخرين في الحارة، وكلُّهم ردُّوا بأحسنَ منها. لو كنتُ مبتورَ الرأس هل كانوا سيفعلون؟ من المستحيل أنْ أحادِثَهُم بلا لسان. وقد رأيتهم بأمِّ

عيني، فهل كنتُ حقًّا بلا عينين؟

لِمَ لا أتأكّد من ذلك؟! رفعتُ يدي إلى رأسي فوق عنقي أتلمّسُه، فَتنفّستُ الصّعداء حين وجدتُه يتربّع على عرشِ عنقي.

***

لكنّني أقفُ أمام رأسي، وأجزمُ إنْ كان ثمّة رأسٌ يشبهه إلى هذا الحدّ؛ المطابَقة. كما أنه من لحمٍ ودم، فالتَّغضُّناتُ التي ترسمُ ملامحَه حقيقيّةٌ، ورغم ما يتبدّى من جمودٍ فيه، فإنّ الرموشَ تتحرّك جيئةً وذهابًا كما لو كانت حيّةً.

راعَني أنّ ثمة رأسين: واحدا فوق عنقي، بينما يرتكز الآخر فوق قاعدةٍ مخمليّةٍ يُضفي عليها اللونُ الخمريُّ هالةً من قداسة.

«أيُّ مُصيبةٍ تلك التي أنا فيها؟»، ثم استدركتُ كمن فطنَ إلى حلٍّ سحري: «لِمَ لا أقطع الأمرَ من دابرهِ، وأستفسر عن ذاك الذي في الحانوت؟».

لا أعرف لِمَ استعدتُ مشهدَ مرآتي تتشظّى حين رشقتُها ظُهرَ أمس بالصّابونة لأنها لم تَرُقْ لي إذ رمقتُها من بعيد! ولتقاعسي عن شراءِ مرآةٍ جديدة، لم أمارسْ هوايتي مع قريني هذا الصّباح. حتّى إنني غسلتُ وجهي وحلَقتُ لحيتي اعتمادًا على ذاكرتي، فثباتُ شكلي منذ سنين لا يُنبئ أنّ ملامحي ستتغيّر فجأة!

***

تمنّيتُ تحطيمَ الزّجاج الذي يفصلني عن رأسي مثلما فعلتُ أمس

بـالمرآة، غيـر أنّـي مـا لبثـتُ أن اسْتسـخَفتُ الفكـرة، وقـرّرتُ أن أدخـلَ الحانوتَ كأيّ زبونٍ، وأسألَ عن ثمنه، فرُبَّما أشتريه، ورُبَّمـا حين ألمسُـه، يألَفُني، أو يتذكّرني، فأستردُّني دون عناء!

لكنّني سرعان ما انتابتني خيبةٌ عندما انعطفتُ نحو البابِ في الطَّرف الآخَر فوجدْتُـهُ مُغلَقًـا. استطلعتُ المكـانَ بحثًا عـن أحدٍ، فمـا كـانَ غيـر السّكون يلفُّ أرجاءه. ثم الْتَفتُّ إلى رَجلٍ يقـف أمـام بقالـةٍ تفصلها عـن الحانوت أمتارٌ قليلة، بدا من نظراته المُصوَّبة تجاهي كأنّه يتتبَّعُني. حيَّيْتُـهُ، فتلعـثمَ وارتبـكَ، فارتبكـتُ مثلـهُ، وقبـل أنْ أتفـوَّهَ بحـرفٍ بـادرني بنـبرةٍ متحسـرةٍ وهو يدير ظهرَه ويمضـي بعيدًا: «مسكين.. عـاشَ غريبًـا، ومـاتَ غريبًا، لمْ يترك وريثًا ليفتحَ أبوابَ المحلّ بعده.. دُنيا!».

صَعقتْني كلماتُهُ، وأصابتني بالكآبة. وبعد طـولِ وجـومٍ، اشـتريتُ مـرآةً دائريةً صغيرةً من دكان مجاوِرة، ووضعْتُها في جيب سترتي. وحين انزويتُ عن الأنظار قليلًا، أخرجتُها، وبحثتُ عنّي فيها، بحثتُ جيّدًا، فلمْ أجـدْني. لـم أجدْ رأسـي. مـدَدتُ يـدي مـرّة أخـرى أتحسّـسُ تضاريسَـها، فأدهشـني استقرارُه فوقَ عنقي.

هرولـتُ إلـى بيتـي أتـأرجحُ كَبُنـدول، ودوارٌ عنيـفٌ يبعثـرُني علـى الطُّرقـات، ويحيلُنـي إلـى كتلـةٍ مـن فوضـى. عنـد مـدخل الحـارة، ألقيـتُ التّحيةَ على «أبو العبد» و«سعيد» والآخرين، فردُّوا بأحسن منها..

كلُّهم عرَفُوني، إلّا أنا.. يا للحسـرة، لَمْ أعُد أعرفُني!

1996

(5)
خوف

زهير كريم

كاتب عراقي، صدر له: «قلب اللقلق»، رواية، 2010، «صائد الجثث»، رواية، 2014، «ماكنة كبيرة تدهس المارة» قصص، 2017، «فرقة العازفين الحزانى» قصص، 2018، «رومانتيكا»، قصص، 2019، «غيوم شمالية شرقية»، رواية، 2020، «أغاني الرمل والمانجو»، أدب رحلات، 2020.

في كل يومٍ تنهضُ السيدة، تنهض بهدوءٍ حتى لا توقظَ زوجَها، أو إنها في الحقيقة تفعل ذلك لترعى خوفَها من العين الفاحصة، ومن الكلمة الجارحة، تنهض لكي لا تحتفي بالعمى المفاجئ، أو لأنها لاتفضّل الصمت الذي يرافق وقوع الكارثة، تفعل ذلك لأن الخوف قبل أن يكبرَ بسرعة يحتاج إلى المراقبة والرعاية. إذن، هي تراقب فحسب، تنهض لتراقب، تنهض لكي تتأكد أيضا أن العلامة الصغيرة التي تراها بالعين المجردة، لا تعني بالضرورة وجود أخرى مضمرة، علامة تعني شيئا ما

يستدعي الفزع، تراقب لأنها تخاف من المضمر وليس من الظاهر، تراقب لتحاصر مساحة التخريب وتتركه في منطقة الممكن قبل أن تتسع مساحته فيصير في منطقة المستحيل. تنهض وتقف على أطراف أصابعها، تخرج من غرفة النوم وتقطع الصالة بحذرأقل، لكنْ بخوف مضاعف، فهي تخاف أن يكبر هذا الشيء بشكل مفاجئ، أن يعلن عن نفسه بكامل وحشيته وقسوته أمام المرآة، تريد أن تفهم، أو أنها لاتريد ذلك، بل من أجل المحافظة على مساحة محددة من الفهم، تقول إنه من الأفضل أن يحدث ذلك على شكل جرعات، فالشر عندما يأتي على شكل جرعات، يكون أفضل لأنك لا تشعر بشرّه، لا تشعر بالألم نفسه كما لو جاء دفعة واحدة. تتوقف للحظة قبل أن تدخل الحمام، كما لو أنها تدخل غرفة المحاكمة، فهي خائفة بالفعل، خائفة وتراقب، خائفة ولا تريد أن تصدّق أن خوفها سوف يكبر، تريده مجرد مزحة، ثقيلة نوعا ما، لكنها مزحة على كل حال، ثم تدخل الحمام، تدخل وفي رأسها أسئلة كثيرة، مصيرية في الحقيقة، أسئلة عن البذرة عندما تصبح شجرة، عن المرارة التي في الثمرة، تدخل وفي رأسها أسئلة ليست سهلة على الإطلاق، وهناك أشياء عليها أن تفهمها، تفهمًا جيدا، تفهمًا بشكل صارم لايقبل الشك! قبل أن تسمّيها بشكل نهائي.

وفي كل يوم، في الوقت نفسه تفعل ذلك، تفعله بالآلية نفسها، بالحرص نفسه، وبالمشاعر المضطربة التي تحرسها بعناية كما لو أنها تسير في منطقة من مسطحات غير متساوية، أرض مليئة بالعقبات

والانحدارات، تحرس مشاعرها حتى لاتظهر فيربكها السؤال عندما ترى في الإجابة الهاوية أو العتمة الكاملة. تقف للحظة أمام المرآة، تفكر وكأنها لاتعرف لماذا تفعل ذلك، أو أنها تتساءل عن جدوى المهمة التي عليها تنفيذها، وهل من الضروري أن لا تتخلى عن هذه الحركة اليومية السخيفة؟ وفي النهاية تأخذ قرارها، كل يوم في الساعة السابعة صباحا، تتردد قليلا ثم تأخذ قرارها، تنزع عنها قميص النوم، تفتح السوتيان، ثم تعرض صدرها، تلقي نظرة حزينة وقلقة، ترفع بأطراف أصابعها الثدي الأيسر، تنظر إلى التقرّح الذي ظهر فجأة، في كل يوم تنظر له، تفعل ذلك قبل أن يستيقظ الزوج، وقبل أن تدخل المطبخ، وقبل أن يتناولا إفطارهما، وقبل أن يذهبا إلى عملهما، ثم تسأل ماهو هذا الشيء، تسأل ثم تعيد سوتيانها، ترتدي قميصها وتخرج بابتسامة شاحبة، تبتسم وتجتهد لتطوير نسيان، هي تعرف أنه مزيف، لكنه نسيان مؤقت وضروري على كل حال.

وفي يوم آخر، في الوقت نفسه، تقف أمام المرآة ولم يظهر ذلك الشيء، تطلق زفرة، وتقول لا شيء، تضحك فتعبر ضحكتها إلى الصالة وإلى غرفة النوم، يسمع زوجها، فتقول إنها تذكرت شيئا مضحكا، وإنها لم تكن تتصور أن الوجود يحمل الأوهام التي بهذا الحجم مثلما يحمل الحقائق التي بالحجم نفسه، وأن لا شيء يمكن أن نصفه بـ«الحقيقي»، في الوقت نفسه لا يمكننا وصفُ الأشياء الأخرى بالوهمية، فكل شيء خاضع

للمصادفات، وللآنية، وإنها الآن في برج المصادفات السعيدة، ثـمَّ تـدخل المطبخ.

وفي الصباح التالي، ورغم أن التقرح لم يعد، تذهب إلى الحمام، تلقي نظرة ولم يظهر أيضا أيّ شيء، تبحث خلال الأيام التي تعقب ذلك عن أثر الشيء الذي ظهر على ثديها فجأة، لكن لم يكن ثمة شيء، ثم تقول إنها تخيَّلَت ذلك وحسب، أو ربما كان كابوسا. تقول لزوجها: «ظهر تقرح على الثدي الايسر، وكنت في كل يوم ألقي عليه نظرة، لكنه اختفى، هل تعتقد أنني كنت أتخيل أو أنه كان مجرد كابوس!!». وكانت سعيدة، أو أنها تحاول الاندماج في دَور السعيدة ذلك الصباح، فالأسرار لا يخف وزنها إلا عند تقاسمها مع الآخرين، لكنّ الأمور لاتجري دائما على القياس نفسه، ثم تعتذر من زوجها، تقول إنها اشتاقت له، ولم يفهم الزوج لماذا تقول ذلك، أو أنه يفهم لكنه يرى غيوما ثقيلة تمرّ، عيناه تتعلقان بالسقف كما لو أنه يطارد شيئا ما. تقول إنها لم تكن تريده أن يقترب منها، وإنها آسفة فعلا، وإنها لم تكن تريد ليده أن تشعر بذلك الشيء، ولعينه أن تقع عليه، وهي تعتذر، فلم يكن سوى كابوس: «أعتذر وأنا أقلقك بهذه التي تبدو مثل مزحة». تقول: «لقد كنت أتخيل وحسب، هذا مؤكد، كنت أتخيل، أو ربما، أقول ربما، كان مجرد كابوس».

لكن الزوج لم يقل شيئا، لم يبتسم كما ينبغي للمرء الذي يسمع خبراً مبهجا، أو مزحة حتى لو كانت ثقيلة، لم يقل هذا ليس مهما، لم يقل إنه متفهم لكل ما تقول، لم يقل نعم إنه كابوس، لم يقل إنكِ تخيلتِ كل هذا،

لم يقل إنها مزحة، لم يقل إن الذي حدث هو اللاشيء. قال: «عليكِ مراجعة الطبيب يا عزيزتي، مقلق في كل الأحوال أن يظهر مثل هذا التقرح، وتذكّري أمك». فتسمع مفردة «أمك» كمن يتلقى صفعة، أو كأنما حرَّك زوجها الرماد، فتوهَّجَ الجمرالذي في داخلها. يتغير لون الزوجة وتذكر أمها، تقول: «لقد اختفى، لماذا لا تريد أن تصدق أنني كنت أتخيل». ولم تكن تريد الوقوف أمام المرآة عند السابعة صباحا، لاتريد أن ترعى خوفها مرة أخرى، يهتزُّ يقينها بالكابوس، وتتزعزع ثقتها بالخيال، تشعر بألم في مكان ما عندما تتذكر أمها، ثم ينتشر الألم في كل جسدها، تتذكر أمها بشكل مبالغ فيه، وكانت توشك على السقوط في وسط الصالة، الظلام أحاط بها في تلك اللحظة، تتذكر أمها بطريقة مؤلمة، ثم تغمض عينيها فتتخيل نفسها، امرأة في الأربعين بثدي مقطوع، ثديّ كانت تراقب التقرح الذي ظهر فيه كل يوم، في الوقت نفسه، لكنه اختفى، ربما كان كابوسا أو أنه لم يكن كذلك، وربما كانت تتخيل، وربما كان حقيقيا ذلك الشيء.

2019

(6)
حـــوار المرآة*

غابرييل غارسيا ماركيز

كولومبيـــا (1927-2014)، صـــاحب الروايات الشهيرة: «مئة عـام مـن العزلـة»، «الحـــب في زمـــن الكـــوليرا»، «خريــف البطريـرك»، وغيرهـا. حاصـل علـى نوبـل 1982.

الرجل السـابق الـذي شـغل الغرفـة، وبعـد أن نـام سـاعات طويلـة مثـل قديس، ناسيًا هموم وقلق الفجر حديث البزوغ، استيقظ وقد تقدّم النهـار، وصخب المدينة غزا تمامًا هواء الغرفة المواربة. كـان عليـه أن يفكـر –لـو لـم تكن روحه في حالة أخرى– في قلقٍ زخمٍ من الموت. في خوفه التام، في قطعة الطين –صلصال منه بالذات– التي تحت لسان أخيه. لكـن الشـمس

* من مجموعة «عينا كلب أزرق»، 1949.

تم اقتطاع فقرات من القصة دون الإخلال بالمضمون الجمالي لأن القصة طويلة جدّا، تم التركيز على المقاطع التي أراد من خلالها ماركيز أن يبين القلق من المرآة.

أعدت القصة: فدوى العبود.

الجذلة التي تضيء الحديقة، حرفت انتباهه نحو حياة أخرى أكثر عاديّة، أكثر دنيوية، وربما أقل حقيقة من وجوده الداخلي الرهيب.

***

مرتديًا الروب وقد صار قبالة المغسلة، وجه ناعس، مشعث ودون حلاقة، ألقى إليه نظرة ضجرة من المرآة، اجتاحته رعشة خفيفة، صاعدة مثل خيط بارد، حين اكتشف في تلك الصورة أخاه الميت في لحظة نهوضه، الوجه المتعب نفسه، النظرة نفسها التي لم تستيقظ تمامًا بعد.

حركة جديدة بعثت إلى المرآة كمية من الضوء مكرسة للدفع إلى إيماءة لطيفة، لكن العودة العفوية لذلك الضوء جلبت له –خلافًا لنواياه– تكشيرة فظة. ماء. التدفق الدافئ انفتح غزيرًا، وافرًا، وموجة البخار الأبيض والكثيف فصلت بينه وبين زجاج المرآة، وهكذا –منتهزًا فرصة الانقطاع في حركة سريعة– تمكن من التوافق مع زمنه ومع الزمن داخل زئبق المرآة.

***

هناك قبالته، كان الوجه، بنبض، بخفق حضوره الخاص، متحولًا إلى إيماءة، كانت في الوقت نفسه جدية باسمة وساخرة تطل على الزجاج الآخر الرطب الذي غادرته كثافة البخار.

ابتسم (فابتسم)، أخرج –لنفسه– لسانه (فأخرج للواقعي لسانه) كان لسان من هو في المرآة عجينيًا، أصفر (هناك خلل في معدتك) شخّص الحالة (بحركة دون كلام) مرفقًا ذلك بتكشيرة، عاود الابتسام

(فعاود الابتسام) لكنه استطاع الآن أن يلاحظ أن هناك شيئًا من البلاهة، من التصنع، ومن الزيف في هذه الابتسامة التي ترد عليه.

مسد شعره (فمسد شعره) بيده اليمنى (اليسرى). استغرب سلوكه الشخصي والقيام بالحركات كأبله.

***

ارتفع بموسى الحلاقة من الأمام (الخلف) إلى الخلف (الأمام) حتى طرف الفم (الأيمن) الأيسر، بينما يده اليسرى (اليمنى) تمسّد الجلد، ميسرة بذلك مرور حافة الشفرة المعدنية.

لكن، لدى الانتهاء، وحين كان يقوم بآخر اللمسات على خده الأيسر بيده اليمنى، تمكن من رؤية مرفقه على صفحة المرآة. رآه ضخمًا، غريبًا، مجهولًا، ولاحظ أن هناك فوق المرفق، عينين كبيرتين أيضًا ومجهولتين كذلك، تبحثان قلقتين عن وجهة الفولاذ، دم!

بحث في وجهه عن الموضع المقابل؛ لكن إصبعه ظل نظيفًا، ولم تكشف اللمسة عن وجود أي سائل. فوجئ، لم تكن ثمة جروح في جلده، ولكنْ، هناك في المرآة، كان الآخر ينزف نزفًا خفيفًا.

نظر إلى المنشفة، وأغمض عينيه مرتبكًا، بينما كان هناك، في المرآة، وجه مثل وجهه يتأمله بعينين كبيرتين غبيتين، والوجه مقطوع بخط داكن.

(7)
وجوه ذائبة

حسان الجودي

كاتب سوري، أستاذ في هندسة الموارد المائية. له ثمانية مؤلفات أدبية مطبوعة، في الشعر والقصص وقصص الأطفال. حائز على: جائزة سعاد الصباح الشعرية، 1994، جائزة الدولة القطرية لأدب الطفل، 2013، جائزة الأصفري الثقافية، 2019.

اكتشفتُ بعد طول تفكير أن سماكة المرآة تتعلق بعدد الوجوه التي رصدت نفسها في تلك المرآة.

إنه اكتشاف رياضي بحت. قادني إليه الملل. فاستخدمت القدرات المتبقية لباحث علمي متقاعد بدأ الزهايمر يغزو دماغه، واستطعت إيجاد العلاقة الرياضية التالية:

تزداد سماكة المرآة مع ازدياد عدد الوجوه المحدقة فيها. شرحتُ لزوجتي هذه العلاقة، فضحكت من سذاجتي وقالت:

- أنا أعرف ذلك منذ زمن طويل! هل تذكر بيت أهلي القديم؟ كانت هناك مرآة كبيرة سميكة جدًا في غرفة جدتي، وكنت أدخل

فيها أثناء لعبة الغميضة. وهناك رأيت مئات الوجوه المألوفة والغريبة.

فقدتُ حماسي لاكتشاف الجديد بعد سماعي ذلك. تظاهرت باللامبالاة. وأشرتُ إلى قطع مرآة بيتنا المتناثرة، وقلت لها:

– تعالي ننظر إذن في سبب نحافة مرآتنا.

اقتربنا منها، وبدأنا بتجميع الشظايا ولصقها حتى عادت المرآة كما كانت. ثم بدأتْ زوجتي بتقشيرها، كما تقشّر يقطينة قاسية. واستطاعت بعد جهد إزالة الطبقة اللامعة الأولى من المرآة، فظهرت وجوه أحفادنا.

ثم أزاحت الطبقة الثانية، فظهرت وجوه أولادنا، ثم أزاحت الطبقة الثالثة، فظهر السواد مشوبًا ببقع بيضاء شاحبة.

فصرختُ باستغراب:

– وأين وجوهنا نحن؟

أمسكت زوجتي يدي بحنو، ونبهتني إلى أمرٍ، وهو أننا الطبقة الأخيرة من تلك المرآة، وأننا قد فقدنا الملامح تمامًا، وتشوهت وجوهنا بفعل حمض كلور الحرب الذي كان ينقّط باستمرار من سقف غرفة المعيشة المتهدم.

2020

(8)
المرآة *

هاروكي موراكامي

كاتب ياباني وُلد عام 1949. له العديد من الإصدارات في الرواية والقصة، وصاحب الرواية المعروفة «كافكا على الشاطئ».

كل القصص التي رويتموها الليلة تبدو واقعة ضمن فئتين، فهناك فئة حيث تجد عالم الأحياء من جهة، وعالم الأموات من جهة أخرى، وبعض القوى التي تسمح بالعبور بين الجهتين، ويشمل هذا الأشباح وما شابههم. أما الفئة الثانية فتتضمن القدرات الخارقة، الهواجس، والقدرة على التنبؤ بالمستقبل. كل قصصكم تنتمي إلى واحدة من الفئتين.

في الواقع، تجاربكم تندرج ضمن واحدة منهما. ما أعنيه، أن الناس الذين يرون الأشباح يرون فقط الأشباح ولا هواجس لديهم إطلاقا.

والذين تتملكهم الهواجس لا يرون الأشباح. لا أدري لـمَ! لكن على ما يبدو أنها نزعة فردية إلى واحدة منهما، هذا انطباعي على الأقل.

* من مجموعة "الصفصافة العمياء، المرأة النائمة".

هناك بالتأكيد من لا ينتمون إلى أي فئة، وعلى سبيل المثال أنا. فعندما بلغت ثلاثين سنة ونيف لم أكن قد رأيت شبحا يوما في حياتي، ولم تتملكني أيّ هواجس أو رؤى. حدث مرة أن كنتُ في مصعد مع زوجين من الأصدقاء وقد أقسما أنهما قد رأيا شبحا معنا، لكنني لم أرَ شيئا.

وادَّعيا أنها كانت امرأة ببدلة رمادية تقف تماما بقربي، لكن لم تكن هناك أي امرأة، على الأقل بقدر ما يمكنني تصديق ذلك. كان ثلاثتنا فقط في المصعد، أنا لا أمزح، ولم يكن هذان الصديقان من النوع الذي يخطط للقيام بمقلب لي. كان الأمر برمته غريبا، لكن تبقى حقيقة أنني ما زلت لم أرَ شبحا على الإطلاق.

لكن كانت هناك مرة –فقط مرة واحدة– مررت فيها بتجربة أرعبتني وأفقدتني صوابي. حدث هذا قبل عشر سنوات، ولم أخبر به أحدا قط. كنت خائفا حتى من الحديث عن الأمر. أحسست أنني لو فعلت فإن الأمر سيتكرر ثانية، ولذا لم أُثر الموضوع. لكن الليلة تحدّث كل واحد منكم عن تجربته الخاصة، وبصفتي المضيف لا يمكن أن أسميها ليلة دون أن أشارك فيها بقصة من عندي. لذا قررت أن أدخل في الموضوع مباشرة وأخبركم قصتي. ها هي إذن:

تخرجت من الثانوية العامة في نهاية 1960، حينما بلغت الحركة الطلابية أوجها للتو. وكنت جزءا من جيل الهيبيين، ورفضت الذهاب إلى الكلية، وبدلا من ذلك، جلت جميع أنحاء اليابان أمتهن الحرف. كنت مقتنعا أن هذه هي أكثر طريقة صائبة للعيش. يافع ومتهور، هكذا

بإمكانكم أن تنعتوني. عندما أُعيد النظر إلى تلك المرحلة من حياتي، على الرغم من كل شيء، أعتقد أنني حظيت بحياة ممتعة وقتها. وسواء كان الخيار صائبا أم لا، فإنه لو أتيحت لي العودة للماضي مرة أخرى، فأنا متأكد من أنني سأعيش بالطريقة نفسها مرة أخرى.

في خريف السنة الثانية من التجوال عبر البلاد، حصلت على عمل لشهرين كحارس ليلي في مدرسة إعدادية. كان هذا في مدرسة ببلدة صغيرة في محافظة نيجاتا. كنت قد أُنهكت من العمل طيلة الصيف، وأردت أخذ الأمور ببساطة لفترة. أن تكون حارسا ليليا ليس بالأمر المعقد، فقد كنت أنام خلال النهار في مكتب البواب، وفي الليل كل ما كان عليّ فعله هو القيام بجولتين حول المدرسة للتأكد من أن كل شيء بخير، أما باقي الوقت فقد كنت استمع للتسجيلات في غرفة الموسيقى، أقرأ الكتب في المكتبة، وألعب كرة السلة لوحدي في قاعة الرياضة. أن تبقى وحيدا طوال الليل في مدرسة لم يكن حقا بالأمر السيئ. هل كنت خائفا؟ إطلاقا. فعندما تكون في الثامنة عشر أو التاسعة عشر من العمر لا شيء يرعبك.

لا أتصور أن هناك منكم من عمِل يوما حارسًا ليليًا، لذا أظن أنه عليّ أن أشرح طبيعة العمل وواجباته. يُفترض أن تقوم بجولتين كل ليلة، واحدة عند الساعة التاسعة ليلا والأخرى عند الثالثة فجرا، هذا هو البرنامج. كانت المدرسة بناء جديدا من ثلاثة طوابق، ومن ثماني عشرة إلى عشرين حجرة دراسية، ولم تكن بالمدرسة الكبيرة كباقي المدارس.

بالإضافة إلى الحجرات هناك: قاعة الموسيقى، وحجرة التدبير المنزلي، أستوديو للفنون، مكتب الموظفين، ومكتب المدير، بالإضافة إلى كافيتريا منفصلة، مسبح، صالة رياضة، وقاعة محاضرات. كانت مهمتي أن أقوم بمراقبة سريعة لكل هذا.

أثناء القيام بجولاتي، كنت أتّبع قائمة تَحَقُّق مكوّنة من عشرين نقطة، فأضع علامة أمام كل نقطة أنتهي من التحقق منها: مكتب الموظفين تمّ، مخبر العلوم تم. أظن أنه كان بإمكاني البقاء في السرير في غرفة البواب، أين أنام، وأضع علامات التحقق على القائمة دون تكبد عناء القيام بالجولة. لكنني لم أكن من ذلك النوع العشوائي من الشباب.

لم تكن الجولة تستغرق وقتا طويلا، أضف إلى ذلك، إذا ما سطا أحدهم على المكان أثناء نومي، فأنا أول من سيتعرض للهجوم.

على كل حال، كنت عند التاسعة والنصف كل ليلة، أقوم بجولاتي. أحمل المصباح في يدي اليسرى، وفي يمناي سيف كيندو خشبي. مارست الكيندو في الثانوية وأحسست بالثقة في قدرتي على التصدي لأيٍّ كان، وإذا كان الذي يهاجمني مجرد هاو، حتى ولو كان يحمل سيفا حقيقيا، فإن هذا لن يخيفني. لا تنسوا أنني كنت شابا آنذاك، أما إن حدث أمر كهذا الآن، فإنني سأفرّ كالجبان.

على أيّ حال، حدث هذا في ليلة عاصفة في بداية أكتوبر، في الواقع يكون الجو رطبا نوعا ما في هذا الوقت من السنة. كان سرب من البعوض يحوم في الجوار ذاك المساء، وأتذكر أنني قمت بحرق قرصين مبيدين

للحشرات لإبقائه بعيدا. كانت الريح عاتية، وكانت بوابة المسبح مكسورة ما جعل الريح تصفقها ذهابا وإيابا. فكرت في إصلاحها، لكن الظلام كان حالكا، لذا ظلت تصفق بقوة طوال الليل.

مرت جولة التاسعة والنصف بخير، وتم التحقق من كل النقاط العشرين على القائمة بشكل دقيق. كانت كل الأبواب مغلقة، وكل شيء في مكانه. لا شيء غير عادي. فعدت إلى غرفة البواب، وضبطت منبهي على الثالثة، وغرقت في النوم بسرعة.

عندما رنّ المنبه عند الثالثة، استيقظت وكان شعور غريب يراودني. لا يمكنني شرح الأمر، لكني شعرت أني مختلف. لم أشعر بأنني أنهض، بل كأنّ هناك شيئًا ما يكبت رغبتي في النهوض من الفراش، لاسيما أنني من النوع الذي يقفز مباشرة من فراشه، لذا لم استطع فهم الأمر. كان عليّ إجبار نفسي على النهوض والاستعداد للقيام بجولتي.

كانت بوابة المسبح لا تزال تواصل إيقاع ضربها، لكنه الآن مختلف عما سبق. فكرت في أن هناك شيئا غريبا يحدث بالتأكيد، وترددت في الذهاب. لكن أقنعت نفسي أنه عليّ القيام بعملي، مهما حدث. ذلك أن المرء إن تهرّب من القيام بواجبه مرة، فإنه سيتهرب مرارا، ولم أشأ أن أقع في أمر كهذا. لذا حملت مصباحي والسيف الخشبي وانطلقت.

كانت ليلة غريبة تماما. كان صرير الريح يزداد مع مرور الليل، والهواء يتشبع أكثر بالرطوبة. بدأت الحكة تسري في جسدي ولم أستطع التركيز.

قررت أن أبدأ بصالة الرياضة وقاعة المحاضرات والمسبح. كان كل ما تحققت منه على ما يرام. وكانت بوابة المسبح تهتز تحت وقع الريح كشخص مجنون يهز رأسه حينا ويومئ به حينا آخر، بشكل عشوائي. أولا إيماءتين :نعم، نعم ثم لا، لا، لا.. أعلم أن هذا التشبيه غريب، لكن هكذا بدا لي الأمر حينها.

كان الوضع عاديا داخل مبنى المدرسة. تحققت من الأمكنة وسجلت ذلك على قائمتي، لا شيء خارج المألوف يحدث، رغم الشعور الغريب الذي يراودني. مرتاحا قفلت راجعا إلى غرفة البوّاب. كان آخر مكان في قائمتي هو غرفة المرجل المحاذية للكافيتريا في الجانب الشرقي للمبنى، والمقابل لغرفة البواب، ما يعني أنه عليّ أن أمشي على طول الرواق بالطابق الأول في طريق عودتي. كان الظلام دامسا؛ ففي الليالي التي لا يُحجَب فيها القمر، يكون الرواق مضاءً بعض الشيء، أما إن حُجب القمر فلن تستطيع رؤية شيء.

كان عليّ أن أُسلّط ضوء المصباح أمامي لأرى طريقي. في تلك الليلة الخاصة، لم يكن الإعصار ببعيد، لذا كان القمر محجوبا. من وقت إلى آخر، يتسلل نوره من بين السحب، لكن سرعان ما يغرق المكان في العتمة من جديد. كنت أمشي في الرواق أسرع من المعتاد، وكان أسفل حذائي الرياضي المطاطي يحدث صريرا إذ يحتك بالأرضية المشمعة. كان المشمع بلون أخضر كسرير مضبب بالطحالب، يمكنني حتى الآن استحضار صورته. كان مدخل المدرسة في المنتصف أسفل الرواق،

وعندما مررت به فكرت، ما هذا الـ؟ خلت أنني رأيت شيئا في الظلام، فبدأت أتصبّب عرقا، أحكمت قبضتي على السيف الخشبي، واستدرت ناحية ما رأيت، وسلّطت ضوء المصباح على الحائط المقابل لرفوف تخزين الأحذية.

و هناك كنت أنا، بعبارة أخرى لقد كانت مرآة، ولم يكن إلا انعكاس صورتي فيها. لم تكن موجودة في الليلة السابقة، لا بد أنهم قاموا بتثبيتها في النهار. لقد كنت مذهولا يا رجل. لقد كانت مرآة طويلة، بالطول الطبيعي للإنسان. فارتحت لأن الأمر كان مجرد انعكاس لصورتي على المرآة، وشعرت قليلا بالغباء من كوني تفاجأت من هذا. إذن هذا كل ما في الأمر، قلت في نفسي. يا له من غباء! وضعت مصباحي أرضا، وأخذت سيجارة من جيبي، وأشعلتها. نظرت إلى نفسي في المرآة وأنا أسحب نَفَسا من سيجارة، لاح ضوء خافت من الخارج عبر النافذة وصولا إلى المرآة، وكانت بوابة المسبح من خلفي تهتز على وقع الريح.

بعد سحب بضع أنفاس من السيجارة، لاحظت فجأة شيئا غريبا، وهو أن الصورة المنعكسة على المرآة لم تكن لي. ظاهريا تبدو مثلي تماما، لكنها لم تكن أنا بكل تأكيد. كلا، لم تكن انعكاسا، بل كانت أنا، لكنها أنا آخر. أنا آخر ما كان يجب أن يكون إطلاقا. لا أدري كيف أعبر عن الأمر، لكن من الصعب شرح ما أحسسته حينها.

الأمر الوحيد الذي فهمته هو أن هذا الشخص يكرهني. كان بداخله كره يشبه جبلا من الجليد يطفو على بحر مظلم. ذلك النوع من الكره الذي ليس بإمكان أحد أن يخفف منه إطلاقا.

وقفت هناك لفترة، مندهشا. انزلقت سيجارتي من بين أصابعي وسقطت على الأرض، وكذلك سقطت السيجارة التي في المرآة. كنا واقفين هناك، نحدّق في بعضنا بعضا. أحسست أنني كنت مقيّد اليدين والقدمين ولم أستطع الحراك.

و أخيرا تحرّكت يده، ولامست أنامل يده اليمنى ذقنه، ثم كحشرة، زحفت ببطء على وجهه. أدركت فجأة أنني كنت أقوم بالشيء نفسه، وكأني كنت أنا انعكاسا لما في المرآة، ذاك الذي كان يحاول أن يسيطر عليّ.

مستجمعا ما تبقى لي من قوة صرخت وانقطع الوثاق الذي كان يبقيني متسمّرا في المكان. رفعت سيف الكيندو وهويت به على المرآة بكل ما أوتيت من قوة وسمعت صوت الزجاج يتهاوى، لكني لم أنظر ورائي وأنا أُهرع إلى غرفتي. وبمجرد أن دخلتُها، أسرعت إلى غلق الباب ووثبت تحت الأغطية. كنت قلقا من السيجارة التي ألقيتها على الأرض، لكن كان من المستحيل أن أعود إلى هناك. كانت الريح تهدر طوال الوقت، وظلت بوابة المسبح تُحدث الجلبة حتى الفجر. نعم، نعم، لا، نعم، لا، لا، لا..

أنا متأكد من أنكم قد خمّنتم مسبقا نهاية قصتي.

لم يكن هناك مرآة على الإطلاق.

عند طلوع الشمس، كان الإعصار قد مر. توقفت الريح وجاء يوم مشمس. ذهبت إلى المدخل، وكان عقب السيجارة الذي قذفته هناك، وكذلك سيفي الخشبي، لكن لا وجود لمرآة، ولم تكن هناك أبدا أيّ مرآة.

ما رأيته لم يكن شبحا. كان ببساطة أنا. لا يمكن أن أنسى أبدا الرعب الذي عشته ليلتها، وكلما تذكرت الأمر، تراودني دائما فكرة أن أكثر ما يرعب في هذا العالم هي ذواتنا. ما رأيكم؟

ربما قد لاحظتم أنه لا يوجد في بيتي مرآة واحدة. لم يكن تعلّم الحلاقة دون مرآة بالأمر السهل، صدقوني.

2006

(9)
حكاية الرجل الذي قرر ألّا يصير وحيداً

طارق إمام

روائي وناقد مصري. صدر له: «طيور جديدة لم يفسدها الهواء»، «شريعة القطة»، «هدوء القتلة»، «الأرملة تكتب الخطابات سرًّا»، «ضريح أبي»، «الحياة الثانية لقسطنطين كفافيس»، «مدينة الحوائط اللانهائية»، وأحدث أعماله رواية «طعم النوم» (2019). حاز على: جائزة الدولة التشجيعية بمصر 2010، جائزة ساويرس مرتين، الجائزة المركزية لوزارة الثقافة المصرية مرتين، جائزة سعاد الصباح، وجائزة متحف الكلمة الإسبانية.

ذات يوم، قرر رجل وحيد.. وحيد جدًا، أن يحيا الزحام. ولأنه كان يخشى الناس، فكَّر في طريقة تمكِّنه من تحقيق ما يريد دون أن يُضطرّ لمشاركة الآخرين هواءهم العمومي. جلب الرجل الأكثر حدّة في العالم مرآة كبيرة بحجم حائط، هي الأضخم في مدينة الحوائط كلها.. وراح يقذف بها مرة بعد مرة إلى حوائط بيته. في كل مرة كانت المرآة تتفتت إلى قطع أصغر فأصغر، حتى صارت قطع المرايا متناهية الصغر موزعة على

كل ركن في البيت كأشلاء شخصٍ زجاجي. كلما تحرك الرجل في أركان بيته كان يرى أجزاءَ منه تتحرّك حوله، كلًا على حدة: أطراف أصابع، تفصيلة من الوجه هنا وأخرى هناك، حركة من القدم أو التفاتة من العين.

أحسّ الرجل أخيرًا أنه لم يعد وحيدًا، وشعر بسعادة غامضة، غير أنه بقدر فرحته، أُحبطه أنه لا يملك بين آلاف الصور التي تعيش حوله شخصًا واحدًا مكتملًا. الأدهى أن الرجل بدأ يشعر بالملل بعد أيام عدة، خاصةً وقد أحسّ أن أجزاءه –حين يحدق فيها– لا تشبهه مثلما تبدو وهي مكتملة ومتجاورة في جسده. وخاف الرجل لأنه بدأ يشعر أنه صار غريبًا عن نفسه، وكأنه يتأمل في بقايا المرايا، بقاياه.

فكر الرجل متحسّرًا: لقد صرتُ أكثر وحدة، لأنَّ عليَّ الآن أن أغادر صورتي نفسها.. ماذا أفعل؟!

أراد الرجل أن يعود لوحدته، فبدأ يلمّ قطع المرايا ويقذف بها تباعًا من شرفته. غير أنه كلّما تخلّص من قطعة، كان أحد الملامح الحقيقية في جسده يختفي. لم يشعر بذلك في البداية، فقد احتاج منه الأمر وقتًا طويلًا لأنّ قطع الزجاج كانت بالآلاف.. وكان الرجل يندهش قليلًا عندما تجرحه إحدى القطع، لأنه لم يكن يتألّم أو تنزل منه الدماء.. ولكنه رغم ذلك لم يكتشف أنّه يتحوّل لحظة بعد أخرى إلى شخص غير مرئي.

انتهى أخيرًا من مهمته، وفي هذه اللحظة اكتمل اختفاء جسده. جلس مستشعرًا راحة شديدة غير مألوفة، وكان في هذه اللحظة قد قرر أن يهزم وحدته، لأول مرة، بشكل حقيقي. قال لنفسه: «سأحمل خطواتي إلى

الشوارع.. وألتقي أناسًا حقيقيين».. وكان قد أدرك أخيرًا أنه لا يمكن أن يهزم الوحدة بمزيد من الوحدة.

بدأ يتجوَّل في الشوارع، يلقي التحية على الباعة والمارين ويجلس على المقاهي ولكن أحدًا لم يكن يراه. بدأ يتطفل ويتحدث، ويُعرِّف نفسه للناس.. لكنّ أحدًا لم يكن يسمع صوته لأن أحدًا لم يره بالأساس. عاد الرجل محبطًا إلى بيته، وبينما جلس يفكر في الموت، سمع طرقًا على الباب. نهض بسرعة ليفتح، فقد كانت هذه هي المرة الأولى التي يطرق فيها شخص بابه منذ سنوات بعيدة.

فتح الرجل الباب ملهوفًا، وفي هذه اللحظة كاد يسقط من رعب الصدمة.. فقد وجد قبالته شخصًا هو نسخة منه، كأنه ينظر في مرآة.

- من أنت؟!

هتف الرجل مرعوبًا، فأجاب الآخر:

- أنا أنت.. لقد قذفتَ بأجزائي بقسوة ودون رحمة من نافذتك ولكنها اجتمعت من جديد حتى صرت شخصًا مكتملًا.. ولكنني الآن أفضل حالًا منك.. أتدري لماذا؟ لأن كل الناس يرونني ويتحدّثون معي، أما أنت فصرتَ غير مرئي، ولا يمكن لأحد سوايَ أن يراك أو يسمع صوتك.
- أنا غير مرئي؟!
- نعم.. ألم تنظرْ لجسدك ولو لمرة منذ قذفتَ بقطع مراياك؟!
- لم أفعل.. لأنني أشعر بوجودي، وأتنفّس، وأحيا.

- وجودك بلا معنى إن لم يره الآخرون.

فجأة عَبَر الآخر عتبة الشقة، وأغلق الباب خلفه، وجلس على إحدى الأرائك بأريحية من يجلس في بيته.

قال: «لا بد الآن أن يموت أحدنا حتى لا يصبح واحدٌ منا مجرد صورة للآخر.. أنت شخص حقيقي.. من لحم ودم، ولكن أحدًا لا يراك.. وأنا مجرد شبح.. صورة.. ولكنّ الجميع يرونني ويتعاملون معي ككائن حقيقي».

هتف الرجل: «لكنْ لو مات أحدنا لن يعيش الآخر».

وقبل أن يجيب الآخر قفز الرجل، واحتضنه. انطبق جسدهما واتحدا.

بعد لحظات من الألم والشعور بالذوبان والاحتراق، صارا جسدًا واحدًا.. وعاد الرجل الوحيد مرئيًا.. ليبدأ حياة جديدة.

رغم ألم انصهاره في صورته، شعر الرجل الأكثر وحدة في العالم أخيرًا بالسعادة، رغم أنه أحس بمجرد أن لامست خطواته الشارع أنه صار شخصًا ثالثًا.. وُلِد الآن فقط.

2018

قراءة في قصص ثيمة «المرايا»

المرآة وسؤال الذات

فدوى العبود

لماذا المرآة؟

هل كان جان جينيه على حق بجعلنا محبوسين في متاهة من المرايا تُضاعف صورنا وتعزلنا عن الآخرين؟

الآن وسط ما يحدث في العالم هل تعني لكم ثيمة المرآة شيئًا؟

إن العالم مرآة، بل إذا شئتم كل شيء هو مرآة؛ غضب الريح وجموحها، تفتّح الخمائل والينابيع، صقيع أيام الشتاء، التغيّرات القاسية التي تتجلى بسقوط ورقة ونمو أخرى، أليست مرآة للنفس!

مالذي يكشف لنا عنه زهو «نرسيس»؟

إنه معجب بجماله، لم يره أنسان أو إله دون أن يُفتن به، كان يزداد بهاءً كلما تقدم في العمر؛ وكان مدركًا لجماله وإطلالته الجذابة، يصدّهم جميعا ذكورا وإناثًا، لم يكن يعرف الحبّ، لم يكن يقيم للعواطف وزناً! نرسيس مغرم بنفسه، منغلق عليها، لذا ستعاقبه أفروديت بالغرق وهو يحدق في صورته.

لذا فإن السؤال الذي تطرحه الذات هو التردد بين انغلاقها وتوقها للآخر؛ فالتوق للآخر طريق معرفة الذات بالمعنى الصوفيّ لا المعنى الأناني الذي يجد تجسيده في فلسفة سارتر!

«يا مرآتي هل هناك أجمل مني؟» .. تتساءل ملك القاري. إنّ القسوة هنا ليست خيارًا؛ فحين تعاكسنا الحياة تغدو آمالنا البسيطة جراحًا، ومن يفتقد الحنان لا يَهِبْه.. وللمشاعر وقت صلاحيّة. وكيف لا نتغير إن صار القدر سكينا في الظهر؟!

(فالمرآة هنا صنو الذات ورفيقتها، وهي تكشف للكاتبة عن القسوة التي سببها الفقد).

(الخوف - القلق - الهروب الناجم عن العجز)

يقدم نص المرأة التي تحوّلت إلى بخار «فدوى العبود» امرأة تريد الهرب، وهي عاجزة عن اتخاذ قرار في حياتها، والمرآة شاهد أمين على تفككها التدريجي.

أكره المرايا لأنها تكاثر الوجوه؟

هذه العبارة البورخيسية تتكرّر في اللقاء الدائم بين الذات والمرآة.

لا يحتاج عبدالله ناصر في قصته «الآخر» للمرآة. «لو شاء الرب أن نحدّق في وجوهنا طوال الوقت، لجعل أعيننا في باطن أيدينا».

لكنّ الذات التي تبدو للآخرين كاملة ومثالية، تعي فقدانها في المرآة، الخيبة التي نجهد لإخفائها عن الآخرين تظهر في المرآة.. يبدو الطفل

الـذي لـم يكـبر في قصـة كمسـتير للقـاص الأ ردني «جعفـر العقيلـي» وكأنـه ينخرط في لعبة وهو يعابث رأسه امام المـرآة، لكنـه عـاجز تماما عـن سـبر غور نفسه، ليجد فجأة هذا الرأس معروضًا في حانوت. لقد ضيّع ذاته، إنـه يبدو للآخرين كاملا ومثاليًا، لكنه أضاع شيئًا.

مع القـاص العراقـي «زهيـر كـريم» يتخـذ السـرد لعبة مـن نـوع آخـر في ممرات الشك واليقين، الوهم والحقيقة، دون غلبة أيٍّ منها، لكن الحقيقة الوحيدة التـي يؤكـدها أن الخـوف الـذي ننكـره والـذي يبـدأ بتقـرح صـغير موجود في حقيقة وجودنا السخيف.

في قصة حـوار المرآة لغابرييل غارسيا ماركيز الرجـل النـازف في المـرآة حقيقي إلى درجة أن الرجل أمـام المـرآة يتفقّـد أمـاكن الجـروح في جسـده ولا يعثر عليها.

العلاقة مع المـرآة هـي ثنائيـة أسـئلة دون إجابـات وهـي تتخـذ في قصـة «وجوه ذائبة» للكاتب السوري «حسان الجودي» الأخذ والعطاء، فالمرايا تزداد سماكة بعدد الوجوه التي تُحدّق فيها، بعدد الناظرين إليها.

إنّهـا علاقـة سـحريّة مـع المرايـا لا يمكـن أن تظـلَّ المـرآة نفسـها حـين يحـدّق إليهـا وجـه، لكـن الحـرب تتركنـا بـدون وجـه أو ملامـح. «كانـت وجوههم مشوهة بفعل حمض كلور الحرب»

الكاتب الياباني «هاروكي موراكامي» وضمن سرد كابوسي وفي اجـواء «إدغار آلان بو» يحكي عن الرعب من الـذات، لقـد تـوهّم وجـود مـرآة في هذا العالم هو ذواتنا؟ هذا الرعب الذي عاشه مقابل الآخر الذي كرهه..

ربما كانت قصة طارق إمام جوابًا ضروريا لوداع عالم المرايا. وفي نَصّه سؤال الذات التي لا ترى في الوحدة خلاصًا، فنحن نستمدُّ وجودنا من أن يرانا الآخرون، من الحب!

أخيرًا..

نحن لا نحدّق في المرآة حين نكون سعداء، أو في حالة تصالح مع الوجود، على الأقل لا نطيل الوقوف أمامها. إلا في لحظة تهديد أو شك!

أغلب الذين يسألون المرآة هم برتبة جنرالات حرب مهزومين، أو مارشالات حبٍّ مخذولين. إنه سؤال الذات لذاتها التي تتصدع..

«أجبني ما الذي جرى لك؟».

الثيمة الثانية

القطارات

اختارت هذه الثيمة الكاتبة السورية ***فدوى العبود***
وهي من مواليد 1976.
تحمل الماجستير في الفلسفة والأدب، طالبة دكتوراه.
تكتب القصة القصيرة، حائزة على جائزة منى الشافعي عام 2018 عن قصتها «كاميرا ملونة».
لها عدد كبير من المقالات والدراسات النقدية المنشورة في الإمارات الثقافية وعدد من الصحف والدوريات العربية.

(1)
تووووت

شريف صالح

كاتب مصري، حاز على: جائزة الشارقة للإبداع العربي 2010، جائزة ساويرس 2011، جائزة دبي الثقافية 2011، القائمة القصيرة لجائزة الملتقى 2020.

كنتُ قطارًا.

أدفع رأسي بسرعة فائقة إلى الأمام ـمثل «التوربيني»ـ فيجرّ خلفه كلّ جسدي الممتد. أحرّك يدي ورجلي بطريقة آلية على طريقة قطارات البخار في الأفلام القديمة. كنتُ أصدر صوتًا منغَّمًا من فمي إلى مؤخرتي مثل صافرة القطار الطويلة وهو يستعدّ لدخول المحطات:

«تووووت... تووووووت.. توووووووت».

أُصدره بكل قوة حتى إن لم تظهر لي في الأفق، محطة.

على فترات معينة كنت أتوقّف. ألتقط أنفاسي، فيهبط ركاب ويصعد ركاب.

في لحظة من تلك اللحظات قفزت قطتي البيضاء من النافذة ولم تعد. وبسبب السرعة الفائقة واندفاع الهواء طار أيضًا الدفتر الذي

كنتُ أسجّل فيه يومياتي. فقدته إلى الأبد. طارت ساعة يدي وخاتم جدّي الذي ورثتُه بعد وفاته، ويومها شعرت أنني انتصرت على أعمامي.

رغم أنني كنت أقف في مكاني في فترات معينة، لم يكن باستطاعتي أن أتوقّف لألتقط كل تلك الأشياء التي سقطت مني في الطريق.

أكثر ما آلمني أن الفتاة التي أحببتُها وتواعدنا على اللقاء، وصلت متأخرة دقيقة واحدة إلى المحطة التي اتفقنا عليها بعد أن كنتُ قد غادرتُها مُطلقًا صيحتي:

«تووووووووووووووووووووت».

لعل فتاتي مازالت جالسة في مكانها المعتاد على رصيف المحطة تنتظر مروري في زمن آخر.. ومن يدري ألا تكون قطتي البيضاء أيضًا نائمة الآن في حجرها!

أي قوة في هذا الكون كله قادرة على أن تعيد تلك الدقيقة إلى الوراء أو أن تسحب رأسي المندفع بعنف إلى الأمام.. وتعيده إلى الخلف مرة أخرى؟!

من بعد هذه الدقيقة التي فرَّقت بيني وبينها، لم تعد «تووووووووووت» التي أُصدرها مثل «تووووووووت» التي كنت أُطلقها من قبل.

2016

(2)

قطار في صرخة

زياد خدّاش

كاتب فلسطيني، في رصيده 12 مجموعة قصصية. حاز على: جائزة فلسطين للآداب 2015، القائمة القصيرة لجائزة الملتقى 2015.

هزت صيحة الطفل صمت الحافلة، متسلقة ذهن السائق الخمسيني الشارد وشاقّة نعاس الركاب إلى نصفين.

«هيو القطار بابا، هيو القطار بابا».

صاح الطفل الجالس في حضن أبيه وهو يشير إلى قطار يمرّ وظلّ السائق الذي كان يفكّر في تلك اللحظة في زيارة قبر والده (الواقع قرب سكة حديد) ينظر إلى حيث القطار فلا يرى شيئا.

«هيو القطار بابا هيو القطار».

على مدى ربع ساعة ظل الطفل يصرخ على قطار طويل ما زال يمرّ والسائق والركاب ينظرون ولا يرون شيئا.

هبط الركاب كلهم في محطة الحافلة الأخيرة، عدا السائق والصرخة:

«هيو القطار، بابا هيو القطار».

في ليل محطة الحافلات المتأخّر بعد نوم الركاب والمدينة قاد السائق حافلته براكب واحد هو صرخة الطفل باتجاه المكان الذي أشارت له الصرخة.

هل أستطيع استعارة صرخة طفلك لليلة واحدة يا سيدي؟

سأل السائق الأب. فكر الأب طويلا قبل أن يسلمه صرخة طفله مشفقا عليه.

«هيو القطار بابا هيو القطار».

قطع السائق آلاف الكيلومترات ولم يصل إلى القطار. وظلت الصرخة تشير إلى مكان ما والسائق الخمسيني يصدّقها ويمضي في طريقه، سنوات عديدة من الشوارع البعيدة والمدن واليأس والليل والدول وصلت إليها الحافلة دون جدوى.

«هيو القطار يابا هيو القطار هيو هيو يابا».

مات السائق والركاب والآباء والمدينة والحافلات والقطارات.

وحدها الصرخة ظلت حية تتنقل من مدينة إلى أخرى تشير لركاب جدد وسائقين آخرين إلى قطار ما يمر.

2015

(3)
سبعُ عرباتٍ مسافرة

محمد عبدالمنعم زهران

قاص ومسرحي مصري، صدرت له أربع مجموعات قصصية ومسرحيتان وسلسلة قصص أطفال. حائز على عدد من الجوائز العربية، منها جائزة سعاد الصباح، جائزة الشارقة للإبداع العربي، جائزة يوسف إدريس.

انتبهتُ فجأة لتحرك القطار ودهشت، لأنني اعتقدت أني غفوت.

رأيت مساعدي يجلس أمامي، تأمّلتُه.. كان هو، تصاعد ضجيج الركاب مختلطًا بصوت القطار الرتيب، ومن بعيد رأيتُ الكمسري يمرّ عليهم للاطلاع على تذاكرهم. بدا ودودًا على غير العادة، كأنّما يريد أن ينتهي بسرعة. بعد قليل جاء وجلس بجواري..

«أنهيت العربات الموجودة يا ريس».

ظهر الصبي الذي يبيع الصحف ينادي بصوته المرتفع، ومعه صحف اليوم، أعطى كلًا منا صحيفة مجانية لأننا نسمح له أن يبيع، أراد الولد أن

يمنحني صحيفة إضافية لأنني رئيس القطار، ولكنني نظرت إليه من أسفل نظارتي فتراجع. بدأنا نقرأ في صمت، بعد قليل توقفتُ وأخذت أتأمّلهم وهم يقرؤون. أكتفي دائمًا بقراءة العناوين، فما أعتقده يقينا أنه لا شيء سيتغير، وأن الأمور ستمضي هكذا فقط. بعد مرور وقت ألقى الكمسري الجريدة وحدق في النافذة، التفتُّ وقلت له «اهدأ».. فنظر إليّ بعصبية:

«أنت تري يا ريس.. كل هذا الوقت الذي مرّ ولا يستطيعون معرفة سبب حريق القطار، أتمنّى فقط أن أعرف كيف احترق؟!!».

لم أستطع الرد، لكنّ مساعدي تنهد:

«ربما سيستغرق الأمر وقتًا أطول.. يبدو أن هناك صعوبات تواجههم..

بقينا صامتين، مستسلمين لضجيج الركاب وأحاديثهم، بعضهم نائم، والبعض الآخر منهمك في حوار لا ينقطع أبدا، ومن وقت لآخر تخرج ضحكات رائقة من هنا وهناك. لفت نظري سيدة تجلس وحيدة، كانت تبكي، تتلفّت كل وقت وتطيل النظر في كل النوافذ كأنما تنتظر توقف القطار في المحطة التي تريدها. كانت تخفي شيئًا في يدها التي تسندها على حافة النافذة، تقبض عليها بقوة. ظهر بائع السندوتشات بضجيجه المعتاد، يتوقف بصندوقه عند كل مقعد ولا أحد يشتري منه، بدا أنه يؤدي واجبًا تمرّس على أدائه.

تأمّلت الركاب، كانوا يلتفتون في هدوء، تغمرهم سكينة المسافرين الذين يستسلمون لخدر اهتزازات الحركة المنتظمة للقطار، بعضهم يشرد، ينظرعبرالنوافذ قليلا ثم يلتفت إلى من بجواره ويستأنف حديثه.

وحدهم الأطفال كانوا يُحدثون صخبا، يمشون في الممر الطويل بين المقاعد، فيثيرون بهجة الركاب الذين يحاولون اللعب معهم، ومن وقت لآخر تنهض أمهاتهم وتحملنهم وتعدن بهم، لكنهم ما يلبثون أن يعودوا.

طوى المساعد جريدته فجأة.. «انظر يا ريس!.. يقولون إن عدد القتلى ثلاثمائة فقط!!».

رد الكمساري بعصبية: «ثلاثمائة!! هذا لا يساوي ركاب عربتين على الأكثر!».

تركتهما ونهضت، قررت أن أبدأ جولة في القطار..

«لا تتعب نفسك يا ريس.. لقد مررت على كل العربات»

«لمجرد أن يمرّ الوقت»

«الوقت لا يمرّ أبدًا»

أمشي بين المقاعد والركاب يلتفتون إليّ ويبتسمون فأبادلهم الابتسام، تأمّلت كل الوجوه التي بدت لي مألوفة، حتى هذه الأجساد الممددة فى الأعلى على أرفف حمل الحقائب، كانت تستدير وتبتسم. في العربات المزدحمة أفسح الجميع لي طريقا للمرور، حتى بائع الشاي الذى ملأ القطار ضجيجا، عندما رآني، انتحى جانبا.. «تفضل يا ريس».

مررت على العربات السبع، وعندما عدت إلى عربتنا، توقفت أمام السيدة التي تجلس وحيدة، كانت ما تزال تبكي وتلتفت في كل اتجاه، جلست أمامها..

«لماذا تبكين».

«ابني ينتظر..».

«أين؟».

«في البلدة القادمة..».

«أرجوك.. أوقف له القطار.. إنه ينتظرني».

«طبعا.. لا تقلقي».

كانت لا تزال تمسك بشيء ما في يدها، وتقبض عليه في استماتة، تركتُها وعدت إلى مقعدي، رأيت المساعد والكمسري مستمرين في حوارهما، بعصبية أحيانا، وباستسلام في أحيان أخرى. بدأ القطار يبطئ سرعته شيئا فشيئا، لأن البلدة تقترب، ورأيت السيدة تنهض وتنظر من النافذة، وتلوّح بيدها، نظرت إليّ فجأة..

«هل سيتوقف القطار؟».

«بالطبع.. لا تقلقي».

أوشك القطار أن يتوقف، وهي تتحرك من نافذة لأخرى، كأنما تخشى ألا يتوقف.

أخيرا توقف القطار، وانفتح الباب، ظهر شابٌّ ومعه آخر، بينما تحول بكاء السيدة إلى بكاء هستيري، صمتت كل العربة، والتفت كل الركاب إلى الشاب الذى يتحرك بين المقاعد يتبعه رفيقه..

- تعال.. أنا متأكد أن هذه هي العربة.
- ربما كانت عربة أخرى؟
- لا.. هذه هي العربة بالتأكيد.

اقتربا من المقعد الذي تجلس عليه السيدة، كانت تنظر إليه وتبكي، توقف الشاب أمامها

- هذا هو المقعد..
- هل أنت متأكد؟

مدت يدها واستطاعت أن تلمس وجهه وشعره وهي تبكي، والركاب يراقبون في صمت.

- لماذا توقفت؟
- أتذكّر.. فقط.
- ابحث عن الصورة ودعنا نخرج بسرعة!

مال الشاب على النافذة، بينما تنظر السيدة إليه وتبكي، كانت يدها التى تقبض على شيء مستندة على حافة النافذة، بدا أن أصابعهما تلامست، أو هكذا تخيلت لأن الشاب صرخ فجأة:

- وجدتها.. هنا.. هنا في هذه الفجوة التى تهبط فيها النافذة الزجاجية.

مد يده وأخرج صورة:

- هذه هي
- لا أصدق!!
- ألم أقل لك؟
- كنتَ صغيرا جدا!
- عشر سنوات مرت.
- ....؟
- كنا نجلس هنا عندما ألقتني من القطار، لم أكن أملك لها أيَّ صورة.

بكي الشاب، وكانت السيدة تبكي فى لوعة وحرقة..

- إذن هيا لنخرج.
- نعم..
- لماذا تبكي؟!
- أخيرا وجدت صورة لأمي.
- عجيب أن تأتي لك في الحلم لتدلك على مكان الصورة بعد عشر سنوات!
- لأنني قلت لها في الحلم.. أريد أن أراكِ.

تبادل ركاب العربة النظر في صمت، بعضهم تأثّر وبدأ يبكي أيضًا. مضى الشاب ورفيقه حتى آخر العربة ثم هبطا. ركاب العربات الأخرى تزاحموا على النوافذ لرؤية الشاب.

تحرك القطار الآن، فوقفت السيدة في النافذة، رفعت ذراعها ولوحت له، فرفع الشاب ذراعه ولوّح أيضا..

- إلى من تلوّح؟
- لا أعلم.. أفعل فقط ما حدث فى الحلم تماما.. فبعد أن عثرت على الصورة، رأيتها تلوّح لي وهي تبكي، فأخذت ألوّح لها..
- ولماذا تبكي الآن؟!
- لأنني كنت أبكي أيضًا.

اختفى الشابان، وبدأ القطار يستعيد سرعته. نظرتُ إلى السيدة، لم تكن موجودة، كانت قد اختفت، واختفى الركاب والكمسري ومساعدي، ثم تلاشى القطار. انتبهت أخيرا لأنني بدأت أفهم كل شيء.

وفجأة شعرت بحماس غامض، وعدت أفكر بجدية في أنه ينبغي عليَّ الاستعداد لنحو ثمانمائة واثنين وثلاثين حلما تتعلق بركاب يتطلعون في أمل.

....

وأنتَ أنت

أنت الذي تكتب، أتتذكر؟

كنتَ آخر راكب يغادر القطار في المحطة السابقة لتحركه إلى الكارثة، نظرت إليّ وأنت تهبط وكنتَ حانقًا من الزحام، لهذا هبطت قبل محطتك بكثير، لتنجو فقط من الزحام، نظرتَ إليَّ بضيق، فاكتفيت أنا برفع حاجبي

إذ لم يكن بيدي شيء، وأخيرا ابتسمت لك وأنت تهبط، لأنني اعتقدت بأنك هكذا ستنجو من الزحام فقط ليس إلا.

لم أكن أعرف أبدا أنك قد عاودت الركوب في العربة السابعة قبل أن يتحرّك القطار، بعد أن ترددت قليلا، وكنت تنوي كتابة قصة جميلة عن أحلام ركاب بسطاء، تغمرهم سكينة غامضة في سبع عربات مسافرة تتحرك في هدوء.

2017

(4)
ثلاثة

جبير المليحان

كاتب سعودي يُعدُّ من رواد القصة القصيرة في المملكة العربية السعودية، له العديد من المجموعات القصصية، ورواية واحدة.

مشى فينا القطار؛ تتراكض الأيام من النافذة. قهقه طفلي الجالس خلفي فرحًا بركض الأشجار.

التفتُّ إليه؛ فإذا هو أبي يملأ كرسيّهُ بالبكاء!

2005

(5)

الدرجة 2 في قطار الجنوب

سفيان رجب

كاتب تونسي، صدر له: «كالبرتقالة فوق مائدة الفقير» شعر 2012، «الحدائق المسيجة» شعر 2013، «شبّاك جارتنا الغريبة» شعر 2016، «القرد الليبرالي» رواية 2017، «الساعة الأخيرة» قصص 2018، «ساعي بريد الهواء» شعر 2019، «أهل الكتاب الأحمر» قصص 2020. فاز بجوائز وطنية وعربية في الشعر، من أهمها: جائزة مفدي زكريا 2007، الجزائر، جائزة طنجة الشاعرة 2009، طنجة، جائزة عفيفي مطر، عن مخطوطته الشعرية «ساعي بريد الهواء» 2018، القاهرة.

لم تدفعه المغامرة وحدها إلى هذه التجربة، إنما الحاجة إلى مسكن يؤويه في هذه العاصمة الكلبة. في صيف 2011 هبط «محمد علي باسط يديه لربه»، هذا اسمه الطويل الذي لخّصه أصدقاؤه في هذا الاسم الخفيف «داليبا»، وهو تركيب بين «دالي» الذي يطلق على من كان يحمل

اسم محمد علي، والحرفين الأولين من لقبه «با». لذلك سنستعمل اسمه الملخّص في قصتنا هذه:

قلنا هبط «داليبا» من ريفه بالشمال الغربيّ للبحث عن عملٍ في العاصمة، ومن حسن حظه أنه لم يبحث طويلًا حتى وجد عملا كمصلحٍ لغويّ في إحدى الصّحف التي تكاثرت بعد الثورة، لكنه في المقابل لم يجد بيتا للكراء.

اتّصل بأصدقاء قدامى عرفهم في العاصمة أيام دراسته الجامعية في منوبة منذ خمس سنوات، ليساعدوه على إيجاد شقة للكراء، أو ليؤويه أحدهم أياما، حتى يتدبّر أمره في سكن. لكن بعضهم اعتذر، وبعضهم لم يكلّف نفسه حتّى عناء رفع الهاتف عليه، والبعض الآخر وجد هاتفه مغلقا.

جلس على كرسيّ خشبيّ في ساحة «منجي بالي»، يفكّر في حلّ لمشكلته التي ستتحوّل مأزقا حقيقيّا مع هبوط الليل. العاصمة بعد الثورة تغيّرت كثيرا، وامتلأت بالمجرمين الخطرين واللصوص ومروّجي القنّب الهنديّ والخمور. قال له جعفر، وهو أحد الأصدقاء الذين اتصل بهم، واعتذر عن مساعدته، بحجة أنه يسكن مع أخته الطالبة، قال له إنّ العاصمة بعد الثورة أصبحت تُغلق أبوابها قبل الثامنة ليلا، وتتحوّل بعد ذلك كابوسا مرعبا، حتّى إنّ رجال الأمن يلازمون ثكناتهم، ولا يتجرّؤون على الخروج في ليل العاصمة.

فكّر في اللجوء إلى أحد مراكز الأمن، أو أحد المستشفيات، أو أحد الجوامع.. هذه الحلول بعثت في نفسه الراحة، وبدّدت حيرته. رفع رأسه، وراح يراقب الناسَ المندفعين إلى محطّة برشلونة، مثل قطعان التّيتل الإفريقي المهاجرة إلى شمال كينيا مع بداية الصيف، ابتسم للتطابق الزّمنيّ في التشبيه، فالفصل الآن بداية صيف، وهذا ما جعله يحفر داخل التشبيه الذي ارتسم له، ويبحث عن تطابقات أخرى بين التيتل والبشر.

تهاجر قطعان التيتل بحثا عن القوت، وهذه القطعان البشرية كذلك.

كلاهما يتعرض للمخاطر في طريق هجرته، تدفع قطعان التيتل قرابين كثيرة للسباع والتماسيح، وكذلك تدفع هذه القطعان البشرية قرابين كثيرة في طريق بحثها عن قوتها لسباع وتماسيح أخرى لا تشبع أبدا. ربما ما يميّز التيتل عن البشر، أنّ الأول مركّب من حصان وبقر، بينما البشر مركّبون من حيوانات كثر، رغم أنّهم يمتلكون أجساد قردة.

أخرجه من تأمّلاته صفيرُ قطار. القطارات مثل البشر كذلك، تبدأ رحلاتها بالصفير والصراخ، ثمّ تمرّ بمحطّات كثيرة، وتكمل رحلتها كما بدأت. تَذكّرَ المزحة التي كان يردّدها صديقه القفصي حول اسمه، فكان يقول: «اسمك أطول من قطار الفسفاط».

أثناء مرور القطارات بذهنه، وهو يبحث عن الشبه بينها وبين البشر، خطرت له فكرة زرقاء، بدت له أوّل الأمر نوعا من الأفكار التي تتملّك التائهين والغرقى، معجونة من سراب وأيادي منقذين تلوّح في الهواء.

الفكرة تقترح أن يأخذ «داليبا» قطارا تكون وجهته بعيدة، لنقل مثلا قطار الجنوب، فيكون ملجأه الليليّ، وبيته المتحرّك.

بدأ يقيس الفكرة بمسطرة الذهن: لنقل إنّ القطارَ الآن ينطلق في رحلته عند الساعة الخامسة مساء، ويكون وصوله إلى محطّته في الجنوب عند منتصف الليل، وتكون عودته من هناك عند الواحدة صباحا، سيكون وصوله إلى العاصمة عند السابعة صباحا. تحمّس للفكرة كثيرا، وحتّى يحسم الأمر مع نفسه، نهض عن كرسيه في ساحة منجي بالي، وتوجّه إلى محطّة برشلونة.

قالت له العاملة في شبّاك التذاكر:

- أول قطار يتوجّه إلى الجنوب، سيكون بعد ساعة من الآن، مع الساعة السادسة. إلى أيّ محطّة تريد اقتطاع تذكرتك؟

أربكه سؤالها، هو لا يعرف تحديدا وجهته، سألها:

- ما هي آخر محطة لقطار الجنوب؟

نظرت إليه بتوجّس، وأجابته:

- قابس
- متى يصل تحديدا؟
- الثانية صباحًا
- ومتى يعودُ من قابس؟

تحوّل التوجّس الذي كان مرتسما على ملامح عاملة شبّاك التذاكر إلى إبتسامة ساخرة، لا شكّ في أنّ الرّجل الذي يقف أمامها هو أحد

المخبولين الذين امتلأت بهم البلادُ بعد الثورة. أثناء ذلك احتجّ شخصٌ في صفّ الواقفين خلفه ليقتطعوا تذاكرهم، قال بصوت جافّ مثل نقيق ضفدع:

- يا صاحبي، هذا شباك لقطع التذاكر، وليس للاستفسار.

تنحّى «داليبا» بسرعة عن شبّاك التذاكر، وهو ينظر إلى الجهة التي جاء منها صوت الضفدع، فرأى رجلا بدينا ينظر إليه بعينين قاسيتين، كان مثل تيتل إفريقيّ ضخم هو أحد الزعماء البارزين في قطيعه المسافر إلى شمال كينيا، ابتسم له، ورفع يده طلبا للاعتذار، فرجمه الرجل التيتل صاحب صوت الضفدع بنظرة مسمومة حاقدة، وأشاح عنه وجهه.

أحدُ الأشخاص الذين كانوا يتابعون المشهدَ منذ سؤال «داليبا» الأول للعاملة في شبّاك التّذاكر، إلى اللقطة الأخيرة التي رفع فيها يده معتذرا للشخص الذي احتجّ على أسئلته الحمقاء التي عطّلت حركة الصّف أمام شبّاك التذاكر، توجّه إليه مبتسما، وسأله:

- ماذا تريد أن تعرف تحديدا؟

ارتبك «داليبا»، وهو ينظر إلى الرجل المبتسم أمامه، كان سؤاله اللطيف والحادّ مثل سيف الساموراي، يلخّص حيرته الكبيرة في محطة برشلونة: ماذا يريد تحديدا؟

- أريد أن أعرف توقيت قطار الجنوب؟
- أيّ قطار تحديدا؟
- القطار الذي سينطلق الآن.

- لكنّ العاملة في شباك التذاكر أجابتك.

أريد قطارا يذهب بي إلى الجنوب الآن، ويعود إلى العاصمة قبل الثامنة من صباح الغد. ضحك الرجل بصوت مرتفع، وهو يضغط على كتف «داليبا»، وقال:

- ما قصّتك صديقي؟

لخّص له قصّته في جملٍ بسيطة وموجزة: وجدتُ عملا، لكنني لم أجد مسكنا. أريد أن أقضي ليلتي في قطار الجنوب، على أن أقضيها في شوارع العاصمة.

- كان عليك استئجار شقة في نزل شعبي.
- لا شيء أكثر أمنا من قطار الجنوب.

حين لاحظ الرجلُ إصراره على فكرته، فتح بين يديه خارطة رحلته الليليّة في قطار الجنوب، قال: سينطلق القطارُ من العاصمة مع السادسة مساء، وسيصل إلى محطة صفاقس مع الساعة الواحدة صباحًا، سيكون عليك الانتظار ربع ساعة تقريبا، لتستقلّ القطار القادم من قابس، والذي سيصل بك إلى العاصمة مع السابعة صباحا. لكن إن أردت رأيي أنصحك بالهبوط في محطة الجمّ، ستكون تكلفة الرحلة أقلّ، وستجد وقتا كافيا لتدخل التواليت، وتغتسل من غبار الرحلة.

الشرح الدقيق للرجل المبتسم لخّص له أسئلته الحمقاء في طلب واضح وثابت، سيستظهر به أمام عاملة شبّاك التذاكر:

- من فضلك تذكرة إلى محطّة الجمّ
- الدرجة الأولى تريد، أم الدرجة الثانية؟
- وما الفرق؟

عادت الأسئلة الحمقاء إلى فمه، وعادت الحيرةُ الممزوجة بالسخرية إلى نظراتها.

- الفرق بينهما عشرة دنانير تونسية.
- أريد تذكرة إلى محطة الجم في الدرجة الثانية من القطار، وإن كان هناك درجة ثالثة أقلّ منهما بعشرة دنانير ستكون أفضل.

هذا القطار مثل العالم النيوليبرالي، فيه مواطنون درجة أولى، وفيه مواطنون درجة ثانية. هكذا قال «داليبا» في نفسه، وهو يصعد إلى القطار.

:2

من الفكرة الصغيرة تولد فكرة أكبر ومنها تولد فكرة أكبر... هكذا يتواصل توالد الأفكار حتّى نصل إلى الفكرة العظيمة. من تلك الليلة التي قضاها «داليبا» في قطار الجنوب، ولدت في رأسه فكرة كتابة رواية عن قطار الجنوب، عن ركّاب الدرجة الثانية تحديدا، وكان عليه إذن أن يستقلّ القطار مرات أخرى، فاقتطع اشتراكا شهريا في قطار الجنوب، وبدأ في كتابة روايته:

اختار البداية بفتاة راقبها طويلًا، كانت تصعد من العاصمة وتنزل في محطة قرنبالية، كانت في العشرينيات من عمرها، والظاهر أنها لم تكن

طالبـة، خمّـن أنهـا لـن تكـون سـوى سـكرتيرة أحـد المحـامين، ولـم يشـأ الاقتراب منها، والتطفّل على حياتهـا، اكتفـى بمراقبتهـا، واسـتدراجها إلـى روايته، بنى لها بيتًا تخنقـه ثـلاث شـجرات عنـب، قـرب محطّـة القطـار في قرنبالية، أطلق على الفتـاة اسـم فاطمـة، وصـوّرها كيـف تطـلّ مـن نافـذتها الصغيرة وهي تبعد أوراق العنب البرونزيـة في شـهر أكتـوبر لتراقـب القمـر الـذي يشـقّ الغمـام، إنـه القمـر نفسـه الـذي كـان يراقبـه مـن نافـذة القطـار، وحـاول شـرح أفكارهـا التـي تـدور حـول المنحـرف الشـابّ الـذي أحبّتـه والذي جاء يومـا ليطلـب مـن المحـامي الـذي تشـتغل معـه أن يرافـع عنـه. راقـب كـذلك عجـوزا يصـعد دائمـا مـن محطـة قرنباليـة وينـزل في محطـة النفيضة، وضعه في روايته في دور شـحّاذ يمـرّ دائمًـا تحـت بيـت «فاطمـة»، ويقع في حبّها، فيطيل الوقوف تحت نافـذتها، ويـدمن تلـك العـادة، ويعـود إلى ماضي العجوز بكاميرا عالية الدقّة ليصوّر زوايـا شـبابه. راقـب كـذلك شابّة تبيع المناديـل الورقيّـة، وتبعهـا مـرة في تحـرّكها بـين عربـات القطـار، وحين تفطنت لمطاردته لها، غمزته بعينها اليسرى وهي تدخل التواليـت، فـدخل خلفهـا وأغلـق البـاب، وتكـرّر الأمـرُ مـرات كثيـرة. راقـب قطعـان الماشية في الجنوب وهي تتحرك في الهضاب تحـت ضـوء القمـر، وراقـب البيوت البعيدة، وأشجار النخيل المعزولة وهي تحرس الخرائب، وراقـب الشاحنات الخردة وتصوّر كيـف تسـكنها الكائنـات الصـغيرة، وصـنع لهـا حيوات بين فواصل روايته.

لا يعرف الآن كم مرّ عليه من الزمن وهو يسكن قطار الجنوب، ولم ينجح في إتمام روايته، تبدّل الراكبون وتبدّل قاطعو التذاكر، فقط ظلّ القطار نفسه، منذ زمن لم يعد يرى فاطمة تصعد إلى القطار، والشحاذ العجوز كذلك، فقط بائعة المناديل الورقية التي لم يجد لها مكانا في روايته إلى حدّ الآن، أصبحت ترافقه في رحلته إلى محطّة الجمّ، وتعود معه إلى العاصمة، والصبيّ الذي نبت فجأة في حضنها، كبر، وأصبح يناديه: بابا.

2019

(6)
في القطار

محمد تيمور

كاتب مصري (1892-1921)، يُعدّ من مؤسسي الأدب القصصي والمسرحي في مصر.

صباح ناصع الجبين يجلي عن القلب الحزين ظلماته، ويرد للشيخ شبابه، ونسيم عليل ينعش الأفئدة ويُسرّي عن النفس همومها، وفي الحديقة تتمايل الأشجار يمنة ويسرة كأنها ترقص لقدوم الصباح، والناس تسير في الطريق وقد دبت في نفوسهم حرارة العمل، وأنا مكتئب النفس أنظر من النافذة لجمال الطبيعة، وأُسائل نفسي عن سر اكتئابها فلا أهتدي لشيء. تناولت ديوان «موسيه» وحاولت القراءة، فلم أنجح فألقيت به على الخوان وجلست على مقعد واستسلمت للتفكير كأني فريسة بين مخالب الدهر.

مكثت حينًا أفكر ثم نهضت واقفًا، وتناولت عصاي وغادرت منزلي وسرت وأنا لا أعلم إلى أي مكان تقودني قدماي، إلى أن وصلت إلى محطة باب الحديد وهناك وقفت مفكرًا ثم اهتديت للسفر ترويحًا

للنفس، وابتعت تذكرة، وركبت القطار للضيعة لأقضي فيها نهاري بأكمله.

وجلست في إحدى غرف القطار بجوار النافذة، ولم يكن فيها أحد سواي، وما لبثت في مكاني حتى سمعت صوت بائع الجرائد يطنّ في أذني: «وادي النيل، الأهرام، المقطم» فابتعتُ إحداها وهممتُ بالقراءة، وإذا بباب الغرفة قد انفتح ودخل شيخٌ من المعمَّمين، أسمر اللون طويل القامة، نحيف القوام كثّ اللحية، له عينان أقفل أجفانهما الكسل، فكأنه لم يستيقظ من نومه بعد. وجلس الأستاذ غير بعيد عني، وخلع مركوبه الأحمر قبل أن يتربع على المقعد، ثم بصق على الأرض ثلاثا ماسحا شفتيه بمنديل أحمر يصلح أن يكون غطاء لطفل صغير، ثم أخرج من جيبه مسبحة ذات مائة حبة وحبة وجعل يردد اسم الله والنبي والصحابة والأولياء الصالحين. فحولت نظري عنه فإذا بي أرى في الغرفة شابًّا لا أدري من أين دخل علينا. ولعل انشغالي برؤية الأستاذ منعني أن أرى الشاب ساعة دخوله. نظرت إلى الفتى وتبادر إلى ذهني أنه طالب ريفي انتهى من تأدية امتحانه، وهو يعود إلى ضيعته ليقضي إجازته بين أهله وقومه. نظرت إلى الشاب كما ينظر إليّ ثم أخرج من حافظته رواية من روايات مسامرات الشعب وهم بالقراءة بعد أن حوّل نظره عني الأستاذ، ونظرت إلى الساعة راجيًا أن يتحرك القطار قبل أن يوافينا مسافر رابع، فإذا بأفندي وضاح الطلعة، حسن الهندام، دخل غرفتنا وهو يتبختر في مشيته ويردد أنشودة طالما سمعتها من باعة الفجل والترمس. جلس

الأفندي وهو يبتسم واضعًا رجلا على رجل بعد أن قرأنا السلام، فرددناه ردَّ الغريب على الغريب.

وساد السكون في الغرفة والتلميذ يقرأ روايته، والأستاذ يسبّح وهو غائب عن الوجود، والأفندي ينظر لملابسه طورًا وللمسافرين تارة أخرى، وأنا أقرأ «وادي النيل» منتظرًا أن يتحرك القطار قبل أن يوافينا مسافر خامس.

مكثنا هنيهة لا نتكلم كأنا ننتظر قدوم أحد فانفتح باب الغرفة ودخل شيخ يبلغ الستين، أحمر الوجه براق العينين، يدلّ لون بشرته على أنه شركسي الأصل، وكان ماسكًا مظلة أكل عليها الدهر وشرب. أما حافّة طربوشه فكانت تصل إلى أطراف أذنيه. وجلس أمامي وهو يتفرّس في وجوه رفقائه المسافرين كأنّه يسألهم من أين هم قادمون وإلى أين ذاهبون. ثم سمعنا صفير القطار ينبئ الناس بالمسير، وتحرك القطار بعد قليل، يُقلّ من فيه إلى حيث هم قاصدون.

سافر القطار ونحن جلوس لا ننبس ببنت شفة، كأنما على رؤوسنا الطير، حتى اقترب من محطة شبرا، فإذا بالشركسي يحملق فيَّ ثم قال موجها كلامه إليّ:

- هل من أخبار جديدة يا أفندي؟

فقلت وأنا ممسك الجريدة بيدي: «ليس في أخبار اليوم ما يستلفت النظر اللهم إلا خبر وزارة المعارف بتعميم التعليم ومحاربة الأمية».

ولم يمهلني الرجل أن أتم كلامي لأنه اختطف الجريدة من يدي دون أن يستأذنني وابتدأ بقراءة ما يقع تحت عينيه، ولم يدهشني ما فعل لأني أعلمُ الناس بحدّة الشراكسة. وبعد قليل وصل القطار إلى محطة شبرا وصعد منها أحد عُمَد القليوبية وهو رجل ضخم الجثة، كبير الشارب أفطس الأنف، وله وجه فيه آثار الجدري، تظهر عليه مظاهر القوة والجهل. جلس العمدة بجواري بعد أن قرأ سورة الفاتحة وصلى على النبي ثم سار القطار قاصدًا قليوب.

مكث الشركسي قليلًا يقرأ الجريدة ثم طواها وألقى بها على الأرض وهو يحترق من الألم وقال:

- يريدون تعميم التعليم ومحاربة الأمية حتى يرتقي الفلاح إلى مصاف أسياده وقد جهلوا أنّهم يجنون جناية كبرى.

فالتقطت الجريدة من الأرض وقلت:

- وأيّ جناية؟
- إنك ما زلتَ شابًّا لا تعرف العلاج الناجع لتربية الفلاح.
- وأيّ علاج تقصد؟ وهل من علاج أنجع من التعليم؟

فقطب الشركسي حاجبيه وقال بلهجة الغاضب:

- هناك علاج آخر..
- وما هو؟

فصاح بملء فيه صيحة أفاق لها الأستاذ من نومه وقال:

- السوط. إن السوط لا يُكلّف الحكومة شيئًا. أما التعليم فيتطلّب أموالا طائلة. ولا تنسَ أن الفلاح لا يُذعن إلا للضرب لأنه اعتاده من المهد إلى اللحد.

وأردتُ أن أجيب الشركسي، ولكنَّ العمدة حفظه الله كفاني مؤونة الرد فقال للشركسي وهو يبتسم ابتسامة صفراء:

- صدقت يا بيه صدقت ولو كنت تسكن الضياع لقلت أكثر من ذلك. إنا نعاني من الفلاح ما نعاني لنكبح جماحه، ونمنعه من ارتكاب الجرائم.

فنظر إليه الشركسي نظرة ارتياب وقال:

- حضراتكم تسكنون الأرياف؟
- أنا مولود بها يا بيه.
- ما شاء الله.

جرى هذا الحديث والأستاذ يغطّ في نومه والأفندي ذو الهندام الحسن ينظر إلى ملابسه ثم ينظر لنا ويضحك، أما التلميذ فكانت على وجهه سيمة الاشمئزاز، ولقد همّ بالكلام مرارًا فلم يمنعه إلا حياؤه وصغر سنه، ولم أطق سكوتًا على ما فاه به الشركسي، فقلت له:

- الفلاح يا بيه مثلنا وحرام ألّا يحسن الإنسان معاملة أخيه الإنسان.

فالتفت إلى العمدة كأني وجهت الكلام إليه وقال:

- أنا أعلم الناس بالفلاح، ولي الشرف أن أكون عمدة في بلد فيه ألف رجل وإن شئت أن تقف على شؤون الفلاح أجيبك. إن الفلاح يا

حضرة الأفندي لا يفلح معه إلا الضرب، ولقد صدق البك في ما قال. وأشار بيده إلى الشركسي:

- ولا ينبئك مثل خبير.

فاستشاط التلميذ غضبًا، ولم يطق السكوت، فقال وهو يرتجف:

- الفلاح يا حضرة العمدة..

فقاطعه العمدة قائلًا:

- قل يا سعادة البك لأني حزت الرتبة منذ عشرين سنة.

قال التلميذ:

- الفلاح يا حضرة العمدة لا يذعن لأوامركم إلا بالضرب لأنكم لم تعودوه غير ذلك، فلو كنتم أحسنتم صنيعكم معه لكنتم وجدتم فيه أخا يتكاتف معكم ويعاونكم، ولكنكم مع الأسف أسأتم إليه فعمد إلى الإضرار بكم تخلّصًا من إساءتكم. وإنه ليدهشني أن تكون فلاحًا وتنحي باللائمة على إخوانك الفلاحين.

فهزّ العمدة رأسه ونظر إلى الشركسي وقال:

- هذه هي نتائج التعليم.

فقال الشركسي:

- نام وقام فوجد نفسه قائم مقام.

أما الأفندي ذو الهندام الحسن فإنه قهقه وصفق بيديه وقال للتلميذ.

- برافو يا أفندي، برافو، برافو..

ونظر إليه الشركسي وقد انتفخت أوداجه وتعسّر عليه التنفس وقال:

- ومن تكون أنت؟
- ابن الحظ والأنس يا أُنس.

وقهقهه ضحكات عديدة متوالية.

ولم يبق في قوس الشركسي منزع فصاح وهو يبصق على الأرض طورًا وعلى الأستاذ وعلى حذاء العمدة تارة:

- أدب سيس فلاح.

ثم سكت وسكت الحاضرون، وأوشكت أن تهدأ العاصفة لولا أنْ التفت العمدة إلى الأستاذ وقال:

- أنت خير الحاكمين يا سيدنا فاحكم لنا في هذه القضية. فهزَّ الأستاذ رأسه وتنحنح وبصق على الأرض وقال:
- وما هي القضية لأحكم فيها بإذن الله جل وعلا؟
- هل التعليم أفيد للفلاح أم الضرب؟

فقال الأستاذ:

- بسم الله الرحمن الرحيم ﴿إنا فتحنا لك فتحا مبينا﴾. قال النبي عليه الصلاة والسلام: «لا تُعلّموا أولاد السفلة العلم».

وعاد الأستاذ إلى خموله وإطباق أجفانه مستسلمًا للذهول، فضحك التلميذ وهو يقول:

- حرام عليك يا أستاذ. إن بين الغني والفقير من هو على خلق عظيم، وإن بينهم من هو في الدرك الأسفل.

فأفاق الأستاذ من غفلته وقال:

- واحسرتاه إنكم من يوم ما تعلمتم الرطن فسدت عليكم أخلاقكم، ونسيتم أوامر دينكم، ومنكم من تبجح واستكبر وأنكر وجود الخالق.

فصاح الشركسي والعمدة «لك الله يا أستاذ» وقال الشركسي:

- كان الولد يخاف أن يأكل مع أبيه، واليوم يشتمه ويهمُّ بصفعه.

وقال العمدة:

- كان الولد لا يرى وجه عمته والآن يجالس امرأة أخيه.

ووقف القطار في قليوب وقرأت الجميع السلام وغادرتهم، وسرت في طريقي إلى الضيعة وأنا أكاد لا أسمع دوي القطار وصفيره، وهو يعدو بين المروج الخضراء لكثرة ما يصيح في أذني من صدى الحديث.

1917

(7)
المحطَّةُ الأخيرة

لحسن باكور

كاتب مغربي، حاز على: جائزة الشارقة للإبداع العربي 2008 عن مجموعته القصصية: «رجل الكراسي»، جائزة الشارقة للإبداع العربي 2012 عن روايته: «البرزخ»، جائزة دبي الثقافية 2015 عن مجموعته القصصية: «الرقصة الأخيرة»، جائزة الطيب صالح 2017 عن مجموعته القصصية: «الزرافة تظهر في غابة الإسمنت».

راح القطار يتجشأ ويلهث وهو يجر نفسه مبتعدا وسط الظلمة. كنت أقف وحيدا قرب السكة وحقيبتي إلى جانبي، كأني المسافر الوحيد في آخر رحلة يقوم بها هذا القطار المتداعي، وهو الآن ماضٍ باتجاه مستودع الخردوات.

- ها هي ذي محطة «م».. قال لي الجابي.. أعانني على إنزال حقيبتي. لوَّح لي بيده ثم جرّ الباب وأغلقه بسرعة، كأنما خشي أن أعود إلى داخل القطار.

بدا مبنى المحطة الواطئ كتلة باهتة وسط الظلمة. وكانت ريح شديدة تعوي في الخلاء. انكمشتُ على نفسي وأغلقت ياقة معطفي اتقاءَ البرد اللاسع الذي انقض على أطرافي بلسعات حادة كالإبر.

لاح ضوءٌ خافت في البعيد خلف مبنى المحطة، ربما كان ضوءَ أقرب بلدة إلى هنا. بين الفينة والأخرى ينتهك الصمتَ نباحُ كلاب متقطعٌ أو صوت جُدجد حادٍّ يثقب صمتَ الليل، فازداد شعوري بالوحشة وغرابة المكان..

هل نزلتُ في المكان الخطأ؟ لقد طلبت من الجابي أن ينبهني عند بلوغ المحطة. ألححت عليه كثيرا، مثل بدوي يركب القطار لأول مرة، إلى درجة أنه جلس قبالتي في المقصورة كي يُبدّدَ مخاوفي، مثلما ظننت.

تبادلنا كلاما قليلا، ثم استرخى في مقعده وغفا. كان رأسه يتأرجح نحو هذه الجهة أو تلك بفعل ارتجاجات القطار التي تكون عنيفة أحيانا.. غطَّ في النوم، بينما كان القطار يخترق حجُب الظلمة ويقضم المزيد من المسافات مثل وحش فولاذي هائج.. وعلى مدى ساعات كان مُعظم المسافة التي عبرها القطار خلاءً مطلقا كالأبدية..

أثقل عليّ السأم وتخدّرت أطرافي. قمت بجولات في عربات القطار، دون أن يبدد ذلك إحساسي بالوحشة والكآبة. العربات كانت مغلقة

ومظلمة فخمنت أن الركاب الذين يشغلونها أخمدوا النور وخلدوا للنوم، والممرات الفاصلة بين مجموعات العربات كانت فارغة تماما. لم يكن ثمة أشخاص يدخّنون أو عشاق يتهامسون..

عدت إلى المقصورة وأنا ألوم نفسي بشدة على عدم النزول في المحطة الماضية التي أدركني فيها المساء. دون وعي تقريبا آثرت أن أُرجئ هبوطي إلى محطة «م»، رغم أن قدمي لم تطأ أرضَها من قبل. في مرات محدودة رأيتُها من خلف زجاج المقطورة، في أسفاري نحو العاصمة، وأثارتني دائما ببنايتها القميئة المرتجلة، والخلاء المترامي من حولها..

فجأة استيقظ الجابي فقطع حبل هواجسي. تمطى قليلا وتثاءب فاغرا فما بلا أسنان. رمقني من تحت قبعته المائلة، كأنما يتأكد أني ما زلت هنا، ثم انتصب واقفا. دقَّ بوابة المقصورة بقطعة معدنية، كما يفعل عندما يطالب الركاب بإظهار تذاكرهم، ثم نظر إليَّ قائلا:

– استعد للنزول سيدي، أوشك القطار على بلوغ محطتك..

مدَّ يده بتلقائية وأنزل حقيبتي من القمطر العلوي.. «كم هي ثقيلة حقيبتك! ماذا تضع فيها يا أبتاه، أحجارا؟!».. قال ذلك محاولا أن يبتسم، لكن فمه الأدرد خذله؛ فقد انكمشت زاويتا فمه وابتلع ذلك الغارُ الصغير شفتيه الدقيقتين، فبدا مثل مهرج يحاول القيام بحركة مضحكة..

على مبعدة أمتار ينتصب عمود إنارة وحيد يرسل ضوءا باهتا، وأمامي مبنى المحطة البسيط جاثم وسط الظلمة. انحنيت لأحمل حقيبتي، عندما

لمحت أحدا ما قادما باتجاهي. سمعت وقع خطواته في البداية، فحدقت باتجاه مصدر الصوت، ورأيت شبحا يتجه نحوي، ينير طريقه بكشاف ضوئي. تركت الحقيبة في مكانها وانتظرت. كان شيخا يرتدي بذلة شتوية ثقيلة تشبه بذلة الجابي، لكنها بدت قديمة جدا ورثّة، ويعتمر قبعة بحافّة عريضة تلقي ظلالا على وجهه. وقف على مقربة من دائرة الضوء الباهتة المحيطة بقاعدة عمود الإنارة.

- ها أنت ذا قد جئت أخيرا!.. ربما تأخرتَ قليلا، لكنك لم تخلف الموعد..

قال ذلك وهو ينظر باتجاهي، دون أن أرى وجهه. من تحت قبعته تتدلّى خصلات شعر كثيفة. كان يحمل في يده كشافا ضوئيا ضخما. خيل إليّ أن كتفه اليمنى محنية قليلا، وخمنت بأن ذلك نتيجة سنوات طويلة من حمله ذلك الكشاف الضخم.

«اتبعني».. قال، ثم تقدمني باتجاه مدخل المحطة، مخترقا الظلمة بتؤدة بهيأته الشبحية. لم أكن أرى سوى موطئ قدميه الذي يضيئه الكشاف، وأسمع وقعَ خطواته إذ يحتكُّ حذاؤه بالحصى.

رحتُ أجرُّ حقيبتي بعنت فوق الحصى، وأنا أحاول تفحص هذا المكان الغريب وهذا الرجل الأشد غرابة، لكن الظلمة تُعيقني. خُيّل إليَّ أنَّ الرجلَ يكلمني فأصخت السمع، لكن لم يبلغ أذني سوى همهمات خافتة وكلمات مبتورة. «لا بد أنه يكلم نفسه. يا إلهي! نزلت لتوي من قطار غريب، وهأنذا يتلقفني حارس محطة يبدو قادما من عالم آخر..».

- أهـذه حقـا محطـة «م»؟.. أتمنـى ألا أكـون قـد نزلـتُ في المكـان الخاطئ..

أجابني دون أن يتوقّف أو يستدير نحوي:

- أنت لم تخطئ المحطةَ سيدي، وكما قلت لـك مـن قبـل فقـد كنـت أنتظر وصولك.. ألست قادما من مدينة «ح»؟

فاجـأتني النـبرة الواثقـة في صـوته الـواهن الـذي جعلـه سـكونُ الليـل واضحًا ومسموعًا.

أهـو معتـوه أدركـه خـرف الشـيخوخة؟ لكـن الغريـب أني كنـت قادمـا بالفعل من مدينة «ح»!

كنت قد ركبت القطار دون تخطيط مسبق. خاطرٌ مـا -لا يـزال غامضـا حتى الآن- زين لي أن أفعل ذلك، قبل أن ينفضَّ جمعُنا اليومي بأصدقائي المتقاعدين وأنا في الحديقة العمومية حيث كنا نلتقي. نهضت وسط جولة حاميـة مـن لعبـة «الرونـدا» وغـادرتُ المكـان. عـدت إلـى البيـت، حيـث أعددت حقيبتي على عجل. كنت أمدُّ يدي إلى الأغـراض وأدسّـها داخـل الحقيبة، وفي النهاية لم أعـرف مـا الـذي وضـعته فيهـا بالضـبط. بعـد ذلـك يممت صوب محطة القطار. اشتريت تذكرة إلى مدينة «ق»، ولـم أنـوِ قـط أن تكون هذه المحطةُ الكئيبة نهايةً لرحلتي..

- أليست هناك وسيلة مواصلات يمكن أن تُقلَّني إلى البلدة القريبـة؟ يجب أن أتدبَّرَ مكانا للمبيت..

كنا قد بلغنا مدخل المحطة. توقَّف واستدار باتجاهي في الظلمة، ثم قال بالنبرة الهادئة عينها:

- لم العجلة سيدي؟ لو كنتَ بعدُ فتًى يافعا لقلتُ إنك مغامر، أو ربما عاشق يستعجل لقاء امرأة جاء من أجلها.. لكنك مثلي قد بلغت من العمر عتيا، وأحسب أن التأني أثمن درس تعلَّمناه من الحياة.

دفع الباب، وقال مغيّرا الموضوع وموجها ضوء الكشاف إلى الداخل:

- لقد انقطعت الكهرباء هذا المساء. حاولت إصلاح العطل، لكني لم أفلح.. لا مناص من الانتظار حتى الغد كي يأتي الكهربائي من البلدة المجاورة.

سلط ضوء كشافه أمامي: «تفضل من هنا سيدي. انتبه لموطئ قدميك»..

تقدَّمني نحو غرفة بمدخل لا يكاد يتسع لمرور شخص واحد، ينبعث منها ضوء خافت.

كنت منقادا له كالمسحور، دون أن أدري إلى أين يقودني بالضبط. لكن ما الذي أستطيع فعله غير ذلك؟ هل أخرج وأضرب في الظلمة وسط هذه الريح الهوجاء بحثًا عمّن يُقلني إلى مكان آخر؟ لا فائدة. أيّ حل آخر غير هذا يبدو ضربا من الجنون..

- تفضل سيدي. إنها غرفة ضيقة حقّا، لكنها دافئة وتفي بالغرض..

نورٌ خافت ينبعث من شمعتين وُضعتا إلى جانب مذياع ترانزيستور يخشخش فوق طاولة واطئة، إلى جانب سرير كُدّست فوقه ملاءات وأغطية..

- لقد بُنيتْ على عجل كغرفة مؤقتة عندما أُنشئت هذه المحطة منذ زمن بعيد في صدر شبابي، لكنها بقيت على حالها منذ ذلك الحين. الآن صرت أشك إن كانت هيئة السكك الحديدية في البلاد تذكر وجود هذه المحطة أصلا..

صمتَ فجأة. نظرت باتجاهه محاولا رؤية وجهه بوضوح، لكنه كان يقف في موضعٍ لا يطاله النور المترنق للشمعتين..

بلغني صوته من جديد:

- على كل حال، كل شيء عابر ومؤقت. الحياة نفسها ليست سوى محطة عبور نغادرها في النهاية مهما طال مكوثنا فيها..

قال ذلك كأنما يحدّث نفسه، ثم واصل بعد لحظة صمت:

- لابد أنك متعب. يمكنك أن تستلقي على السرير لترتاح قليلا. أما أنا فلديَّ عمل لأنجزه في الخارج.

سلَّط ضوء الكشاف على الأرض أمامه وخرج مغلِقا الباب.

سمعت صوت الريح وهي تزأر في الخارج بالغضب نفسه، وأجلْتُ نظري في الغرفة الكئيبة.. ما الذي جئت أفعله هنا يا إلهي؟! كيف انقدت لهذا الرجل؟ ركبتُ ذلك القطار، وقَبْلاً لبَّيتُ ذلك النداءَ الغامضَ صباح اليوم، لأجدني محاصرا في هذا المكان مثل فأر في مصيدة! لو استجبت

لاستفزاز «العياشي» وقبِلت منازلتَه في «طرح» آخر من «الرُّوندا»، لاتخذ يومي مسارا آخر بالتأكيد، ولرُبما كنت الآن ممددا في فراشي أتابع نشرة الأخبار، في انتظار أن يثقل النوم جفني ثم أندسَّ في الفراش..

أعادني صوته إلى الغرفة الكئيبة:

- تصبح على خير سيدي..

متى عاد؟ كيف دخل دون أن أشعر به؟

قبل أن أرد أو أراه، نفخ في الشمعتين فأخمدهُما.

رحتُ أحدّق في الظلمة. تقلبت طويلًا فوق الفراش الخشن التمّاسا لنوم كلما أمعنت في طلبه تمنَّع. كنت أسبل جفنيَّ فينفتحان على سعتهما، بينما يصل إليّ من مكان ما من الغرفة ما بدا أنه غطيطُ الرجل.

كنت مرهقا جدا بسبب الرحلة الطويلة، وبقيتْ تتقاذفني الهواجسُ والمخاوف إلى أن كلَّ ذهني، ولم أدْرِ متى استسلمت للنوم.

رأيتُني مسجى على نعش يتأرجح فوق الأكتاف.. الوقت قبل المساء بقليل. يخيم جوٌّ رمادي كئيب أكرهه، يسبق هبوطَ الليل. إضافةً إلى الأشخاص الأربعة الحاملين للنعش. لم يكن في الموكب سوى أربعة أشخاص آخرين، اثنان منهم يمشيان إلى جانب الطريق ويوشكان أن ينفصلا عن الموكب، كأنما يتبعان الجنازةَ بدافع الفضول فقط.. يفتحون أفواههم مرددين كلّاما ما، لا بد أنه الكلام الذي يُردَّد عادة في مواكب الجنازات..

بلغ الموكبُ باب المقبرة أخيرا، فأحسست بالرهبة.. مشوا وسط المقبرة وطيئة الأجداث، سالكين طريقا ترابية ضيقة ومتعرجة، حفَّت جانبيها أعشابٌ يابسةٌ كانت تتقصَّف تحت الأقدام.. توقفوا بمحاذاة قبر يتكوم التراب على جانبيه.. كان هناك رجل ضئيل الحجم يتحرك وسط اللحد. عندما وضعوا النعش أرضا، اعتمد على حافتي القبر وقفز إلى أعلى. ندت عني صرخةٌ لم أستطع كبحَها عندما رأيت وجهه؛ لم يكن غير جابي القطار بفمه الأدرد، وقد غطى التراب شعره المجعد وصدره.. نظر إليَّ بعينين فيهما برودة حفّار قبور استأنس بالموت، دون أن يطرف له جفن، كأنه لا يعرفني! كأننا لم نُمضِ ساعات معا في مقصورة قطار مهجور، كان هو جابيَه وكنت أنا راكبَه الوحيد على ما يبدو! لقد خدعني الأدرد إذن! منحته ثقتي العمياء، فإذا هو يقودني إلى حتفي. أكثر من ذلك، هاهو ذا يحفر قبري بيده، ويفعل ذلك بهمة بادية، حتى إن بدنه قد تعفر بالتراب.. رباه! ما كل هذا الجنون؟!

انتشرت عتمة المساء بسرعة، فعمَّت المكانَ وحشة لا تليق إلا بمقبرة.. ثم بغتةً انطلق من مكان ما ضوء قوي آلم عينيَّ.. مددت يديَّ أتقي بهما شعاع الضوء الباهر، وانصرمَتْ ثوانٍ قبل أن أدرك أنه ليس سوى ضوءِ الكشاف وقد سلطه الحارسُ على وجهي، ثم تبينتُ شبَحَ العجوز بهيأته السككية الغامضة مندفعا نحوي يحمل في يده ما يشبه ساطورًا..

قذفت بنفسي هلعا من فوق السرير مرتطمًا بأرضية الغرفة الخشنة، وسمعت صوت الساطور إذ ارتطم بحديد السرير والتَمَع الشرر في الظلام.. بقفزة واحدة وجدتُني خارج الغرفة، دون أن تترك لي الصدمة وقتا للتفكير في ما يحدث بالضبط. التفت مذعورا فإذا شبحُ العجوز يخترق الظلمة باتجاهي، فاندفعت مبتعدًا بأقصى ما أستطيع. تعثرت في خط السكة وأوشكت أن أسقط لكني تمالكت نفسي وواصلت الركض.

حذاءُ العجوز الثقيلُ يحتك بالحصى في خطو سريع. فكرت في أنَّ جسدَه الشائخَ لم يمنعْهُ من الركض بخفة كهل في الأربعين، وشعرتُ به على مقربة مني. أتخيّل يدَه وقد رفعت الساطور عاليا لتهوي به على ظهري فأُرغم نفسي على المزيد من الركض..

أمامي كانت تمتدُّ الظلمة فسيحة موحشة. وفي البعيد تراءت الأضواء الباهتة للبلدة القريبة، فيمَّمتُ شطرها مستنفرا أقصى طاقتي.. الوقْع الخشن لحذاء العجوز على الأرض يخدش الصمت من حولنا، بينما توشك أنفاسه اللاهثة أن تلفح قفاي. أكثر من ذلك ها هو مطاردي الغريب يطلق صرخاتٍ حادة تشق صمتَ الليل مثل قناص يسعى خلف طريدة..

- توقف!.. ستبدد طاقتك بلا طائل، ثم تستسلم في النهاية. لا أحد يهرب من قدره!

بلغني كلامه مُسترسَلا لا يقطعه اللهاث، كأنما يركض بلا أدنى مشقة!

نظرتُ أمامي باتجاه الأضواء وهالني أنها صارت أكثر خفوتا بعد أن ركضتُ كلَّ هذه المسافة نحوها، فشعرت بخواء في قدمي.. نباح الكلاب تلهو به ريحُ الليل فتجعله يأتي من كل الجهات، ثم انطفأَتْ -فجأة- تلك الأضواء الكاذبة دفعةً واحدة وانفتحتْ أمامي هوة من الظلمة الحالكة..

التفتُّ للخلف للمرة الأخيرة فرأيت نصلَ الساطور يلتمعُ لوهلة خاطفة تحت ضوء الكشاف، وغُصتُ عميقا في ظُلمة المجهول.

2016

(8)
تلالٌ كالفيلَة البيضاء

أرنست هيمنغواي

كاتب أميركي، من أهم روائيي القرن العشرين، نوبل للآداب 1945.

كانت التلال الواقعة على الجهة الأخرى من وادي إيبرو بيضاء طويلة. أما في هذه الجهة فلم يكن هناك ظل ولا أشجار، وكانت المحطة بين خطين من السكك الحديد في الشمس. بلصق المحطة كان ظل المبنى دافئًا، وكانت هناك ستارة مصنوعة من خرز الخيزران مسدلة على الباب المؤدي إلى البار لمنع الذباب من الدخول. جلس الأمريكي والفتاة التي معه إلى مائدة في الظل خارج المبنى. كان الطقس حارًا والقطار السريع الآتي من برشلونة سيصل خلال أربعين دقيقة. كان القطار يتوقف عند هذه المحطة لمدة دقيقتين ثم يواصل سيره إلى مدريد.

«ماذا سنشرب؟» سألت الفتاة بعد أن خلعت قبعتها ووضعتها على المائدة.

«إن الطقس حار جدًا،» قال الرجل.

«لنشرب الشراب».

«كأسان من الشراب» وجّه الرجل كلامه عبر الستارة.

«كبيرتان؟» سألت امرأة تقف في المدخل.

«نعم، كبيرتان».

جاءت المرأة بكأسين من الشراب وواقيتين من اللباد. وضعت الواقيتين وكأسي الشراب على المائدة ونظرت إلى الرجل والفتاة.

كانت نظرات الفتاة تسرح في التلال. كانت التلال بيضاء في الشمس وكانت الأرض الريفية داكنة جافة.

«تبدو كأنها فيلة بيضاء!» قالت الفتاة.

«لم أر فيلا أبيض قط» قال الرجل وهو يكرع شرابه.

«ومن أين لك أن تراها؟».

«قد أراها» قال الرجل. «إن قولك هذا لا يبرهن شيئًا».

نظرت الفتاة إلى ستارة الخرز. «لقد رسموا عليها شيئًا. هل تعرف ماذا يقول الرسم؟» سألته.

«أنيس دل تورو. إنه مشروب».

«هل يمكننا أن نجربه؟».

نادى على النادلة عبر الستارة، فجاءت.

«أربعة ريالات».

«نريد كأسين من أنيس دل تورو».

«بالماء؟».

«هل تريدينه بالماء؟».

«لا أعرف» قالت الفتاة. «هل هو طيب مع الماء؟».

«لا بأس به».

«هل تريده بالماء؟» سألت النادلة.

«نعم، بالماء».

«يشبه طعمه طعم السوس» قالت الفتاة وهي تضع الكأس من يدها.

«هكذا هي الحال مع كل شيء».

«نعم» قالت الفتاة. «كل شيء له طعم السوس، لا سيما الأشياء التي ننتظرها طويلا، كمشروب الأفسنتين».

«كفى، كفى!».

«أنت الذي بدأ» قالت الفتاة. «لقد كنتُ أتسلى وأستمتع بوقتي».

«حسن، لنحاول أن نستمتع بوقتنا».

«لا بأس. لقد كنت أحاول. لقد قلت إن الجبال تبدو كأنها فِيَلة بيضاء. أليس هذا قولًا ذكيًا؟».

«إنه كذلك».

«أردت أن أجرب هذا المشروب الجديد. أليس هذا كل ما نفعله؟ ننظر إلى الأشياء ونجرب المشروبات الجديدة؟».

«أظنُّ ذلك».

سرحت الفتاة بنظراتها نحو التلال.

«إنها تلال رائعة» قالت الفتاة. «إنها في الحقيقة لا تبدو كالفيلة البيضاء. كنت أقصد فقط لون قشرتها كما يبدو من بين الأشجار».

«هل نتناول مشروبًا آخر؟».

«لا بأس».

هبّت الريح الدافئة، فارتطمت ستارة الخرز بالمائدة.

«الشراب لذيذ وبارد» قال الرجل.

«إنها رائعة» قالت الفتاة.

«إنها في الحقيقة عملية بسيطة جدًا، يا جيغ» قال الرجل.

«إنها في الحقيقة ليست عملية على الإطلاق».

نظرت الفتاة إلى الأرض التي تقف عليها أرجل الطاولة.

«أعرف أنك لا تمانعين، يا جيغ. إنها لا شيء في الحقيقة. إنها تسمح بدخول الهواء فقط».

لم تقل الفتاة شيئا.

«سأذهب معك وسأبقى معك دائمًا. كل ما هنالك هو أنهم يسمحون بدخول الهواء، وبعدها تسير الأمور بشكل طبيعي تمامًا».

«وماذا سنفعل بعدئذ؟».

«سنكون على ما يرام بعدها. تمامًا كما كنا من قبل».

«ما الذي يجعلك تعتقد ذلك؟».

«هذا هو الشيء الوحيد الذي يكدّر عيشنا. إنه السبب الوحيد لشقائنا».

نظرت الفتاة إلى ستارة الخرز، ثم مدَّت يدها وأمسكت بخيطين من الخرز.

«وأنت تظن أننا بعدها سنكون سعيدين وعلى خير ما يرام».

«أنا أعلم أننا سنكون كذلك. لا داعي للخوف. أعرف كثيرا من الناس الذين فعلوها من قبلنا».

«وكذلك أعرف أنا» قالت الفتاة. «وبعدها كانوا جميعا سعداء».

«على أي حال» قال الرجل، «لا لزام عليك إن كنتِ غير راغبة في ذلك. لا أريدك أن تفعلي هذا إن لم تكوني راغبة فيه. لكنني أعلم أنها بمنتهى البساطة».

«وهل هذا حقًا ما تريده أنت؟».

«أعتقد أنها أفضل شيء نفعله. لكنني لا أريدك أن تفعلي إن لم تكوني حقًا راغبة».

«وإن فعلت، هل ستكون سعيدًا، وتعود الأمور إلى سابق عهدها وتحبني؟».

«أنا أحبك الآن. وأنت تعلمين أنني أحبك».

«أجل، أعلم. لكنني إن فعلت، فهل ستمانع إنْ قلت إنّ الأشياء تشبه الفَيلة البيضاء؟».

«بل سأحبّ مثل هذا القول. أنا أحبه الآن، لكن المشكلة هي أنني لا أستطيع التفكير في مثل هذه الأمور الآن. أنت تعرفينني عندما أصير نهبًا للقلق».

«وإن فعلتها، ألن يعاودك القلق أبدًا؟».

«لن أقلق بشأن ذلك لأنني أعلم أنها عملية في منتهى البساطة».

«إذن، سأفعل. سأفعل لأنني لا أبالي بنفسي».

«ماذا تقصدين؟».

«لا أبالي بنفسي».

«ولكنني أبالي بك».

«أوه، طبعًا. لكنني لا أبالي بنفسي. وسأفعلها وستكون الأمور بعدها على خير ما يرام».

«لا أريدك أن تفعلي إن كان هذا هو شعورك».

نهضت الفتاة وسارت إلى نهاية المحطة. وعلى الطرف الآخر كانت حقول الحبوب والأشجار تمتدُّ على ضفاف نهر إيبرو.

وخلف النهر في البعيد كانت هناك جبال. عبر ظل سحابة حقل الحبوب وشاهدت الفتاة النهر من بين الأشجار، وقالت:

«وبعدها يمكننا أن نملك كل هذا. ويمكننا أن نملك كل شيء وكل يوم نجعل الأمر أكثر استحالة».

«ماذا قلت؟».

«قلت يمكننا أن نملك كل شيء».

«بإمكاننا أن نملك كل شيء».

«لا، لا يمكننا».

«بإمكاننا أن نملك الدنيا بأكملها».

«بإمكاننا أن نسافر إلى أي مكان نشاء».

«لا، لا يمكننا. لم يعد هذا بوسعنا».

«بل هو كذلك».

«لا، ليس كذلك. متى أخذوا منك شيئًا، فلن تستطيع أن تسترده».

«لكنهم لم يأخذوه».

«سننتظر ونرى».

«هيا، عودي إلى الظل» قال لها. «يجب ألا تشعري على هذا النحو».

«لا أشعر لا على هذا النحو ولا ذاك. كل ما هنالك هو أنني أعرف كيف هي الأمور».

«لا أريدك أن تفعلي شيئًا لا تريدينه»..

«وليس في هذا ما يضيرني» قالت له. «أعرف ذلك. هل لنا بكأس أخرى من الشراب؟».

«لا بأس. ولكن عليكِ أن تدركي»..

«إني أُدرك» قالت الفتاة. «هلا توقفنا عن الحديث؟».

جلسا إلى المائدة وراحت نظرات الفتاة تسرح في التلال الواقعة على الطرف القاحل للوادي، ونظر الرجل إليها وإلى المائدة، وقال:

«عليكِ أن تدركي أنني لا أريدك أن تفعلي شيئًا لا تريدينه. إنني على استعداد تام لتقبّل الأمر إن كان هذا الأمر يهمك».

«وأنت، ألا يهمك هذا الأمر؟ بإمكاننا أن نتعايش معه».

«بالطبع، يهمني الأمر، ولكني لا أريد أحدًا غيرك. لا أريد أحدًا غيرك. كما إنني أعلم أن المسألة في منتهى البساطة».

«نعم، أنت تعلم أن المسألة في منتهى البساطة».

«لا بأس أن تقولي ذلك، لكن هذه هي الحقيقة التي أعلمها».

«هلا أسديتِ لي معروفًا الآن؟».

«أنا رهن إشارتك لأيّ شيء».

«أرجوك، أرجوك، أرجوك، أرجوك، أرجوك، أرجوك، أرجوك، هلا توقفت عن الحديث؟».

لم ينبس ببنت شفة، بل نظر إلى الحقائب بلصق جدار المحطة.

وكانت تحمل قسائم من كل الفنادق التي أقاموا فيها.

«لكني لا أريدك أن تفعلي. لست أهتم للأمر كثيرًا».

«سأصرخ،» قالت الفتاة.

جاءت النادلة من بين الستائر تحمل كأسين من الشراب ووضعتهما على واقيتَيْ اللباد المبللتين، وقالت:

«سيصل القطار خلال خمس دقائق»..

1927

(9)

عربة آخر الليل

جميل حتمل

قاصٌّ وصحفي سوري (1956-1994)،
له أربع مجموعات قصصية صدرت في
حياته، والخامسة طُبعت بعد وفاته.

دائمًا يخطر ببالي هذا، أن أكتب عن العربة، عربة قطار آخر الليل الذي يعود من المدينة المكتظّة إلى إحدى ضواحيها الشمالية الفقيرة.

يخطر ببالي أن أكتب عن تلك المرأة ذات اللكنة الإسبانية، الخمسينية التي يبدو أنها تعمل في تنظيف المباني بقمطة رأسها، وبنظرتها المتعبة التي تذكّر لأمر ما بالغبار.

أكتب عن الزنجي الذي يبدأ في التمايل على صوت موسيقى المسجلة الصغيرة، الموصولة بأذنيه بسماعة من خصره، يتمايل أول الطريق ثم ما تلبث حركته أن تهدأ، ليبدأ رأسه الغافي بالارتجاج مع حركة القطار الذي يستند إلى زجاج نافذته.

عن مجموعة الشباب هذه التي تتحدث في ما بينها بلهجة ساحلية أعرفها، وتتحدث مع آخرين بالتركية. حينها كنت أهم بسؤالهم: «هل

أنتم سوريون/ من إسكندرونة مثلًا؟» ثم أتراجع رغم أننا نهبط دائمًا معًا في المحطة نفسها.

أكتب عن الفتاة الشاحبة التي تعود دائمًا آخر الليل وحيدة، أكتب متخيلًا مصائر البشر الآخرين؛ ذاك الشاب النحيل بنظاراته المدورة التي يشبه بها تروتسكي. أقول لنفسي: «لا بدّ من أنه من أقصى اليسار، وهارب من بلده». ثم أتراجع لعلّه يميني مثلًا، أو حتى موغل في اليمينية. أو أنْ لا علاقة له لا باليمين ولا باليسار. أو أنه قد يكون فرنسيًا، وليس منفيًا كما أظن.

أكتب عن ذاك الكحولي العربي شمال الإفريقي، بشتائمه المليئة بكلمة «الحلوف» ببذلته الصفراء المخططة التي تشي بطبيعة عمله؛ تنظيف أروقة المترو. الذي يعود الآن ثملًا إلى عائلته الغاطّة حتمًا في النوم دون أن تتذكره.. أو لأن لا عائلة له هنا أبدًا.. تركها هناك، وجاء إلى «نعيم» هنا ليُدفن في النبيذ الرديء، أو في أحد أقبية المترو مع أكوام النفايات.. أتخيّل هذا المصير المأساوي المفاجئ، ثم أمرّر نظري نحو شاب يبدو حزينًا، وأتخيل أنه بلا أحد، وأنه سيعود -مثلي- إلى برودة غرفته ووحدتها.

وذاك الذي يحمل «جيتارًا» بات يهتزُّ مع اهتزاز جسد المتعَب، فلا مكان آخر الليل، لتتحرك الأصابع فوق الأوتار، ولمحاولة جمع قطع النقود الصغيرة التي بذل مثلها طوال النهار.

أمـرّر بصـري فـوق الوجـوه، راسـمًا لهـا حالاتهـا، مشـيّدًا في ذهنـي «سـيناريوهات» لتفاصـيل أيامهـا المتكـررة، أو لتفاصـيل عودتهـا الليليـة هذه..

أنسج كل ذلك في ذهني، ثم يخطر ببالي ذلك: أن أكتـب، ولكـن مـا أن أصل حتى يسرقني التعب إلى دفء فراش مفترَض.

ودائمًا يخطر ببالي أن أكتب عن العربة هـذه، ولا أفعـل، بـل إننـي الآن لم أعد أستخدم تلك العربة أساسًا، انتقلتُ من ضاحية الشمال، ولـم أعـد أمتطي القطـارات، ولـم أعـد أرى وجـوه سـكان تلـك العربـة المتغيـرين، نسيتهم تمامًا..

دائمًا كان يخطر، أن أكتب عن عربة الليل تلك، عن ناسها، ولا أفعـل، دائمًا كان يخطر ببالي ذلك.

1991

(10)

مشـــــوار*

يوسف إدريس

كاتـب مصـري (1927-1991)، طبيـب، وواحـد مـن أهـم الكتـاب والـروائيين في مصـر والعـالم العربـي. يلقـب بتشـيخوف العرب.

كانت مصر إذا جاءت سيرتها في حديث عابر يرتجّ على الشبراوي، ويتحسر على أيامها، ويرتدّ عقله إلى الأيام الخوالي التي قضاها في الجيش حين كان يذرع مصر من مشرقها إلى مغربها كل أسبوع..

وغالبًا ما كان ينهي الشبراوي لهفته وحسرته وشوقه بأمنية ليس كثيرًا على الله أن يحقّقها، فيهيئ له ظرفًا مناسبًا وقرشين حتى يشدّ الرحال إليها.

---

* من مجموعة يوسف إدريس الأولى «أرخص ليالي» 1954.

ملاحظة: القصة في الأصل طويلة جدًا، فالقاص يوسف ادريس لديه نفس روائي طويل، لذلك قمنا بمونتاج وركزنا على الجزء المتعلق بالقطار دون الإخلال بجماليات القصة، إعداد فدوى العبود.

وأصبحت الجملة التي يعرفه بها زملاؤه من كثرة ترديده لها:

- أبيع عمري على ساعة فيكِ يا مصر..

ولكنه لم يضطرَّ إلى بيع عمره، فقد أتى الفرج من حيث لا يدري، فهو جالس في المركز منذ أربع سنوات وإذا بجماعة حافلة تدخل، وبعد سؤال وضجيج اتضح أنها امرأة مجنونة من كفر جمعة معها أهلها وأقارب، وملأ الصراخ المكان فالتمّت الناس وضاق المركز.

ودقَّ قلب الشبراوي في أمل بين ضلوعه؛ فلا مناص من إرسال المرأة إلى مستشفى الأمراض العقلية في مصر مع «مخصوص»، ومن غيره أجدع مخصوص؟

وهذا ما حدث!

ولم يكن هيّنًا أن يصدّق الشبراوي أن ما حدث كان حقيقية، وأنه سيرى مصر مرة أخرى، ويركب الترام ويتعشى عند الإخوان والأصحاب، ويتعشى نيفة عند المعلم حنفي.

لم يكن ذلك هينًا! لكنه مضى بخطوات تضطرب بفرحة لا يصدقها إلى المحطة ومعه ما يزيد على المائة نفر، وكلهم يوصونه بزبيدة وأن يكون صبورًا معها.

وكان الموكب وهو يخترق البلدة يسترعي انتباه الناس، ويجدون الشبراوي على رأسه فيسأله الذين يعرفونه أين هو ذاهب؟ وكان يجيب في تواضع:

- لحد هنا..

فيعود السائل يتمحك

- لحد فين..

فيجيب الشبراوي وهو يزيد من قلة اهتمامه:

- كده لحد مصر.

وكثيرًا ما يأتيه الجواب:

- هنيالك ياعم....

وتنمل السعادة في أحشاء الشبراوي

وبعد انتظار كثير جاء قطار الدلتا، وركب هو وزبيدة، وجلست ساكنة، وتحرك القطار في أمان الله.

وانتهى القطار من ركناته، وسرحاته، ومحطاته التي لا تفرغ ثم دخل المنصورة كالدودة السوداء الطويلة، وعبر الشبراوي الكوبري، وزبيدة في يده، وهو لا يني عن ترديد:

- بركاتك يا سيدة زينب

وسأل عن قطار مصر فوجده رابضًا ينتظره، وركب وأجلس زبيدة بجوار النافذة. وجاء بائع الليمون وشرب منه كوبتين في نَفَس واحد، ومدَّ الثالثة إلى زبيدة، لكنها دفعتها في تبرم وحنق، وهدهد عليها وهو يتبع الكوبة زميلتيها.

وتحرك القطار والناس فيه آمنون مطمئنون، وزبيدة تنظر من الشباك كالطفلة الصغيرة وعلى فمها ابتسامة نيئة، والشبراوي تطقطق له السعادة أصابعه.

وقبل السنبلاوين استدارت زبيدة فجأة، ثم دبّت على صدرها في عنف وقالت وهي تنظر له في اتهام غريب:

- يا لهوي

ونزل الشبراوي مهرولًا من جنّات سعادته، وردَّ عليها بانفعال:

- مالك ياختي.. مالك يازبيدة؟

ولم تجبه، وإنما وضعت كفَّها تحت أنفها، وبأقصى قوتها أطلقت زغرودة خالية من كل هم.

وأعقبتها بسرب طويل من الزغاريد.

والتفت الركاب إليها، وصمتت العربة كلها في دهشة عظمى، وتخلخل الشبراوي وداخ قليلًا فلم ينطق بحرف..

وبعد أن حاول ابتلاع ريقه فلم يجد له ريقًا طبطب على زبيدة، ومعلشي ياختي، حقك عليَّ، طولي بالك، اعملي معروف، بلاش فضايح، وكلمتين من كلماته الهادئة وسكتت زبيدة.

ولكن الركاب لم يسكتوا، بل انطلقت ألسنتهم تعلق همسًا على ما حدث، ثم ارتفعت الأصوات. كل هذا والعيون لا تتحوّل عنه أو عنها.

وسمع بأذنه واحدة تقول:

- دي لازم مراته يا ضنايا..

وعَرِقَ الشبراوي حتى نفد العرق إلى بذلته الصفراء، وسأل جارٌ لم تعجبه الحال:

- هي الست مالها يا شاويش؟

وقال الشبراوي وقد استرد لسانه وإن لم يسترد مفاصله:

- أبدًا.. ولا حاجة

وسكت قليلًا ثم اضاف:

- أصلها..

وضمَّ أصابع يمناه ثم حركها في دائرة بجوار رأسه.

ولم يكن الشبراوي قد كفَّ عن تحريك يده حين استدارت إليه زبيدة وتكلمت بأعلى صوتها، ومعالمها مدببة مشحوذة:

ولا حاجة إزاي.. إزاي يا جدع ولا حاجة!!

ونظر الشبراوي إليها في جزع حقيقي وهي تقترب بخلقتها من وجهه، وتراجع برأسه حتى ألصقها بخشب العربة واضعًا المنديل بما فيه بينه وبينها.

ولكنها أنهت اقترابها منه فجأة، وانتصبت واقفة ثم فتشت سقف العربة بعينين زائغتين وزعقت بكل ما تستطيع:

- ولا حاجة إزاي.. يسقط عمدة بلدنا ابراهيم أبو شعلان.. يسقط عمدة بلدنا.. يعيش جلالة الملك.. يعيش جلالة الملك الريس محمد بيه..

وطقت زغرودة فائرة..

وفي ثانية أصبح لزبيدة والشبراوي نصف العربة، بينما انزوى كل الركاب في النصف الآخر متوجسين شرًا.

وغادر العربة نفر قليل من المسافرين بينما ابقى حبُّ الاستطلاع معظمهم.

واصبحت بدلة الشبراوي كالمغسولة بعرقه، ومدَّ يده يرغم زبيدة على الجلوس وينهي الموقف، لكنها خبطته على يده، وتأودت وهي تزغرد وتقول:

- يسقط عمدة بلدنا.. يعيش جلالة الملك.

وانطلقت ضحكات بائعي الكازوزة والفول السوداني، وجرت وراءها ضحكات المسافرين، ولم يجد الشبراوي مانعًا من ضحكه هو الآخر.

ولكنه لم يضحك طويلًا فقد فوجئ بالمسألة تنقلب جدًا ولا هزل فيه، وروَّعه من زبيدة أنها مدَّت يدها، ورفعت ذيل ثوبها تريد أن تخلعه، وهجم عليها يوقفها، لكنها دفعته وهي تزغرد، وقامت معركة.

ولو أنه تغلب عليها آخر الأمر، فأقعدها بالقوة وربطها بكوفية تبرع بها واحد من المسافرين، ومع هذا إلا أنها كانت قد فعلت شيئًا أفقده صوابه، فقد قذفت بطربوشه من نافذة القطار.. الطربوش الذي ظلَّ فوق رأسه من يوم أن دخل الخدمة، وبقيت فروته عارية بيضاء إلا من شعره القليل القصير.

ولم تهدأ زبيدة حتى بعد أن فعلت هذا، وظلت تطلق الزغاريد وفي كل مرة.. يسقط العمدة ويعيش الريس..

قراءة في قصص ثيمة «القطارات»

عن الصفير الحزين للقطارات

فدوى العبود

- *تووووووت*

بهذه النغمة الحزينة يختصر شريف صالح حكايته مع الزمن، وبمزيج من ذكرياته ورشّة من سحرية ماركيز، نرى كيف يبدو الفقدان، وكيف تتطاير الأشياء من نوافذ قطار حياتنا الذي لا يرجع للخلف. وكيف تفوتنا المواعيد.

- *تبقى الطفولة صرخة الطفل في نص زياد خداش «الصرخة» باقية عبر الزمن وهي تنادي على قطار نريده «قطار لا يراه أحد سوى من يناديه».*
- *مع محمد عبدالمنعم زهران «سبع عربات مسافرة» تنداح الحدود بين الحلم والموت وعالم الحياة، لنشاهد أبطال الكارثة عالقين في القطار وهم يشعرون بالغضب من كذب الصحف التي استهانت بأجسادهم المحترقة، في سرد يخلق قوانينه الخاصة ليصهر في بوتقة السرد بين الفانتازي المتخيل والواقعي السحري، فلا نعرف ولا يعرف إلا القارئ الخبير أين تبدأ الحدود وأين تنتهي!*
- *مع قصة «ثلاثة» لجبير المليحان. يحضر الزمن (زمن سريع كالقطار يلتفت لابنه فيعثر على أبيه) يالها من خيانة!*

- مع «الدرجة 2 في قطار الجنوب» للقاص سفيان رجب. يصبح القطار بيتًا، يسكن البطل قطار الجنوب، ويتحوّل من نزيل مؤقت إلى نزيل دائم في قطار الوهم. ويمكن لنا أن نرى الكائن المخدوع بالثورة والنيوليبرالية، والكتابة وكل شيء وهم. بماذا يذكركم قطار سفيان رجب؟!

هل حزرتم؟

قطار الحياة!

- مع قصة محمد تيمور/ التي اعتُبرت أول قصة عربية تتحقق فيها ملامح القصة، ينخرط القارئ في حوار محتدم يعبر عن صراع الأجيال. واللافت أن الأستاذ أو المعلم في رأيه مع الجاهل العمدة القليوبي ومع الرجل العجوز الشركسي، في رفض التعليم للفلاح ورفض كسر التراتبية واحتقار الأدنى ونظرتهم الإقطاعية. لكنّ الشاب الثائر التلميذ يرفض هذا الرأي وصوته خجل، وتتحقق فيها الصفات الفنية بلغة تتناسب والمرحلة وقد وصفها القاص زهير كريم: «قصة قريبة من زمنها».

وربما كانت فيها نبوءة تتعلق بالزمن الحالي، إذ يتولى التعليم فكر ظلاميّ أودى بجيل كامل نشهد تبعاته «وهذا لا يلغي الاستثناء».

- مع قصة «المحطة الأخيرة» للحسن باكور من المغرب يشي السرد بلعبة القدر. واختيار القطار ليس عبثًا، فالقطار لا يرجع للوراء

مهما حدث، ويكفي أن ترمش بعينك أو تسهو للحظة حتى تفوتك المحطة.

فالمسافر الذي استقل القطار لا يعرف إلى أين؟ والجابي ذو الفم الأدرد ليس سوى حفار القبور، أما الشيخ العجوز بساطوره فهو القدر الذي يجعلنا ننساق كالمنومين، وربما تأتينا صحوة أخيرة لكنها دون فائدة. صدقوني دون فائدة!

- والآن لنتوقف عند القصة الثامنة «تلال كالفيلة البيضاء» إرنست همنغواي 1927 (والجدير ذكره أننا قمنا بعملية مونتاج للقصة دون الإضرار بالمحتوى) وحذفنا جزءا منها بما فيه الخاتمة التي لا تضيف شيئا، فالحوار هنا هو الأساس وهو يبدو بلا معنى.

لكن هل هو حقًا بلا معنى؟!

(يشرح كونديرا في كتابه الوصايا المغدورة بترجمة معن عاقل/ المركز الثقافي العربي/ الدار البيضاء/ المغرب/ 2015).

يقول:

«إن القصة التي تبدأ بفتاة متوترة وشاب يحاول تهدئتها، تفتح باب التخيل».

الرجل متزوج ويرغم عشيقته على الإجهاض ليحافظ على زوجته..

أو عازبٌ ويريد الإجهاض حتى لا تتعقد حياته..

ولعلّه مصاب بمرض خطير –وهنا يمكن للمرء أن يتخيل أي شيء– ويخشى أن يترك الفتاة وحيدة مع طفل. وكلما اقتربت النهاية، تفقد

شجاعتها، وتشعر أنها آثمة، وهنا يُثني كونديرا على: «حالات المجاز التي تتوارى وراء الحوار».

أما الشخصيات فهي ليست أقل ارباكًا

- لعل الرجل حساس وحنون وعاشق.

من يضمن؟

حتى لو قرأنا الحوار مجددًا:

- ألا يمكن ان يكون محتالًا وأنانيًا ومنافقًا.

ولعل الفتاة:

- مفرطة الحساسيّة ولطيفة وأخلاقية في الصميم.
- ربما هي متقلبة الاطوار وتحب ان تقدم مشاهد هستيريا.

ولنعد للحوار..

الدوافع الحقيقية لتصرفهما متوارية، لا سيّما أن الحوار كان دون إيضاح، في ما يخص الطريقة التي لُفظت بها الإجابات: بسرعة، ببطء، بتهكم، بحنان، بخبث، أم بإعياء؟

يقول الرجل: «تعرفين أنني أحبك».

فتجيب الفتاة: أعرف!

لكن ماذا تعني هذه الـ«أعرف» هل هي حقًا واثقة من حبِّ الرجل؟ أم تقول ذلك بتهكم؟

الموتيف الوحيد هنا هو موتيف التلال البيضاء، لم يكن همنغواي هاوي مجازات، لذلك لا ينتمي ذلك المجاز إلى الرواي، إنما إلى الفتاة الشابة؛ تلك الفتاة التي تقول وهي تنظر إلى الهضاب:

«كأنها فيلة بيضاء».

يجيب الرجل وهو يشرب البيرة: «لم أشاهد قط فيلة بيضاء».

- لا. وما كان بمقدورك أن تراها

في هذه الإجابات تتضح طبائعهما في اختلافها، إن لم يكن في تعارضها، يُظهر الرجل تحفظًا حيال الابتكار الشعري للشابة (لم أشاهد قط فيلة بيضاء).

تجيب بسرعة لأنه ما كان بمقدورك أن تراها.

لا شيء يتضح خلف هذا الحوار فيستحيل الحكم الأخلاقي، إنها قصة تلتقط السطح المرئي والملموس للمواقف.

حاولوا أن تعيدوا حوارًا من حياتكم/ حوار حب/ حوار خصام/ ستجدون أنكم فقدتم المواقف الأثيرة إلى الأبد وما بقي منها معناها المجرد».

- في «عربة الليل» لجميل حتمل 1991.

حين يمتد التخيل إلى حيوات الآخرين وتمثل مصائرهم ويومياتهم وهمومهم الصغيرة. وقد وصفها الكاتب والشاعر «حسان الجودي» بقوله: «الرتابة الكلاسيكية تلمع كالذهب أحيانا». فهي قصة مفرطة الحساسية وكتبت بروحيّة عالية رغم عدم اعتمادها أيّ فنيّات للسرد.

- أما القصة الأخيرة فهي للقاص يوسف إدريس بعنوان «مشوار» الذي يبين لنا عن عظمة أحلامنا وتفاهة الواقع، وكيف تغدو مضحكة على أرض الواقع. فشبراوي يحلم بالسفر في القطار لمصر. لكن السفر الذي انتظره سيكون مع امرأة تعاني من مرض عقلي، تقضي الرحلة في زغاريد مخجلة تحول رحلته إلى محنة !
- أخيرًا: لماذا القطار؟

لأن القطار يشبه الحياة فهو إن انطلق لا يرجع، وفي كل محطة يودّع أشخاصًا ويحمل آخرين، ويمكن للحظة سهو أن تضيع محطتك؟ وكم مرة شردنا عن محطتنا فأمضينا باقي الرحلة في التحسر عليها. في رواية «آنا كارنينا» تختار آنا الانتحار تحت عجلات القطار. ولهذا دلالة! فقد شعرت بأنه آن لهذا القطار أن يتوقف!

يكتب أيكو في خاتمة اسم الوردة: «كانت الوردة اسمًا ونحن لا نمسك إلا الأسماء».

إنها توووووت، (شريف صالح- وسفيان رجب- زياد خداش-جبر المليحان-إرنست همنغواي -جميل حتمل-عبدالمنعم زهران -يوسف ادريس- حسن باكور-محمد تيمور) أقول تبقى قصصهم بطعم الشجن.

أيييييييييه...

الثيمة الثالثة

الحبال

اختار هذه الثيمة الأديب السوري: ***الدكتور حسان الجودي.***

وهو من مواليد 1961 في مدينة حمص السورية.

درس الهندسة المدنية في جامعة دمشق، ثم الدكتوراه في هندسة الري في بولونيا، قام بالتدريس الأكاديمي في بعض الجامعات العربية كأستاذ في هندسة الموارد المائية وانتهى *به المطاف عام 2015 في أوروبا مجددًا، باحثًا في جامعة أمستردام التقنية.*

لديه ثمانية مؤلفات أدبية مطبوعة، في الشعر والقصص وقصص الأطفال.

حاز على: جائزة سعاد الصباح الشعرية 1994، جائزة الدولة لقطرية لأدب الطفل 2013، جائزة الأصفري الثقافية 2019.

(1)

حبال ملوّنة بحزن

نهى حسين

كاتبة سوريّة، من مواليد دمشق 1988. حاصلة على شهادة الدكتوراه في قسم تعليم اللغة العربية في المعهد العالي للغات، جامعة دمشق. لها قصص ونصوص منشورة في الصحف العربية، وعدد من النصوص مترجمة إلى الصينية والفارسية والإنجليزية.

تمرّ البلاد باختناق اقتصاديّ؛ لعلّه المسوغ الذي يُهوّن قضاء النّهار كلّه في صناعة حبلِ مشنقة متين، يصلح لمرّات عدّة. ذاكرتي أخشن من يديّ اللتين تتعاقبان على هذا الانشغال؛ لذا لا أذكر لأيّ احتفال أُعِدُّ هذا الحبل. ليس مهمًّا لكنّي سعيدة بفعل هذا رغم كثرة البكاء في المراحل كلّها. يا إلهي !أتفوه بهذه الكلمة المسيئة مجددًا؛ احتفال! تبدو بغيضة مقابل الرّؤوس المتدلية كأنّها فزّاعات حقل لعنتها الرّيح غير مرّة.

تضحك جارتي؛ تلك العجوز الحمقاء، من ألوان الحبل التي اشتريتها، تقولها ساخرة: «موت بنكهة قوس قزح!». امممم. أنا ذهبت إلى ذلك

عمدًا، إذ لا يحتاج المَسوق إلى الإعدام كآبةً إضافية أشدّ من موافاة النّزع الأخير!

حسن أنا متأكدة، ليس لأنّي امرأة تركض بها الأيّام نحو السّتين، بل من حدس أكاد أكون مراياه، أنّ الإنسان في ذلك الموقف المهيب ينتبه للتّفاصيل جميعها؛ يستكشف ما حوله عن كثب، ويُبصر ما يعتمل في روحه بجلاء. إنّ جسده الشّاحب يستشعر آنذاك الأنفاس المطمئنة واللاهثة، والألوان تلك التي تدلّ على حكاية والمحايدة كأنّها الوحشة، والرّوائح المُسكِرة والنّتنة حضورًا ومعنى، والوجوه الحاضرة والبعيدة في الذّاكرة!

سآخذ وقتي في صناعة العقدة؛ لا بدّ أنها لن تفلت فريستها. ألوي الحبل المصنوع بعاطفة محمومة؛ لأكوّن حلقة. أدندن أغنية قديمة رقصتُ على إيقاعها الهادئ ذات حبّ؛ هربًا من فكرة أنّها دائرة سوء!

أوصل طرفي الحبل. آهٍ! هذه اللفائف اللعينة خشية أن تسقط أغنية دون بلوغ نهايتها.

ماذا أفعل بالصّوت الذي يصدر عند دفع المشنوق صوب حتفه؟ إنّه يَصْدَع القلب. أحاول أن أتخفف منه بجعل الأغنيات التي ترافق صناعته مبهجة لا شجيّة. لعلّها محاولة فاعلة في إحداث دمع مختلف! أتابع لفّ الحبل في صمت مدوٍّ يُشبه آخر أمنياته!

أتأرجح بينما أُتمّ صناعته على أرجوحة طفوليّة تضيق بي ذرعًا، بينما تتأرجح الأقدام اليابسة عقب سقوطها الحافل بانتصار مزعوم في مخيلتي!

يهبّ هواء كأنّه اغترف من جليد، تلقي جارتي حصاة صغيرة فتنفجر فقاعة شرودي؛ إنّها تخشى عليّ من لفح البرد: متى ستنتهين من هذا الحزن! تعالي لنشاهد الأخبار.

أعلّق الحبل في المساحة المتبقية، وأنصرف بالرّجاء ألّا يكون صغيري الذي كثرت أوسمة حروبه على جداري قد توجّع يومها!

2018

(2)

الحب في زمن الكورونا

فادي شماس

طبيب سوري يعيش ويعمل في ألمانيا منذ 16 عاما ويكتب القصة على سبيل الهواية.

عندما استيقظتُ اليوم لم يخطر على بالي أني سأنتحر قبل أن أشرب الرشفة الأخيرة من فنجان القهوة..

كان الصباح ربيعيًا جميلًا، وكانت شمسه المشرقة وعصافيره المغردة تَعِدُ بيوم دافئ.. أنا أعشق الصباح وأعشق رائحة البنِّ فيه.. ألقيت نظرة على البذور التي زرعتها.. لم تنبت بعد.. أعددت لنفسي القهوة وجلست أكتب تلك القصة..

بدأت القصة قبل شهر من الآن عندما قررت أن أزرع زهورًا جديدة في الحديقة.. في المخزن الذي يبيع مستلزمات الحدائق اشتريت بذورًا لأنواع متعددة من الزهور، واشتريت أيضًا تربة وحوضًا لاستنبات البذور قبل نقلها إلى الحديقة.. اشتريت أيضًا حبلًا.. لا أدري لماذا، لكني كثيرًا ما أشتري أشياء ثم أبحث في ما بعد عن الغرض من شرائها. على كل حال كان الحبل ملفوفًا على بعضه بعضًا ويبدو مثيرًا مثل ذلك الذي يضعه كلينت ايستوود على سرج حصانه في أفلام الوسترن..

زرعت البذور بعناية وبحماس طفل ما زال يتقمصني، وصرت بين الفينة والفينة أراقبها رغم أني أعلم أنها لن تبدأ بالنمو قبل مرور عشرة أيام على الأقل..

مرت الأيام العشرة وعشرة أخرى فوقها ولم تنمُ بذرة واحدة من بذوري، لكني لم أستسلم وواظبت على العناية بها وعلى تزويدها بكل ما تحتاج إليه من ماء ودفء وضوء حتى تنمو..

على الطاولة أمامي ما زال الدفتر الذي اكتب عليه يومياتي مفتوحًا على صفحة البارحة 26/ 3/ 2020 وعليها مكتوب جملة واحدة:

- لم تنمُ زهوري بعد. أقلب الصفحة إلى اليوم السابق لأقرأ جملتين:
- شخَّصت اليوم في مشفانا الصغير 4 حالات من التهاب الرئة بفيروس كورونا.. ماذا سيحدث إذا استمر انتشار المرض على تلك الوتيرة؟
- لم تنمُ زهوري بعد. وفي الصفحة السابقة جملتان أيضًا:
- لم تنمُ زهوري بعد
- صورة CT لصدر مريض في العناية المشددة مصاب بالكورونا مع علامات ARDS..
- و في الصفحة التي قبلها:
- حضرت يوليا اليوم.. كان يومًا رائعًا، شاهدنا على شاشة العرض فيلم «one day on earth» لجيم جارموش.. لم أخبر يوليا بأني

كنت قد شاهدت الفيلم من قبل حتى لا أفسد عليها حماسها لحضوره.. شربنا النبيذ وطلبنا الطعام بالهاتف، أنا طلبت بيتزا وهي اكتفت بالسلطة كي تحافظ على قوامها لكنها التهمت شريحتين من البيتزا الخاصة بي..

سألتني عن زهوري التي لم تنمُ بعد وسألتني أيضًا لماذا اشتريت ذلك الحبل.. قلت لها إني اشتريته كي أوثقها إلى السرير قبل أن أمارس معها الحب.. أحبت يوليا الفكرة.. جعلنا في الحبل أنشوطة ثم لعبنا لعبة الكاوبوي وتبادلنا أدوار راعي البقر والبقر فكان أحدنا يقف في منتصف الغرفة ويلقي الأخر بالانشوطة على رأسه.. ووجدت أنني أتقن دور البقر.. مارسنا الحب ونسيت أن أوثق يوليا إلى السرير، ثم شربنا مزيدًا من النبيذ.. أنا انخرطت –كالعادة– في ثرثرة غبية.. هذه المرة عن الفرق بين ممارسة الحبّ وممارسة الجنس، وكالعادة استمعت لي يوليا باهتمام دون أن تتحدث.. قبل أن تمضي قبلتني وقالت لي:

- أنت أحمق.. الفارق بسيط ولا يحتاج لكل ذلك الشرح، فأنت تمارس معي الجنس وأنا أمارس معك الحب.. لن أنسى ملامح وجهها في تلك اللحظة..

أنا أعشق الجملة الأخيرة، ودومًا عندما أكتب قصة أبدأ بالجملة الأخيرة، أو بعبارة أخرى، عندما أجد جملة أخيرة تقنعني أكتب قصة من أجلها.. اليوم كان مختلفًا؛ ذلك أن الصباح الجميل ورائحة القهوة جعلاني أبدأ الكتابة لأول مرة دون جملة أخيرة.. لكنّ الأمر تبدل دفعة

واحدة عندما لمحت الحبل، كنت ويوليا قد تركناه مرميًا إلى جانب الأريكة.. الآن أعلم لماذا اشتريت الحبل.. لقد اشتريته من أجل الجملة الأخيرة! الحبل أوحى لي بالجملة الأخيرة الأكثر اقناعًا على مر الزمن.. لم تنمُ زهوري هذه المرة ولم تنمُ في المرة السابقة ولم تنمُ في أي يوم.. ربما لانني أسرف في سقايتها، أو لأنني أنخرط دومًا في ثرثرة لا طائل منها عن الفرق بين ممارسة الحب وممارسة الجنس، أو ربما -وهو الأصح- لأنني في حياتي لم أمتلك يومًا الشجاعة الكافية لممارسة الحب..

الجملة الأخيرة:

وضعت كرسي في منتصف الغرفة، ربطت الحبل إلى خطّاف السقف، وضعت رقبتي في الأنشوطة ثم دفعت الكرسي جانبًا..

فادي شماس 27/ 3/ 2020

نسخت القصة في صفحتي في فيس بوك ثم ضغطت على زر «مشاركة»..

بعد ذلك وضعت كرسي في منتصف الغرفة، ربطت الحبل إلى خطاف السقف، وضعت رقبتي في الأنشوطة ثم دفعت الكرسي جانبًا.

2020

(3)
حبلي السري

أغصان الصالح

كاتبة عراقية حاصلة على بكالوريوس في اللغة الألمانية من جامعة بغداد وبكالوريوس في الإخراج السينمائي من جامعة بغداد كلية الفنون الجميلة. وحاصلة على شهادة في اللغة الإنجليزية من جامعة Mount Royal . صدر لها كتابان في قصص الأطفال باللغة الإنجليزية منAuthor House في الولايات المتحدة الأمريكية.

لقد كان أمرًا مثيرًا للدهشة ان أولد بحبل سري طويل جدا مليء بالعقد، فسر أهلي ذلك بأني كنت كثيرة الحركة في رحم أمي.

احتفظتْ أمي بحبلي السري، وكلما رأتني أزعج أحدًا من حولي، طلبت مني ان أفك إحدى العقد.

بقيت على هذه الحال طوال عمري وتنوعت العقد، مرة تكون العقدة مرتخية، وفكها بغاية السهولة، ومرة تكون محكمة، فأقضي أيامًا، وأحيانًا أسابيعَ أو أشهرًا لفكها.

فككتُ جميع العقد، وعرفتُ عندها أن مهمتي قد انتهت حين طلبتْ شقيقاتي مني أن أذهب معهن إلى الحمام ليقمن بتغسيلي.

أسرع إخوتي إلى السوق، أحضروا قماشًا أبيض، واستخدموا جزءًا من حبلي السري لربط الكفن حولي، أما المتبقي فتقاسموه مع أخواتي، صنعوا هم منه ربطات عنق ارتدوها في العزاء، وصنعت أخواتي مسبحات وزعنها على النساء أثناء تلاوة القران.

2020

(4)
الإعدام*

زكريا تامر

أديب وصحفي وقاص سوري من مواليد 1931. يعدّ من أهم كتاب القصة في العالم العربي، ويكتب القصة القصيرة للأطفال أيضًا.

يتدلى عمر المختار من أعواد المشنقة، منكس الرأس، مغمض العينين، مطمئنًا، صامتًا وقورًا، غير آبهٍ للحارس المكلف بمراقبته والمسلح ببندقية.

وكانت الشمس المشرقة آنذاك ثلجًا أصفر، فحاول عمر المختار البحث عن شمسٍ أخرى تمنح الدفء لدمائه الباردة، فتخيل عصفورًا صغيرًا جائعًا يرفض الذهاب صباحًا إلى مدرسته مترقبًا تهطال الأمطار كي تبلل رغيفه اليابس، وتخيل وردةً بيضاء غافيةً على سريرٍ حديدي ترتجف مقرورةً ولا تملك من المال ما يكفي لشراء مدفأة، وتخيل قطًا

* من مجموعته «دمشق الحرائق» 1973.

سجينًا في الصيدليات يحلم بامتلاك عاصفةٍ من أجنحة، وتخيل غيومًا تركض في الأزقة مغبرة الثياب وتتشاجر مع الصغار وتحطم بحجارتها زجاج النوافذ.

وعندئذٍ صاح الحارس مخاطبًا عمر المختار: «ما بك؟ لماذا تبتسم؟ أتسخر مني أم تفكر في النساء؟».

فقوبل سؤاله بالصمت، فأردف قائلًا بلهجةٍ متذمرة: «تكلم. لماذا لا تتكلم؟ إلى متى ستظل ساكتًا؟ ألم تسأم؟ لا تكن متعجرفًا فجدي لم يكن خادمًا لجدك. أف! يا له من عملٍ شاق يخلو من التسلية!».

ومر في تلك اللحظة ولدٌ صغير يحمل بنتًا من شمع، فتوقف عن المسير، وحدّق بذهول ورهبة في المشنقة، فصاح به الحارس بصوتٍ خشن: «امشِ. ممنوع الوقوف».

لم يتحرك الولد من مكانه، وبدا عليه كأن أحدًا لم يخاطبه، فاغتاظ الحارس، ودنا منه، وسأله بحدة: «لماذا تقف هنا؟».

قال الولد: «إني أنظر».

قال الحارس: «إلى أي شيء تنظر؟ إلى مطعم؟». فأشار الولد بسبابة صغيرة إلى عمر المختار، وقال: «إني أنظر إليه». فقال الحارس متسائلًا بفضول: «ألست خائفًا منه؟». فهزَّ الولد رأسه بالنفي، فقال الحارس وقد ازداد غيظه: «الأولاد المهذبون يخافون من المشنوقين».

ومدّ يده بحركة مفاجئة وانتزع الدمية من الولد، فصاح الولد بصوت رفيع متهدج: «أعدها إلي.. أعدها إلي»..

فضحك الحارس وقال: «قبِّل يدي أولًا. هيا قبِّلها. لا تريد تقبيل يدي؟».

- أعدها إلي.. أعدها إلي.

فقال الحارس: «اسكت. لقد صودرت عقابًا لك على عدم احترامك للقوانين. هيا اركض وإلا سلختُ جلدك وحشوتُهُ قشًا».

فلم يركض الولد، إنما مشى بخطًا متمهلة حتى صار على مبعدةٍ من الحارس ثم توقف وصاح: «سأحضر أخي ليضربك».

فانحنى الحارس على الأرض، والتقط حجرًا، وقذف به الولد وهو يقول: «وأحضر أمك أيضًا».

فقفز الولد متحاشيًا الحجر ثم انطلق يعدو مبتعدًا.

وتنهد الحارس بأسى، وقال لعمر المختار: «جيلٌ ملعون لا يحترم أحدًا.

أتعرف لماذا أخذت الدمية مع أني لستُ متزوجًا؟!».

لم يجب عمر المختار، فأضاف الحارس قائلًا: «إياك أن تظن أني سألعب بها فقد صرت رجلًا منذ زمان طويل».

ثم خاطب نفسه بصوت مرتفع: «ماذا سأفعل بها الآن؟».

وفكر لحظات ثم صاح بغتةً بمرح: «سأحاكمها. لماذا لا أحاكمها؟».

ورمق عمر المختار بنظرةٍ حانقة، وقال له: «أنت مخطئ إذا توهمت أني لا أصلح لإدارة محاكمة».

ورمى الدمية على الأرض صارمًا متجهمًا، وصاح بصوت أجش: «محكمة».

والتفت إلى عمر المختار، وقال له محذرًا: «إياك والضحك وإلا شنقتك».

وقطب جبينه، وقال للدمية: «أنت يا بنت متهمة بـ.. لقد نسيت التفكير في التهمة. حسنٌ. أنت متهمة بارتكاب جريمة سأنبئك بها في ما بعد، فهيّا اعترفي ولا تحاولي خداعي فأنا أتقن إطلاق النار. أنت لا تريدين الكلام؟ افعلي ما يحلو لك، لكنك ستدفعين ثمن تحديك للمحكمة».

وتطلع في ما حوله بعينين قاسيتين، وقال مخاطبًا جمهورًا خفيًا: «الضجيج ممنوع».

وصمتت الثياب المغسولة المعلقة على شرفات الأبنية بينما كان الحارس يزعق آمرًا: «إعدام».

وأضاف بصوتٍ خافت حائر: «ولكن كيف أعدمها؟ سأطلق النار عليها. لا لا. سأخسر عددًا من الرصاصات. سأذبحها. لا لا. سأدخر قوّتي لذبح دجاجة أو خروف. ماذا أفعل؟». وحملق حينًا إلى البنت الصغيرة الشاحبة ثم تهلل وجهه فرحًا، وسارع إلى إحضار حبل وربطه بأعواد المشنقة التي يتدلى منها عمر المختار، ثم سأل البنت بلهجة حانية: «ما هي رغباتك الأخيرة؟ ماذا؟ أتريدين مشاهدة فيلم مضحك؟ إني أعتذر لعدم تمكني من تلبية رغبتك فساعة الموت لا تؤجل ويجب أن تجابه بخوف ودون مزاح».

وشدَّ قامته وصرخ: «الموت للخونة». وحمل الدمية، ولفَّ الحبل حول عنقها ثم تركها لتهوي في الفراغ متأرجحةً بجوار عمر المختار.

ورغب عمر المختار في الصراخ غير أن الدموع بللت حالًا وجهه المتجعد ولحيته الطويلة البيضاء، فها هو العصفور الصغير يُطرد من مدرسته لأنه لا يتقن سوى الغناء، وها هي الغيوم تُمنع من السير في الشوارع العريضة لأن ثيابها عتيقة مهترئة، وها هو القطن يؤكل بدلًا من الخبز، وها هي الوردة تلعق دمها، وها هو عمر المختار ينبذ حبل مشنقته ويعدو نحو المقبرة بينما شموس الأرض تتوارى وتنطفئ شمسًا تلو شمس.

(5)
العصفور والسلك

يوسف إدريس

اختار أعلى بقعة وحط. كانت سلكا.. مكانا بين عمودين من سلك تليفون. مخالبه تشبثت برفق. هبت الريح وصفر السلك.. تمايل، تشبث أكثر. هو لا يكف عن الحركة، والحركة عنده مفاجئة، فجأة تأتي، فجأة تحدث، فجأة تبلغ أقصى المدى. فجأة شقشق، فجأة تلفت، فجأة رفرف، فجأة صوصو. انتشى فجأة، طار، حام، حوم، حط، تشبث، تلفت. على مقربة لمح الأليفة، رفرف، رفرفت. اقترب، اقتربت.

صوصو، شقشقت. حك المنقار بالمنقار، حكَّتْ. أمال رأسه، أرقدت رأسها فوق رأسه. انتشى، نطَّ. بالقفزة أحبَّ بالقفزة هبط. بالنشوة تبرَّز، بصقة براز أبيض لونت السلك. السلك صدئ قديم غير سميك.

يحمل فى هذه اللحظة بالذات –وفي الوقت نفسه– سبع مكالمات معا. لا شيء فى الظاهر يحدث، فى الداخل تدور عوالم وأكوان.. سلامات، احتجاجات، تحيات، صفقات، وداعات، استغاثات، أرض تباع، بلاد تباع، أصوات غلاظ، صوصوات رقيقات، تختلط الكلمات، تتمازج، تتوحد، كلها فى النهاية تصير –ماديا- إلكترونات. شحنات متجانسات،

متشابهات، كلمة الحب لها شحنة البغض نفسها، كهاربُ الصدق هى كهارب الكذب، الصراحة كالنفاق، اللوعة كاللعنة، الليل كالصبح كالنهار، الحرام كالحلال، النضال كالخيانة كالكفاح، البطولات كالنذالات. كلمات! شحنات! إلكترونات متحفزات متحركات!

في ومضة بحركتها تتغير مصائر، تجهز مشاريع، تنتهي وتبدأ حيوات واتجاهات. ومضات وتتم موافقات، وتُبرَم صفقات، وتدبَّر مؤامرات، بالكلمات، بالكلمات الطيبات نفسها. والسلك القديم صدئ صامت داكن، لا ينم مظهره عن شيء مما فى داخله يعتمل ويدور، ولا يبدو منه أو عليه أقل تغيير، مستمر فى وجوده الظاهر الطويل الممتد. والعصفور متشبث بالسلك، بمخالبه البريئة يمسك بهذا كله ويحتويه، فى ملكوته الخاص يحيا، لا يدري حتى أن السلك سلك، بل أن ما يسري فيه يسري فيه. إن هو إلا مكان عالٍ للوقوف.. وقوف كلما فرغ صبره منه فجأة يتقافز، يرفرف، يشقشق، يطير، يحوم، بالقفزة يزاول مع وليفته الحب، وبالقفزة نفسها يهبط، وبالنشوة يصوصو، وبالنشوة خالي البال يتبرز، بصقة براز صغيرة بيضاء على السلك، السلك نفسه، كالزمن، كالصدأ تتراكم.

1970

(6)
الحبال التي تهبط من أعالي الجبال

زهير كريم

بطل هذه الحكاية أسيرُ حربٍ، ومن سجنه البعيد كان يرسل إلى زوجته رسائلَ كثيرة، بعثها ولا يعرف هل وصلت أم لا. لكن سعة صبره رغم ذلك كانت قادرةً على استيعابِ حتى تلك الأعذارالتي نسحبها عادة من خزانة الفانتازيا، خياله كان وفيًا لفكرة أن زوجته ما زالت تنتظر خبرًا منه، فكان يمدَ الحبال بينهما وهو في مكانه البعيد في أعالي الجبال، كلما انقطع حبلٌ أسقط آخر. والأسير كاتب قصص وشاعر أيضا، وهذا يفسر لماذا كانت حباله من الحرير، يشقى كثيرا في نسجها، وكان يردد طوال الوقت إن إصابة الهدف تتطلب المزيد من المحاولات الشاقة، وإن بعض الأهداف هي المجاز الذي يشير إلى الموت أوالحياة، وإنه من غير الجائز أن يسمح للقنوط بغزو خياله، وإنه سوف يمد الحبالَ لأن لا خيار للمنفيين سوى فعل ذلك، وأن هذا النشاط هو غذاءٌ للحلم، بدونه يجفّ النهر الذي في القلب، ويصير العالم ركامًا.

لكنه قال في إحدى المرات إنها رسالته الأخيرة، وتوقع أنها سوف تصل في النهارالذي يصادف عيد زواجهما السابع عشر. والنص المكتوب لم يكن تقليديا، فقد اعتاد الأسرى كتابة رسائل مختصرة، فيها تحيات وسلام وأسئلة عن حيوات الآخرين، لكن رسالته هذه تضمنت قصة قصيرة، نعم، حكاية تشبه النبوءة، أو الهاجس الذي تنسجه المخاوف العظيمة.

في يوم من الأيام، سيحمل رجلٌ كان منفيًا في أعالي الجبال باقةَ أزهار حمراء من صنف التوليب، والرجلُ أسير حربٍ عاد للتو إلى أرض الوطن، صحيح إن العالم قد تغير خلال غيابه، لكنه سوف يذهب إلى منزله مباشرة، لن يخطئ عنوان المنزل الذي تركه في ذلك الفجر البعيد، حين التحق بوحدته العسكرية، وبعد أسبوعين بالضبط من ليلة زفافه.

البيت الذي ظلّت صورته عالقة في رأسه منذ أن حوصرت وحدته من قبل الأعداء، إذ قُتل يومها الكثير من الرفاق، وكان هذا الجندي ضمن مجموعة الأسرى. الأسيرُ طرق البابَ وكانت ضربات قلبه قد اختلطت بما يصدره المعدنُ الثقيل من رنين، انتظر دقيقة واحدةً فخرج له رجل سمين يرتدي فانيلة، ولباسا داخليا تخومه ما فوق ركبتيه، كانت في فمه لقمة كبيرة فاحتاج لفترة من المضغ قبل أن يسأل الغريب: «من أنت، وماذا تريد؟». كان هذا الرجل هو الأخ الأصغر للأسير، ثم سقطت باقة التوليب على الأرض في اللحظة التي ظهرت فيها امراة في الأربعين خلف الرجل السمين، كانت هذه المرأة هي زوجته التي تركها بعد أسبوعين من ليلة زفافه، خلفها فتى وصبي وطفل، كانت أبصارهم مليئة بسؤال واحد يتعلق برجل يبدو شارد الذهن، كأنه قادمٌ من أعالي الجبال، وبباقة توليب كانت زهراتها قد تناثرت على عتبة الدار.

2019

(7)
زورقٌ على وجه الماء يحترق

رأفت حكمت

كاتب سوري، مواليد عام 1989 مقيم في لبنان. شارك سابقًا في كتاب شعري وقصص قصيرة عن الخوف والعزلة «متحف الأنقاض» من إعداد الروائي السوري خليل صويلح..

خرجَ الرّجلُ ذو الأربعين عامًا من المصنع، واتّجه إلى الميناءِ، ليخبرَ الملّاحينَ أنّ الحبال الّتي يشدّون بها السّفن والقوارب إلى أوتادها كي لا يسحبها الموجُ أثناء رُسوّها، باتت مهترئةً بسبب عوامل الجو وملوحة الماءِ، وأنّ الأعشابَ نَمَتْ عليها، والأسماك قرضتْها، لذا يتوجّبُ عليهم استبدالَ حبالٍ جديدةٍ بها..

وما إن وصلَ، حتى وجدَ زورقًا صغيرًا يتهادى على وجه الماء، فيهِ صندوقٌ خشبيّ وعدّة صيدٍ تقليديّة، فصاحَ بأعلى صوته:

- من صاحبُ هذا الزّورق؟!

ظهرَ من بينِ الّذين كانوا هناك، شابٌّ تستطيع أن تُخمّن لو رأيتَهُ أنّه تربّى بين الصّيّادين، وأنّ سُمرَةَ لونهِ وعضلاتِه كافية لرمي شبكةٍ من الحبالِ في الماءِ، وإخراجها مليئة بصيدٍ وفير.

قال بصوتٍ بحريٍّ: «أنا هوَ، صاحبُ الزّورق»..

تجمّع البحّارةُ والصّيادون وأصحابُ السّفن والزّوارق حول الرّجل الأربعيني، وهو يخاطبُ الشّاب بصيغةٍ جماعيّة:

«عليكم -وهذا ما يريدُه صاحبُ الميناء- أن تُرخُوا حبال سُفنكم وزوارقكم عن آخرها، ويقوم كلّ واحدٍ منكم بلفّ الحبلِ على شكلِ «بَكْرةٍ» ويأتي بها غدًا صباحًا إلى مصنعِ الحبالِ الذي تعرفونه جميعكم»..

قاطَعهُ الشّابّ: «كيفَ ذلك! وأنت تعرفُ أنّ المراكبَ على أنواعها في هكذا جوّ عاصفٍ ورياحٍ عاتيةٍ لا يمكن أن تظلَّ ولو للحظةٍ بلا حبالٍ تشدّها إلى الميناء..

من سيضمن أنها لن تذهب مع الرّيحِ وتسحبَها الأمواجُ ما إنْ يُفَكَّ وثاقها؟؟!

لِمَ لا تأتونا بالحبالِ الجديدة إلى هنا؟!».

التفتَ الأربعينيُّ إلى زورق الشّابِّ وقالَ: «أرى عنقَ مركبكَ بلا حبلٍ يشدّه إلى وتده، لِمَ لم تأخذه الرّياح كما تقول!!».

أجابَ الشّاب:

«طالما أنّي قريبٌ إليه، فلا تلزمُني حبالُكم».

فهمَ الرّجلُ الأربعيني رسالةَ الشّاب، التي بدا على وجوه البقيّة أنّها تمثّلهم جميعا، فعادَ أدراجهُ إلى المصنعِ، ولم يخبر صاحبَ الميناءِ بما حدثَ، واكتفى حينَ سألهُ بأن يقول له:

«كلّ شيءٍ على ما يُرامُ، غدًا صباحًا سيكونون جميعا هنا، يحملون حبالهم على أكتافِهم»..

في اليوم التّالي، كانَ الملّاحونَ جميعهم يصطفّونَ على بابِ المصنعِ، كما قالَ الرّجل الأربعينيُّ لصاحب الميناء..

ولمّا خرجَ عليهم سألهم: «من منكم لا يريدُ حبلًا ليشدّ بهِ عنقَ مركبه إلى وتدٍ في مينائنا؟!».

فاجابوا بصوتٍ واحدٍ: «لا أحد»..

بينما صاحبُ الميناءِ، يقف على شرفةٍ عاليةٍ فوق باب المصنع، يبتسمُ، تتدلّى تحتَه في الهواء جثّةُ شابٍّ أسمر، مشدودةٌ إلى الشرفة بحبلٍ مجدولٍ تأكلهُ الطّحالبُ والمياهُ المالِحة.

2020

(8)
قطعة حبل

جي دي موباسان

كاتب فرنسي (1850-1893)
يُعَدُّ أبًا للقصة القصيرة الحديثة.

كان الفلاحون وزوجاتهم يسيرون في الطريق المحيط بمدينة جودرفيل؛ فاليوم هو سوقها. كان الرجال يمضون بطيئي الخطا قد مالت أجسادهم للأمام مع كل حركة تصدر عن أرجلهم الطويلة الملتوية. إن جسد كل فلاح قد شوهه العمل الشاق؛ في الانحناء على المحراث الذي يرفع الكتف اليسرى ويعطف الجسد جانبا، وفي حصد القمح الذي يفسح ما بين الركبتين فيجعل الرجلين مثل عمودي لعبة الطُوالة، وفي كل صنوف الكد البطيء الأليم في الريف. وانتفخت وزراتهم الزرق -التي تجمدت من النشا والتمعت كأنها صُقلت بطلاء البرنيق، وزُينت برسم صغير في العنق والمعصمين- حول أجسادهم بادية العظام، فبدت كأنها بالونات جاهزة لحملهم والطيران بهم وقد برزت من كل بالون قدمان.

كان عدد منهم يقتاد بقرة أو عجلا بحبل، والزوجات سائرات خلف الحيوان يضربن كفله بغصن مورق لتسريع خطاه. ومنهن من حملن في

أذرعهن سلالا كبارا يطلّ من بعضها دجاج ويطل من بعضها الآخر بط.

وكن يمضين في خطى أسرع وأزيد حيوية من خطى أزواجهن، وقد لُفَّت أجسادهن المستقيمة الهزيلة بشالات صغيرة ثُبتت على صدورهن العريضة بالدبابيس، وكانت رؤوسهن مغطاة بخرق بيض مشدودة للشعر تعلوها قبعات. ومرت عربة يجرها فرس وتهتز اهتزازا غريبا مع وقع خطواته. وكان يجلس فيها رجلان جنبا إلى جنب في حين كانت تجلس امرأة في قاعها ملتصقة بجوانبها لتخفيف رجّاتها العنيفة. وكان هناك حشد في ميدان جودرفيل العام وقد اختلط فيه صخب الناس بصخب الحيوانات، وبرزت فوق الحشد قرون الماشية والقبعات العالية ذات الزغب الطويل التي يعتمرها مياسير الفلاحين، إضافة إلى أغطية رؤوس النساء. وخلق الصياح الحادّ الصاخب جلبة وحشية متواصلة يغلب عليها في بعض الأحيان ضحك جهوري لأحد الريفيين، أو خوارٌ مديد لبقرة مشدودة إلى جدار بيت. وانبعثت من الحشد رائحة بشرية وحيوانية شائنة مألوفة للفلاحين؛ هي خليط من رائحة الحظائر وأكوام القمامة والتبن والعرق. وكان السيد «هوشوكوم» الآتي من منطقة بروت قد وصل منذ قليل إلى «جودر فيل». وفي طريقه إلى الميدان العام لمح قطعة حبل ملقاة على الأرض، ولأنه إنسان حريص –شأن كل نورماني يؤمن بأنه لا بد من التقاط كل ما هو نافع فقد انحنى متألما –لأنه يعاني من داء المفاصل– والتقط قطعة الحبل الرفيع وراح يلفّها في حرص، وفجأة انتبه إلى أن السيد «مالاندين» صانع عتاد الحيوانات على عتبة بيته ينظر إليه، وبين الاثنين

خلاف على رسن لم يُحسم حتى الآن، فهما في علاقة سيئة، وكلاهما مبغضٌ شرس للآخر. والحق أن السيد هوشوكوم أحسَّ نوعا من الخزي لرؤية عدوه له يلتقط قطعة حبل من الأرض، فسارع يخفي «لقطته» في وزرته، ثم في جيب سرواله، وتظاهر بأنه لا يزال ينظر إلى الأرض بحثا عن شيء لا يجده. وبعد ذلك مضى إلى السوق وقد ازداد جسده انحناء لبرح آلامه. وفي الحال ضاع في الزحام الصاخب بطيء الحراك الذي كان منغمرا في مساومات لا تنقضي. كان الفلاحون يحلبون ماشيتهم ويروحون ويجيؤون حيارى دائمي الخشية من الوقوع في الخديعة عاجزين عن اتخاذ القرارات؛ يراقبون عيني البائع، يحاولون جاهدين اكتشاف الخديعة في الإنسان والعيب في الحيوان. وبعد أن وَضَعت النساء سلالهن الضخام عند أقدامهنّ، أخرجت كل واحدة طيورها، فاستقرت على الأرض مشدودة الأرجل إلى بعضها بعضا بعيونها المذعورة وأعرافها القرمزية. وسمعن عروضا بأثمان، وحددن أثمان طيورهن بطرائق جافة ووجوه جامدة خلت من أيما عاطفة، وأحيانا كن يخفضن الثمن فجأة ويصحن بالشاري المنصرف متأنيا: «طيب يا سيد أوثيرن! سأبيعك بالسعر الذي قلته أنت».
وشيئا فشيئا خلا الميدان من المتسوقين، ودقت الساعة تعلن دخول الظهيرة، وعاد الذين لبثوا مديدا في سوق الماشية إلى محلاتهم، وامتلأت القاعة الكبيرة في مطعم جوردين بالأكلة، وازدحم فناؤه الواسع بعربات من كل الأنواع: عربات عادية وعربات خفيفة وعربات مقفلة وعربات قمامة بدت صفراء لقذارتها وعليها سمات الإصلاح والترقيع وترتفع أعمدتها

نحو السماء مثل ذراعين، وربما كانت أعمدة بعضها في الأرض وظهورها في الجو. وفي مواجهة الذين يتناولون الغداء، استقرَّ الموقد الضخم فوق طاولة حافلًا باللهب الساطع وملقيًا حرارة قوية على ظهور الجالسين في الجهة اليمنى.

وكانت ثلاثة سفافيد تُقلَّب على النار، عُلّق فيها دجاج وحمام وأفخاذ خراف، وانبعثت من الموقد رائحة لحم تحرك الشهية، ورائحة صلصة تقطر فوق اللحم ذي اللون البني البديع، الأمر الذي زاد البهجة في النفوس وجعل الأفواه تتحلب تشهيًا للأكل. ويأكل عادة في مطعم جوردين كل وجهاء الفلاحين وحارس الحانة وسائس الخيل والصعلوك صاحب المال. وقُدمت الأطباق وأُفرغت ممّا حوت ومثلها أباريق عصير التفاح الأصفر. وتحدث كل شخص عما يهمه؛ عّما اشترى وعمّا باع. وتناقشوا في شأن المحصولات، ورأوا أن الجو يلائم الخضروات ولا يلائم القمح. وفجأة دوى صوت الطبل في فناء المطعم، فقام الجميع خلا قلة من اللامبالين، وأسرعوا إلى باب المطعم أو إلى نوافذه وأفواههم لا تزال ملأى بالطعام والمناشف في أيديهم. وهتف منادي البلدية بعد أن أوقف دقَّ الطبل في صوت قوي وعبارات لا نسق فيها: «بذا أعلنّا لمواطني جودرفيل ولعموم الموجودين في السوق أنه فُقدت صباح اليوم في الطريق إلى بنزفيل بين التاسعة والعاشرة محفظة جلد سوداء، فيها خمسمائة فرانك وبعض أوراق العمل، فعلى من وجدها إعادتها بحالتها نفسها إلى مكتب العمدة أو إلى السيد فورتين هولبرك من مانفيل، وله مكافأة قيمتها عشرون فرنكا».

قال المنادي ذلك وانصرف، ثم سُمع دويّ الطبل القوي وصوت المنادي ثانية في البعيد. وشرع الناس يتحدّثون في أمر هذا الحادث ويناقشون حظوظ السيد هولبرك في العثور على محفظته من عدمه.

وأخيرا انتهوا من الأكل. وحين كانوا يختمون باحتساء القهوة فوجئوا برئيس الشرطة يظهر على عتبة المطعم. سأل: «هل السيد هوشوكوم من مواطني بروت موجود بينكم؟».

فرد هوشوكوم الجالس في الجانب المقابل من الطاولة: «موجود».

فتابع الضابط: «سيد هوشوكوم! هل تتكرم بمصاحبتي إلى مكتب العمدة؟ يريد أن يكلمك».

فابتلع الفلاح المنذهل المضطرب كأس البراندي الصغيرة جرعة واحدة، وقام وانطلق مع رئيس الشرطة أكثر انحناء مما كان في الصباح؛ لأنه كان يلقى صعوبة شديدة في خطواته بعد كل جلسة، وكان يردد: «أنا موجود. أنا موجود».

كان العمدة يجلس في انتظاره على كرسي ذي مسندين، وكان هو نفسه كاتب عدل المنطقة، وهو رجل بدين جادّ فخم الكلام. قال: «سيد هوشوكوم! هناك من رآك صباح اليوم في الطريق إلى بنزفيل تلتقط محفظة النقود التي فقدها السيد هولبرك من مواطني مانفيل».

فنظر الشيخ الريفي إلى العمدة منصعقا، وكان من قبل استشعر الهلع من الشك الذي حط فوقه دون أن يدري له سببا. قال: «أنا؟ أنا؟ أنا التقطت محفظة؟».

- نعم. أنت ما غيرك.
- شرفا لم أسمع بها.
- لكن هناك من رآك.
- رآني؟ أنا؟ من يقول إنه رآني؟
- السيد مالاندين صانع عتاد الحيوانات.

فتذكر الشيخ وفهم واحمرَّ وجهه غضبا وقال: «آه رآني، الريفي، ألتقط قطعة الحبل هذه يا سيدي العمدة!».

وبحث في جيبه واستخرج الحبل الصغير إلا أن العمدة هز رأسه دون تصديق وقال: «لن تجعلني أصدق يا سيد هوشوكوم أن السيد مالاندين المعروف بأهليته للتصديق حسِبَ هذا الحبل محفظة».

فغضب الفلاح ورفع يده وبصق جانبا لتأكيد صدقه، وكرر: «بيد أنها يا سيدي العمدة حقيقة الله الكريم، الحقيقة المقدسة، أكرر مقسما بحياتي ونجاتي».

فتابع العمدة: «وقفت بعد التقاط المحفظة مثل لعبة الطوالة لترى إن كانت سقطت من المحفظة أيّ قطعة نقود».

فاختنق الشيخ الطيب غضبا ورعبا وقال: «كيف يجرؤ، كيف يجرؤ أي شخص على اختلاق مثل هذه الأكاذيب للقضاء على سمعة شخص شريف؟ كيف يجرؤ؟».

ولم يكن لاحتجاجه نفع. لم يصدقه أحد. وواجهوه بالسيد مالاندين الذي كرر توكيد كلامه واستمسك به، وتبادل الاثنان السباب ساعة كاملة.

وفتشوا السيد هوشوكوم بطلب منه، فلم يجدوا معه شيئا. وفي النهاية أطلق العمدة سراحه وهو حائر، وحذره بأنه سيستشير المدعي العام لاستصدار أوامر جديدة. وذاع الخبر وشاع. وانتاب الدوار الشيخ حالما فارق مكتب العمدة، وانهالت عليه الأسئلة في فضول جاد أو مازح لا غضب فيه. وراح يقص حكاية قطعة الحبل دون أن يصدقه أحد، بل سخروا منه. ومشى في طريقه يستوقف رفاقه، ويأخذ في بيانه واحتجاجه دون توقف، ويقلّب جيوبه لتوكيد خلوها. قالوا له: «انصرف يا عجوز يا صعلوك!». فتملكه السخط وقوي حنقه وانفعاله واغتمامه لما لاقاه كلامه من تكذيب دون أن يعرف ماذا يفعل ودون أن يكفَّ عن ترداد ذلك الكلام. وبسط الليل دجاه. إذن لا بد من أن ينصرف، فمضى مع ثلاثة من جيرته بيَّن لهم المكان الذي التقط فيه قطعة الحبل، ووالى مدى الطريق حديثه عن مغامرته. ومال في العشية إلى قرية بروت ليحكي قصته إلى أهلها، فلم يلقَ منهم سوى التكذيب. وأرَّقته المشكلة ليلا. وثاني يوم، قرابة الواحدة عصرا، أعاد ماريوس بومل، وهو أجير في خدمة السيد بريتون المزارع في يمانفيل؛ المحفظة بمحتوياتها إلى السيد هولبرك في مانفيل. وزعم الأجير أنه وجد المحفظة في الطريق، ولأنه لا يقرأ فقد حملها إلى البيت وسلَّمها إلى مستخدمه. وذاع الخبر وشاع في المنطقة وعلم به السيد هوشوكوم، فبادر للطواف بأهلها يحكي لهم قصته التي انتهت نهاية سعيدة. لقد انتصر. قال: «ما أحزنني كثيرا ليس المحفظة نفسها وإنما الكذب. ما من شيء أدعى للخزي من الشك فيك بسبب كذبة».

وتكلم عن مغامرته مدى النهار. حكاها على الطريق الرئيسة للمارة وفي الحانة لحُساة الخمر وللخارجين من الكنيسة الأحد التالي، واستوقف الغرباء ليُسمعهم إياها. وغدا هادئًا الآن، بيد أنه كان يستشعر قلقا لا يدري له كنهًا. وكان يبدو على الناس أثناء استماعهم له مظهر المزاح وعدم الاقتناع بما يقول، وبدا له أن ملاحظات تُقال خلف ظهره.

وقصد ثلاثاء الأسبوع التالي سوق جودرفيل لا يستحثه سوى إحساسه بالحاجة لمناقشة المسألة هناك. ولما رآه مالاندين الذي كان يقف أمام بيته راح يضحك. لمَ يضحك؟ وقصد مزارعًا من كريكيتو لم يدعه يتمَّ حكايته وضربه في بطنه قائلا له: «يا عجوز يا صعلوك!».

وولاه ظهره، فاضطرب. لمَ يدعونه عجوزًا صعلوكًا؟ وراح يشرح «المسألة» حين جلس إلى المائدة في حانة جوردين، فناداه تاجر خيل من مونفلييه: «تعال! تعال ياعجوز يا نصاب! هذه حيلة قديمة. أعلم كل ما له صلة بقطعة حبلك».

فتلعثم هوشوكوم وهو يقول: «ولكن منذ أن وجدت المحفظة»..

فرد التاجر: «اخرس يا أبي! هناك من وجد وهناك من أخبر. مهما يكن فلك صلة بالمسألة».

فوقف الفلاح مغتصّا بريقه. فهم كل شيء. يتهمونه بإعادة المحفظة من خلال شريك له في المؤامرة، شريك في الجرم. حاول الاحتجاج فاستضحك كل الجالسين إلى المائدة، فعجز عن إتمام عشائه وانصرف بين المهازئ وعاد إلى بيته مخزيا محنقا، يخنقه حنقه واضطرابه، شاعرا

بمزيد الغمّ لقدرته -بدهائه النورماني- على فعل ما يتهمونه به والافتخار الدائم به كأنه عمل طيب. كان من المستحيل عليه -بشكل غريب- إثبات براءته لنفسه ما داموا عرفوا احتياله. وضربه ظلم الشك حتى العمق، فعاد يقصّ مغامرته من جديد مطيلا قصتها بصورة يومية، ومضيفا كل مرة عللًا جديدة وحججا أكثر قوة ومزيدا من مغلظات الأيمان التي تخيّلها وهيأها في ساعات وحدته. وخضع عقله كاملا لقصة الحبل، وكلما زاد دفاعه تعقيدا وزاد حِجاجه دقة قلوا له تصديقا. قالوا في غيبته: «أعذاره كاذبة».

ولقد استشعر ما قالوا، وأهلك قلبه بسببه وأوهى نفسه في جهود لا تجدي. ذوى تحت عيونهم. وصار محبو القيل والقال يحثّونه على الكلام عن الحبل ليُسلوا أنفسهم مثلما يحثّون جنديا كان في حملة عسكرية للحديث عن المعامع التي شارك فيها. وأخذ عقله الذي أصيب في العمق يضعف، ومرض آخر ديسمبر ومات أول يناير، وكان واصل قبل مماته التمسك ببراءته في هذيان احتضاره مرددا: «قطعة حبل. قطعة حبل. انظر! هي ذي يا عمدة!».

1883

(9)
جدائل

روعة سنبل

كاتبة سورية، 1979، صيدلانية، صدر لها مجموعتان قصصيتان، تكتب أيضًا في المسرح وأدب الطفل.

«جدل الشّعر يسلّي الحزن».

همستْ لي المرأة الباهتة، المصابة بمتلازمة صنع الجدائل، حين صادفتُها أوّل مرّة في منزلي. ابتسمتْ وهي تجلس إلى جانبي على الأريكة تتابع معي مسلسلًا في التلفاز، ثم تركتْ مكانها بهدوء، ووقفتْ خلفي، قسمتْ شعري الحالك الطّويل إلى نصفين، صنعتْ ببطء جديلة نحيلة في كل جانب وهي تبكي.

***

«إن لم يؤلمكِ عنقك، وتزكم أنفكِ رائحة الحرق، كلما سمعتِ داخل رأسكِ صوتًا يحكي لك: «عن فأس قتلت زنبقة، وحريق أودى بجديلة»[1]، فأنتِ لم تعرفي الحرب بعد»

(1) من قصيدة أحكي للعالم- سميح القاسم.

همستْ لي المرأة التي تدخّن كثيرًا، المصابة بمتلازمة صنع الجدائل، والّتي أصادفها مرّات قليلة في منزلي، جلسنا خلف النافذة ننصتُ إلى أصوات قصف بعيد، غابت قليلًا، ثمّ عادت مع صندوق صغير، جلستْ أرضًا، ابتسمتْ وهي تُخرج منه نسخًا كثيرة من دمى متشابهة رخيصة، أخذتْ تمسّد بحنان أجسادها، وتجدلُ الخيطان الرّقيقة الذهبية التي تعلو رؤوسها، أشعلتْ بقداحتها سيجارة جديدة لها، وأشعلتْ جدائل الدّمى، ثمّ قصفتْ أعناقها وهي تبكي.

***

«جدل الشّعر يجعل الانتظار أسهل»..

همستْ لي المرأة مطمئنّة الملامح، المصابة بمتلازمة صنع الجدائل، والّتي صرتُ أصادفها كثيرًا في منزلي، راقبتني وأنا على سجادة الصّلاة، أتلو تسبيحاتٍ قُبيل الفجر، غابت قليلًا، ثم عادت مع ثياب صلاة وسبحات كثيرة، ابتسمتْ وهي ترتدي ثياب الصّلاة، جلستْ قربي بخشوع، تتمتم صلواتٍ بصوت خفيض، وتجدل السّبحات الملونة معًا، ثمّ ألبستها لي أساور، أحاطت بها معصميّ وهي تبكي.

***

«إن لم تجرّبي نشوةَ أن يجدل شعرك المبتلّ رجل تحبينه، فأنتِ لم تعرفي الحب بعد».

همسَتْ لي المرأةُ خشنةُ الصّوت، المصابة بمتلازمة صنع الجدائل، التي ترافقُني دومًا في منزلي، مشّطتْ لي شعري في الحمّام، ابتسمتْ ودخلَتْ معي غرفةَ نومي، غابَتْ قليلًا ثمّ عادت مع ملاءة صوفية كبيرة، خلعتْ عنّي منشفَتي، وألقتْ الملاءة عليّ، راحت تحكي عنه، عن الرّجل الذي سيجدل شعري المبتلّ، وسيفعل أشياء أخرى كثيرة، همستْ بالتّفاصيل الحميمة كلّها وهي تصنع جدائل قصيرة عديدة من الشّراشيب الملوّنة على أطراف الملاءة، ثمّ احتضنت بحنان عُريي الذي ارتعش بعنفٍ تحت ملاءتي وهي تبكي.

***

«الجدائل نجاة، كلّما تسلّق رجلٌ جديلةً نجَتْ امرأة»

همستْ لي المرأة الّتي لها رائحة الأمّهات، المرأة المصابة بمتلازمة صنع الجدائل، والتي تسكن معي في منزلي، ابتسمتْ وتمدّدتْ خلفي في سريري، جدلتْ شعري جديلةً واحدة سوداء طويلة، وروت لي حكاية «ريبانزيل» حتّى غرقتُ في النّوم، روتها وهي تبكي.

***

«اسمعيني جيّدًا، حين لا يمكننا النّجاة، نبحث عن الخلاص فقط»

همستْ لي قبل قليل المرأة المصابة بمتلازمة صنع الجدائل، التي تسكن معي في جسدي، همستْ وهي توقظني من نومي، قصّتْ جديلتي الطويلة، وجلستْ على حافّة سريري، ربطتها بإحكام مع جدائل أخرى

كثيرة شقراء وسوداء وبنية، خرجنا معًا إلى الشّرفة، سحبتْ كرسيًّا وساعدتْني لأصعد عليه، أحضرتْ مبتسمة حبل الجدائل، ضمّتني بشدّة وهي تبكي.

***

تضعُ المرأة الآن الحبل حول عنقي، تبتعد قليلًا، تهمس بصوت حالكٍ كالليل حولنا: «الجدائل خلاص»، ثمّ تركل بقدمها الكرسي ليقع، تركله وهي تضحك.

2018

قراءة في ثيمة «الحبال»

الحَبْــل.. استعارة شعريــّة أخيرة

فدوى العبود

ربما يجدر بي أن أبدأ بالسؤال الذي حــيّرني وراح يقرِضُني «لماذا الحَبْــل؟».

كنت أبحث في المبررات التي تدفع شاعرًا، (الشاعر حسان الجودي) لاختيار هذه الثيمة المُــربكة. ثم ما الذي يمكن قوله عن الحبال؟

تذكرت بيتًا من الشعر كتبته شاعرة برتغالية◆ قبل نحو ثمانين سنة.

يبدو الأمر متعلقًا باستعارة ما؛ وهي –الاستعارة– لا تبحث عما يبررها خارج ذاتها؛ ساعدني ذلك على الفهم واختصر عليّ الطريق لتنعقد بيني وبين النصوص أواصر سرّيـة؛ سأبوح ببعضها لضروراتِ اللُغة، وأترك الباقي كحبل من العُقدِ التي تَحِلّ نفسها بنفسها في ذهن القارئ.

*مع «**حبال ملونة**» للكاتبة نهى حسين، يتحول الحبل إلى لحظة شعرية، لسيدة تصنع حبلًا ملونًا؛ وهي تعقد الحبل بهدوء من يتأمل العالم قبل اختمار قصيدته في روحه. في يقظة حسية وانتباه عالٍ لا يجاريه إلا انتباه الموت لكل تفصيلة وكأن اللحظة الأخيرة هي آخر بيت في القصيدة. تنهي العقدة الأخيرة بأمنية صادمة: بأن لا يكون وحيدها الذي سرقته الحرب قد توجَّع قبل موته!*

◆ الشاعرة البرتغالية فلوربيلا إسبانكا (1894–1930).

هي لم تبُح بكلِ شيء لكن الحبل تكفل بترك هواء حزين، يترك خيطَ قلق. هذه الحبال ستتحول إلى خيط ينعقد كي تموت به

يتابع خيط آريان تقدمه، فيتعهد فادي الشمّاس برعاية هذه النبتة وسقايتها من خلال «**الحب في زمن الكورونا**» في عنوان يذكرنا بـ«**الحب في زمن الكوليرا**» للكاتب الكولومبي غابرييل غارسيا ماركيز.

لقد كانت **فيرمينيا داثا** بطلة ماركيز تغلق الباب حين رأت فلورينتور حبيب مراهقتها مرتديًا ملابس الحداد، وقبل أن تتمكن من شكره لهذه الزيارة؛ وضع قبعته موضع القلب وشقَّ الدمل الذي كان قوام حياته؛ بأن قال لها بصوت مرتعش وقور: «فيرمينا، لقد انتظرت هذه الفرصة لأكثر من نصف قرن لأكرر لك وفائي الأبدي وحبيّ الدائم».

لكن حبيبة الرواي في قصة «فادي شماس» من عصر الكورونا. فكل شيء سريع وهما يمارسان الحب أو الجنس -لا تهم التسمية- كوجبة سريعة شبيهة بالتهام قطعة بيتزا؛ وليس ضروريًا لنا أن نعرف تفاصيل جسد المحبوبة، التي أرّقت فلورينتو ماركيز. لا رائحة، لا حَلَمة زهريّة، لا مذاق للشفاه. ولا طراوة للجسد. وكل ما نعرفه عنها أنها تناولت حصته من البيتزا. (قطعتين كاملتين مع أنها طلبت طعامًا صحيًّا). حبٌ خاوٍ كوجبةٍ سريعة وجنس سريع كحقنة سُمّ في الوتين. ثم تعض الحكاية على ذيلها ومن أجل إيهامٍ أكثر يخلط الكاتب بينه وبين الراوي بإعلان طريقة انتحاره..

تنمو نبتة اللامبالاة وتتحول إلى شجرة من العدم. تطرح ثمارها السوداء مع أغصان الصالح وقصة «**حبلي السرّي**» وكأنها بيان إعدام يتلوه قائد ميداني

على أسيره! تترك القارئ في قلق شديد وخوف (عبّر عنه أغلب قرّاء النص).
فالحبل السرّي يبدل الحياة بالموت، والموت بالحياة ويغدو مقدمة لعُقَد لا تنتهي بالموت بل يصبح رباطًا للكفن؛ ويُستخدَم استخدامات أخرى. وكأن النص يُلَخِّص مقولة العدميّة التي ترى «**أننا نولد فوق قبر مفتوح**».

لا يجب أن يبرر النص نفسه، بل يُقاس بأثره.. كأن يهوي على عنق القارئ مثل مقصلة، أو مشنقة كالتي ينصبها زكريا تامر في قصته «**الإعدام**»

ينتصر النص لرومانسية زكريا تامر، إنّ «**عمر المختار**» حي فوق مشنقته لكن جلاده ميت، يعيش الشهداء في اللغة، بينما تُترَك فضالة الحياة الفانية للجلاد. لكن متى تبلل الدموع وجنتي عمر المختار؟ الجواب:

حين يُعدم الحارسُ الدميةَ، لقد ضحّى الشهداء لأجل نقاء الطفل فينا، لكن حين تُغتال الطفولة؛ يمضي عمر المختار نحو قبره بينما ينزف الورد الدماء وتُمنَع الغيوم من السير في الشوارع. وتُمهد للرفض الذي تنامى مع:

«**العصفور والسلك**» ليوسف إدريس باختصار.. كل ثرثرتكم هي صدى كل أنواع التزييف تنتقل عبر هذه الأسلاك. كهارب الصدق هي كهارب الكذب، الحرام كالحلال، النضال كالخيانة كالكفاح، البطولات كالنذالات! لقد تداخل كل شيء والعصفور يتبرز فوق هذا كله، وكأنه يستمني على نفاقكم.

يمتد هذا الحبل الوهمي حتى قصة «**الحبال التي تهبط من أعلى**» للكاتب «زهير كريم».

بطل هذه الحكاية أسير حرب. (يُربط الأسرى مع بعضهم بعضًا بالحبال، أو يقيّدون بربط اليدين للخلف. كما يشكل الموت أيضًا حبلًا يفرّ عبره الأسرى من زنازينهم نحو السماء).

لكن القصة تنحو نحو روابط حريرية! فالأسير قاصّ وشاعر، وهذا ينبئ أننا أمام شخصية بتكوين خاص، أيْ أنَّ كل حدث عادي سيرتقي إلى درجة الشعر، كأن ننسجَ الخيوط بيننا وبين عالم تقطع. «ليس أصعب على القلب من أن تصبح الذكريات من نصيب طرف واحد! بعد أن يعلو الطرف الآخر عليها» حينها يشعر المرء وكأنّ الذكريات جريمة ارتكبها وحده. نهر الزمن يتغير لكن يبدو أنه يصطدم بجدران الزنازين والسجون، وهناك يحطُّ عليها مثل رتيلاء ضخمة. «لقد مضى الزمن لكنه ما زال يحمل على الباب باقة توليب».

*في «**زورق على وجه الماء يحترق**» رأفت حكمت، نعثر على رمزية الحبل الذي يربط عنقنا، وحين يقرر أحدنا رفضه يُشنق، وينتهي الشاب الذي يرفض الانصياع للأوامر والذي يريد الإبحار بحرية في البحر مشنوقًا.*

*تتحول العلاقة بين الرفض والتمرد ثم الخنوع إلى سوء فهم في قصة «**قطعة حبل**» لـ «جي دي موباسان»: يعني موباسان بالعلاقة بين الأنا والآخر، وعبث دفاع المرء عن نفسه. إن التهمة التي ألصقت بالمواطن «هوشوكوم» بسبب قطعة حبل تحولت إلى جناية، لقد وقع سوء الفهم ومهما فعلنا فلن يبدده أي تفسير أو شرح. بل ومع مع كل شرح كان سوء الفهم يتعمّق، لماذا؟*

لأن سوء الفهم أصيل..

*الحزن والانتظار والنجاة، ثلاث جدائل تصنعها المرأة التي تظهر في حياة الساردة مثل طيف، في قصة «**جدائل**» للقاصة السوريّة روعة سنبل، يصبح جدل الشعر كناية عن الحزن. إن جدْل الشعر تقليد قديم للنساء الوحيدات، وله رمزية عالية إذ يشير -بعكس ترك الشعر حرًا منطلقًا- إلى الانغلاق على الحزن وعلى انتظار ما لن يأتي؛ (النجاة). يستعرض النص تراثا كاملًا من النساء اللواتي يُجدن جدل الشعر ربما تحضرنا صورة الجدات هنا. ولكل جديلة لون من ألوان الحزن..*

بينما نجدل الشعر ننتظر الحب فلا يأتي، فوق سجادة الصلاة ننتظر النجاة. لكنّ الخلاص متاح والنجاة مستحيلة!

*«**اسمعيني جيدًا، حين لا يمكننا النجّاة، نبحث عن الخلاص فقط**» وفي النهاية تجمع المرأة المصابة بمتلازمة الجدائل. منها حبلًا «تهمس بصوت حالك كالليل حولنا» «الجدائل خلاص» ثم تركل الكرسي وينتهي النص بانتحار الساردة وبقاء المرأة المصابة بمتلازمة صنع الجدائل ربما لدفع الكرسي من تحت أقدام نساء أخريات. ألم أقل لكم: الجدائل خلاص!*

لماذا تبدو كل الحبال -حبال الذكريات، حبال الحب- أقول: لماذا تبدو مصنوعة من وهم بينما يظهر حبل المشنقة صلبًا وقاسيًا وحقيقيًا!

في حكاية أسطورية يعاقِب ملكٌ الناس برميهم في متاهة، لكنّ ابنته تترك لحبيبها حبل نجاة يحمل اسمها «خيط آريان» فهل من حبل نجاة!

- *مطر كالحبال؟*
- *الدخان في المدخنة له شكل حبل وهو يتابع نموّه نحو السماء!*

القلب معلق بهذا الوتين كالحبل!

- *زرعت أمي وردة تمتدُّ على الجدران كالحبال تسمى «الشمعة» في كل عام وفي التوقيت نفسه «تذرف الدموع» ليوم واحد فقط. وكنا ننتظر هذا اليوم! أنا الوحيدة التي كانت تفوتني رؤيتها.. الحبل الوحيد الذي تكرر في أغلب النصوص هو حبل المشنقة أفلا يحق للقارئ أن يسأل: لماذا؟*

«ها أنا أسأل»

كتبت «فلوربيلا إسبانكا» التالي:

من في وسعه أن يجد بيت الشعر الصافي

البيت الأَنـوف والقويّ، الغريبُ والقاسي

الذي قد يعبّر عند البكاء، عن هذا الذي أحسُّ به.

*ستأتيها أجابتنا بعد فاصل زمنيّ لا يقل عن قرن: (بيت الشعر الصافي هو: **«الحَبْل»**).*

الثيمة الرابعة

الفقاعة

اقترح الثيمة الشاعر العراقي ***جراح كريم الموسوي.***

من مواليد 1987 .

حاصل على بكالوريوس في اللغة العربية من جامعة ذي قار، وعمل معيدًا فيها.

حاصل على ماجستير في الأدب العربي الحديث من جامعة ذي قار عن رسالة: التبادل التمثيلي- دراسة في سيميولوجيا التواصل.

فاز بجائزة الشارقة للإبداع العربي الدورة 22 فرع الشعر.

صدر له مجموعة شعرية بعنوان «قابِلٌ كل صورة»، عن دائرة الثقافة في الشارقة 2019 .

(1)
الفقاعة

مروة ملحم

كاتبة ومترجمة سورية 1993. تكتب القصص القصيرة والشعر ولديها مجموعة قصصية واحدة بعنوان «عين ثالثة». حائزة على جائزة الشارقة للإبداع العربي 2018.

بعد لحظات قليلة ستسمعون صوتًا مدويًا.. إطلاق نار من مكان مرتفع جدًا في الفراغ. سيكون الصدى هائلًا. لكنكم ربما معتادون على الأصوات الصاخبة ولن تعرفوا ما الذي يحدث..

في زمن سابق، كنت مختلفةً عما أنا عليه الآن، يوم أنجبتني أمي، فرحت كثيرًا مع أنها عرفت مقدار الخطأ الذي ارتكبته، عرفَت أنها تنجب ابنتها في معتقل، وأنه سيصعب عليها حمايتها أو تهريبها، لكنها فعلت ما فعلته في جميع الأحوال.

دفنَتْ أمي والقابلة طفلين قبلي، وكان هذا أفضل ما حدث لهم، ثم جئت أنا. يقولون إنني انزلقت من رحم أمي حاملة حقيبة على ظهري ومستعدة للرحيل، وبعضهم يقول إنني جئت غاضبة، ويُجمِعون على

أنني كنت عنيدة جدًا حتى إنني بدأت بتنفيذ الإضرابات منذ أشهري الأولى.

عرفت باكرًا أن في الحياة سجونًا كبيرة وسجونًا صغيرة، جلادين كبار وجلادين صغار، ديكتاتوريات ضخمة علنية، وأخرى مخفية وحدودها ليست أكبر من جدران منزل عادي.

الديكتاتور إله. له عيون في كل مكان، أينما مشيت تجده، أيّ شيء تقوله يسمعه، كانت كل تحركاتي موضع اشتباه له، وكل كلماتي تهديدات، كانت ألعابي تثير حنقه، وخطواتي السريعة في المعتقل تغيظه جدًا، كان يصرخ دون سبب، وأحيانًا كان يضرب أمي لحجج واهية، فقط لتفريغ حقده الذي لم نعرف من أين جاء. كنت صغيرة لدرجة أنني أُفلتُ من يديه إن حاول ضربي، كان يتعب من صغر حجمي وقدرتي الدائمة على السخرية، فيتجنبني.

أول احتدام بيننا كان حين فتحتُ درج أدواته، لم يكن مقفلًا، لكنْ، كنا ندرك أن علينا عدم فتحه، أو حتى الاقتراب منه. وجدت في الدرج صورًا قديمة للديكتاتور، يظهر وحده دائمًا، مشدود الظهر، مسددًا نظره نحو الكاميرا بشكل ثاقب. لم تكن الصور مؤطرة، وكان ثمة إطارات فارغة موضوعة جانبًا. الدرج كان شديد الترتيب، في طرفه قِطَع من مسدسات قديمة، ليست جميلة لكنها ثقيلة الوزن، وإلى جانبها رصاصات مبعثرة. كان فيه أيضًا مفكَّرات ودفاتر قديمة، فارغة تمامًا وصفحاتها الأولى ممزقة، قداحة فارغة، سبّحة منفرطة، مفاتيح، صغيرة وكبيرة، بعضها أشبه

بمفاتيح الأصفاد، وبعضها ربما مفاتيح بوابات ضخمة تخيلتها يومها مفاتيح عالمه السحري وقلعته التي يذهب إليها ليلًا.

يومها استشاط الديكتاتور غضبًا، صرخ في وجهي حتى شعرت أن وجهه يتشقَّق، جحظت عيناه واحمرت العروق الصغيرة التي بداخلها، كسر أشيائي، داسها بقدميه وهشّمها، هيكل الدراجة الذي صنعته من الخردوات وحلمت كل ليلة أنه سيسير، الأوراق التي رسمت عليها أصدقائي، قطَّعَ الخيوط التي ربطت رسائلي بالطائرات الورقية، هدم كل مملكتي، وجعلني أكبر في ليلة واحدة.

عندما صحوت في اليوم التالي، كانت قامتي قد استطالت، وجسدي قد اكتسب وزنًا إضافيًا، برز نهداي وأصبح شعري مموّجًا وسميكًا.

كبر المعتقل، أصبح يحوي غرفًا أكثر، ونوافذ أقل. ازدادت أمي نحولًا، وإخوتي بلاهةً، كان أخي الأصغر مني يعرف كيف يتسلل في الليل، لكنه لم يكن يفعل شيئًا سوى الاستلقاء في حفرة تشبه القبر في حديقة البيت الخلفية، وأخي الآخر يضع في غرفته الكثيرمن المرايا، وكنا حين نبكي أو نضحك أو نصرخ، يأخذنا إلى غرفته ويتوسل إلينا أن نكرر انفعالاتنا أمام المرايا، ويصرّ على أن مراياه تحفظ كل شيء. وأنه قبل أن نموت، سوف يُعرَض علينا شريط الصور، كل شيء من البداية إلى النهاية.

أما أنا، فقد كنت مشغولة بمراقبة الديكتاتور، كنت أقضي ساعات في محاولة رسم عينيه، خاصة حين يتطاير منهما الغيظ والشرّ، كانتا عينين

صغيرتين، تحتفظان دائمًا بإمكانية الاتساع فجأة. وكانت يداه نحيلتين نظيفتين، أظافره مقلمة دائمًا، ورائحته عطرة. يرتدي ثيابًا فضفاضة لكنها أنيقة، يضع حزامًا على خصره ويشدّه. له شاربان يمشطهما بحرص شديد في الصباح والمساء. يعتني كثيرًا بشفرات الحلاقة، وبالمشط الذي يُسرّح به شعراته القليلة.

كنت أتأمّل علاقته بالأشياء، وبنا، وبالناس، وحرصه المتوتر، نقمته الغريبة وانفعالاته العشوائية، أحاول تفسير ما يطرأ فجأة على مزاجه. غضبٌ أحيانًا، حزن في أحيان أخرى، حنانٌ غير مفهوم يهب ويختفي كان يجعله مراتٍ يزورنا في غرفنا ويقدم لنا الماء البارد، أو بعض المكسرات الرطبة. كان غالبًا يتمشّى في المعتقل وحيدًا، بخطى هادئة جدًا، وحدث أنني رأيته يبكي في مناسبات عدة. جلست في ليالٍ باردة خلف ثقوب الأبواب وشقوق الجدران، أشاهد دموع الديكتاتور.

لم ينتبه الديكتاتور كيف كبر سجناؤه فجأةً وصاروا يفكّرون، لم ينتبه للرسومات على الجدران، ولا للعوالم الصغيرة التي بنيناها في أحواض السمك، أو لخيالنا الذي تكاثر في المعتقل ونما مثل أحلام طويلة. كبرنا في غفلة منه، بينما أعماه غروره عن الأشعة التي فتحناها من النوافذ.

ظل غافلًا حتى اكتملت أجنحة أخي، وطار من المعتقل محدثًا ضجيجًا هائلًا، حينها انتفض ونهض مهتاجًا إلى سلاحه، أطلق رصاصةً على جناح أخي، فأسقطه في الحفرة نفسها، التي اعتاد الاستلقاء فيها.

صرخت يومها حتى تمزَّقت حنجرتي، وحتى تكسرت المرايا، وأُصيبت أمي بالصمم، وحتى اضطرَّ الديكتاتور لحشو فمي بالقماش وحبسي.

كان ذلك منذ ستِّ سنوات تقريبًا، حبسني في فقاعة كبيرة، ولم تكن كالفقاعات التي تعرفونها، تلك الأجسام اللطيفة الشفافة التي تتلون مع الضوء وتطير، وحين تمرُّ قربكم تنفخونها وتضحكون. تلك تسمى بالونًا، خليطًا من صابون وماء، أما ما أنا فيه، فهي فقاعة سوداء، مصنوعة ربما من بخار السيارات وآثار زيت القلي العالق على أسقف المطابخ، ومغلقة من الأعلى بمسدسين متشابكين، معلقة فوهة الأول بزناد الآخر، أي محاولة لفتح الفقاعة ستؤدي لإطلاق النار على الرأس مباشرة.

في بداية احتجازي، جلست صامتة منتظرة أن أخرج أو أن أتعود. جربت أن أتحسس جدارها المرن بقدمي، فجذبتني إلى الداخل كرمالٍ متحركة، شاهدتكم من الأعلى، لوَّحت لكم، بعضكم رآني ونفخني قليلًا، بعضكم ابتسم بشكل عابر ومضى، بعدها صرت أحاول الوقوف، في كل مرة صرت أترنح وأسقط، وأعاود الوقوف، بدأت أخبط بيدي على الجدران، بدأت أصرخ، لم يسمعني أحد، عاد الصدى فقط ساخرًا كأنه صوت شخصية كرتونية، حاولتُ ثقبها بأظافري، فلسعني شيء أشبه بالكهرباء، حينها فقط تكوَّرت على نفسي وبكيت، بكيت بصوت عالٍ على غير عادتي، أردت لدموعي أن تنهمر على هذا العالم، أردت أن أثير انتباهكم بحزني، لكن لم يحدث شيء. صارت الفقاعة الطائرة معتقلي

الجديد، بيتي الغامق، مكانًا لا أرى منه وجه الديكتاتور لكنني أسمع صوته وصداه.

لم أرد أن يسحقني هذا المكان باستدارته المحيرة، أردت أن أحتفظ بغضبي، لربما أستطيع تجميعه لحرق الفقاعة، لكنني استسلمت رغمًا عني، صرت أراقب فقط، لا أضحك ولا أبكي، وفي الأيام القليلة التي تحطُّ فيها الفقاعة على الأرض، أحاول دحرجتها بجسدي، ولمس الناس، ثم أستهجن هذا الشوق الذي يجتاحني، هذا الحنين المزيف الذي لا أعرف من أين جاء. ويصبح التفاهم مع نفسي صعبًا.

أشعر أنه عبر جدران فقاعتي يراقب تصرفاتي، يراقبني كيف سأجرب الخروج مجددًا، فيجعلها تتنطَّط بعنف وتسحقني في داخلها، لطالما شعرت أن صوت قفزاتها شبيه بالقهقهة، لطالما عدت للتوسل والنحيب والصراخ.

الصراخ بوجه العالم، العالم المكتظ بالسجون والطغاة، طغاة صغار وكبار، العالم الذي أتخيّله وحشًا يحدثنا وفمه ممتلئ بالطعام، الذي يجيبنا من خلف ثقب صغير مريب. ويضع أسئلتنا في صندوق الشكاوي حتى تهترئ وتتحلل كلماتها.

لم تنزل الفقاعة، لم تقترب من الأرض، لم أرَ أمي أو أخي مجددًا، ولم أعرف إن كان الديكتاتور ما زال يتذكر وجودي. في الحقيقة، حتى أنا بدأت أنسى، أغلب ما أقوله شبيه بالهلوسة، كأن مرايا أخي سكنتني،

وسحرها صار بداخلي، أردد ذكرياتٍ لا أعرف من أين أتت، أبكي وأبتسم كفعلٍ ارتدادي، لأصواتٍ لا أعرف متى سمعتها.

أظن أنني في أحد الأيام رأيت أخي الميت يطير هنا، جسده شفافٌ ويداه رخوتان، كان يلوّح لشيءٍ ما وعلى وجهه ابتسامةٌ طفيفة ذابلة، ربما يلوّح لي، ربما للفراغ، ربما لحفرته التي قضى أغلب عمره فيها، كان تحليق روحه خفيفًا مثلما كانت حياته، وأظن أنني أيضًا رأيت أمي، بشعرٍ أشيبَ ووجه كثير التجاعيد، كانت تتجه نحو السماء وكأنها تكرُّ من مكب صوفٍ كالذي قضت عمرها تنسج به، كان عمرًا باردًا ذاك الذي مرَّ عليها.

ربما يكون الصغير قد هرب، كان أكثرنا دهاءً، ربما تكون مراياه، عن غير قصد، قتلت الديكتاتور، وأطلقت سراحه من السجن ومن الذاكرة، لم أره، لا أعرف ما حلَّ به، لكنني أتمنى.

حان الوقت كي أخرج من هنا، ولتنزل تلك الرصاصة الساخنة على جسدي بسرعة، موت رحيم، سأفتحها، قصتي مكتوبة على ثيابي، بالدم والدمع، فليتفتت جسدي على هذه الأرض المريضة، فلأمت، حرةً.. حرة.

2018

(2)

داخل فقاعة

سوزان الصعبي

فلسطينية مقيمة في دمشق. حاصلة على إجازة في الصحافة من جامعة دمشق، تكتب القصة القصيرة، صدرت لها مجموعة قصصية بعنوان «الانحناء يسارًا»، شاركت في مجموعة أدبية مشتركة بعنوان «على حافة الضوء» وشاركت في مجموعة قصصية مشتركة ق ق ج بعنوان «أشرعة من ضوء».

في اليوم الرَّابع تبدأ معاناتها، في الخامس تزداد، وتلتهب في السَّادس دونما أيّ فرصة للعلاج، وفي السَّابع تستفحل ويستشري الألم.

لماذا لا يتغيَّر ذلك؟

في السَّابعة صباحًا أمسكَتْ مقبض الباب وفتحته، تريَّثت قليلًا قبل الخروج من البيت كي لا يهجم عليها البرد بضربة قاضية، تأكَّدت من إحكام إغلاق معطفها الصُّوفي عليها، وفكَّرت في ماذا سترتدي في السَّنة المقبلة إن طالت قامتها أكثر. شدَّت أكمامه قدر استطاعتها، ثم مشت نحو الضَّباب.

عثرت في حقيبتها على منديل متَّسخ، سُرَّت بأنه ما زال بمتناولها، هبَّت ريح شديدة دفعتها للأمام، تمسَّكت بأقرب ساق شجرة، عبرت قربها ثُلَّة بنات تَراهُنَّ ذاهبات إلى المدرسة كلّ يوم. تابعت سيرها وحيدة، حثَّت خطاها على الإسراع كي تصل إلى المدرسة في أقرب وقت، دفنت أصابعها في جيوب معطفها، انزلقت اليسرى في الفراغ، نسيت بالأمس أن تطلب من والدتها رتقها. اشتدَّت الرِّيح واخترقت خيوطَ الصُّوف صافقة صدرها.

كأيِّ طفل يمشي نصف ساعة صباحًا بلا قبَّعة دافئة عطست، أحكمت وضع المنديل على أنفها محاولةً أن تُنظِّفه، تحسَّست أنفها بأصابعها لتتيقَّن من نظافته، نظرت إلى المنديل بحزن، احتارت أترميه أم تحتفظ به لمرَّة قادمة، لكنه أُشبع تمامًا..

دخلت إلى الصَّف مرتجفة، جلست في المقعد الأخير خافضة رأسها، ضمّت يديها إلى صدرها تلمّسًا للدِّفء، عثرت الرِّيح على نافذة مفتوحة ولم تهاجم سواها، عطست الطِّفلة رغمًا عنها، أدارت رأسها نحو الحائط، مسحت أنفها بالمنديل المتِّسخ المتبقِّي لديها فتمزَّق، تلوَّثت ثيابها، نظَّفت منخريها بطرف كمِّها، ضغطت على الأرنبة بالسَّبابة والإبهام، أفرغتهما من كلِّ شيء، جفَّفت أنفها وأصابعها بورقة، بكى كلُّ ما فيها، أصابع قدميها المصطكَّتين بكت، وحاذرت عيناها ذلك.

امتلأ الصَّف بالطَّالبات، وصلت زميلتها إلى المقعد نفسه وجلست مستديرة عنها، جاءت المعلِّمة وجالت بين المقاعد، وعند المقعد الأخير توقَّفت للحظة ثم تقدَّمت.

في اليوم الأوّل تختالُ بشَعرها وتتلاعب به، في اليوم الثَّاني تتنشَّقه أمام أعين رفيقاتها وقد تربطه قليلاً ثم تحرِّره، وفي الثَّالث تقسمه إلى نصفين أحدهما منسدل على كتفها والآخر على ظهرها.

في اليوم الرَّابع تضفره وترمق الأخريات بشيء من الغيرة. في الخامس تجمعه على شكل كعكة دائريّة وتبدأ الدُّهون بالظُّهور، في اليوم السَّادس تقاوم حكَّ رأسها إلى أن تصير في البيت، وفي اليوم السَّابع تؤلمها جلدة رأسها لكثرة ما حكَّتها، تؤلمها جذور شعرها، ويكاد يقطر زيتًا، فتكرهه.

منذ عشرين عامًا وهي تكره منظر الماء المتدفِّق أمام بيوت الآخرين يهدرونه في تنظيف الطُّرقات والسَّيارات، ولم تكن تعرف لماذا يضنُّ الصُّنبور في بيتها به، لطالما سمعت أمَّها تتأفَّف وتشتم حظَّها إنْ انتصف النَّهار ولم تنزل قطرة واحدة من الصُّنبور، ثم تتبادل الدَّور مع أفراد العائلة، يتسمَّر أحدهم منتظرًا بزوغ أوّل قطرة، هذه ستكون أغلى هدية من السماء، أوَّلُ قطرة تجود بها حنفيّة الماء ستتبعها أخريات، ثم ستتحوّل إلى شلَّال، وسيفرح الجميع عند سماع خرير الماء، سيطلق أحدهم التَّصفيق وسيصرخ آخر: «الحمد لله لقد انهمر».. وربّما يقيمون احتفالًا صاخبًا، لكنّهم بعد ذلك يتفرَّقون إلى أعمالهم. الأم تملأ الغسَّالة بالثِّياب المتراكمة خلال أسبوع، والابنة الكبرى تدفع بأختيها الصَّغيرتين إلى

الاستحمام، وإحداهنّ تشطف البيت، والصَّبي يملأ الأوعية المصطفَّة والخاوية.

في تلك اللّحظة، حين يهطل الماء السَّاخن عليها وتزول الدُّهون شيئًا فشيئًا، تكرِّر فرك شعرها بالصَّابون فتفوح رائحته وتطرد قتامةَ أيام طويلة، تتابع بنظرها سيلان الماء على جسمها، وتغنِّي للرَّغوة، تحلم بأنها عصفورة داخل فقاعات الصّابون تطير فيها بعيدًا، ثم تطرق إحدى أخواتها باب الحمَّام وتطالبها بالإسراع فهناك من ينتظر دوره.

تمشَّت المعلِّمة في الصَّف مربتة على كتف إحدى المجتهدات، قارصة خدَّ أخرى، وعند المقعد الأخير لمحتها مطأطئة رأسها، نادتها فلم تردّ، عبثًا كرَّرت النَّداء، ثم غضبت وشدَّتها من شعرها. حين رفعت الطِّفلة رأسها استدارت المعلّمة عنها متبرِّمة ثم ناولتها منديلًا.

لم تنسَ حتى الآن أن المعلِّمة نفسها أمرت بنقلها إلى صفٍّ آخر وهي تقول: «فتِّشوا في شعرها عن حشرات».

ما زالت تتمنَّى لو أنّها ذابت داخل فقاعة صابون.

2018

(3)
الفقاعة

عبدالفتاح المطلبي

كاتب وشاعر عراقي صدر له: رواية خيال علمي للفتيان «المركبة المفقودة» 1986، «عين الدمية، قصص 2014، «شرفة على الجهات الاربع» قصص 2014، «الحلم شرقا» قصص 2018، «تباريح، شعر 2017، «تباريح الطائر» شعر 2018، «تباريح الصفصاف» شعر 2019.

بكثير من القلق المعجون بيأس متطرف، أطلقتُ عينيَّ تجوسان المكان، تتفحصان كل نأمة، رئتاي تتنفسان هواء خانقا، تزوغ الرؤية في عيني وتهرب الفكرة من رأسي الذي صار كخزانة ذات طبقات فارغة واحدة فوق الأخرى، ها هي فارغة تماما، لا تحوي شيئا، الحيرة هي كل ما كان يجول في خزانة رأسي الفارغ، شيء ما من وراء فراغ رأسي، يحرّضني على البحث والتقصي وعدم الركون إلى هذا الفراغ، ليحركه ببطء شديد يمينا وشمالا ككرة ذات جدار رقيق كجدار الفقاعة، وهكذا

وجدت أنّ عليَّ أنْ أعرف بشكل واضح وضوح ما أرى من خلال الزجاج الشفاف الذي يفصلني عن ذلك الجالس في الغرفة الزجاجية، تتكدّس أمامه ملفاتنا، تتوتر جلودنا الرقيقة من عوز في تكوينها وليس لرفاه باذخ. هذا الرجل الذي ما زال منذ الصباح يعذبنا بصقيعه المنثال من عينين باردتين كثقبين لا معنى لهما، ربما كان بروده مستمدًّا من البرد الذي يبثه حوله جهاز التكييف الأبكم الواقف كحارس سلجوقي قرب الزجاجة الشفافة الموصدة بوجوهنا، محروسة بأسباب الحارس السلجوقى الأعزل الذي يتملّق ذلك الرجل بوميضه الخافت بين الحين والحين، ذلك الرجل الذي يبدو كإلهٍ محنَّطٍ في علبة زجاجية، كان قد اختزلنا جميعا بملفات اختلفت بحجومها وألوانها. لم يكن عجيبا بعد ذلك أن تتجمع نتف من غيوم تفكيري لتدور في رأسي الفارغ فاقدة قدرة القفز منه، رأسي الذي كان كالكرة كما رؤوس الآخرين الجالسين قربي وأمامي وخلفي، وأولئك الذين يسيرون بتكاسل في ممرات المشفى، وكذلك رأس هذا الرجل البارد يتطاول أمامه عمود ملفاتنا، فيحجب جزءا من أنفه الطويل المعقوف بلباقة هندسية، تثير زوبعة من الدهشة الداهمة لسكوني المصطنع رغم ذلك الفوران والأزيز في رأسي. ذلك الرجل البارد هو سبب فوراني رغم أن رأسه مثلنا جميعا كالكرة، بيد أن أنفه خرج كثيرا عن التكوين فتميز عنا نحن ضائعي الأنوف بحدود كرات رؤوسنا وأعلن تمردا من نوع ما، مما سبب تراجعي عن قناعتي بكون رأسه مثل رؤوسنا،

رؤوسنا كفقاعات مهتزة على أعناقنا معرضة لشتى صنوف الهزّات، فقاعات لا بد لها أن تنفجر في أيّ لحظة.

وعندما توصلت إلى مغزى تصوري، هدأ قليل من الفوران وتماسك رأسي ولم يعد يهددني بالانفجار، وقلت في سرّي إن كثيرًا من الفقاعات تقاوم انفجارها بالحفاظ على حجومها كما هي. جعلني ذلك أكثر طمأنينة مع علمي الأكيد بأن رأسي لا يمارس زهوا، بل يكابد ألما، وكنت غير منتبه لتلك المخاتلة المعنوية في ما يخص الفارق بين الزهو والألم؛ فهما في لحظة ما يتماثلان؛ إذ إن كليهما يؤول إلى انفجار! إذن ما العمل وهذا رأسي قد صار كفقاعة محشوة بألم مالح؟ ما زلت أجلس أمام هذا الكائن البارد تفصلني عنه تلك الزجاجة الشفافة إلى درجة الخديعة والخبث، وهي تبدو كذلك لاكتشافي توًّا أنها تغري على تجاهل وجودها كزجاجة فاصلة بيني وبين هذا الذي أخفت ملفاتنا أغلب أنفه المعقوف وجزءًا من جبهته الضيقة، فبدا رأسه مرة أخرى كفقاعة مميزة تبث موجات مربكة لعيوننا التي بدت كفقاقيع صغيرة تلتصق بفقاقيع رؤوسنا. في البداية أردت أن أتلمّس يقينا في ما يخص الفراغ الذي حولي، وكأنني جزء من لوحة أُقحمتُ في مساحتها إقحامًا، فشعرت أنني أنحشر بين طبقات فراغي حشرا. وبعد انشغالي بمحاولاتي البائسة لاستيضاح أسباب وقوعي في هذا الموقع من اللوحة الماثلة في رأسي الذي هو كالفقاعة، وأثناء ذلك وبكثير من التفاهة استغرقت في النوم على إحدى المصاطب التي تجعل مؤخرتك مخططة عرضيا، خاصة إذا كنت ممن يتعاطون

الأسبرين ومسيلات الدم الأخرى ذات الألوان والأسماء الكثيرة. وهكذا رأيتني في عالم النوم وقد تحقَّقت تصوراتي في اليقظة، نعم قلت في نفسي ها نحن مجرد فقاعات نطفو في حوض مليء بالماء نسبح فيه فرادى وجماعات حجومنا مختلفة، كأجيال من الفقاعات، تصفعنا تيارات الهواء فتنقلب في كل اتجاه، تتوالى بيننا الانفجارات بعضنا ينفجر ويفجّر غيره. المنفجرون من كل الأحجام وهل هناك حرج في انفجار فقاعات؟ لكنني وأنا فقاعة لاحظت أنّ الكبار ينفجرون وهم في حالة من الزهو العارم، علمت ذلك من الألوان القزحية على أسطح فقاعاتهم، بعضها ينفجر بسرعة فائقة وأعني تلك الملطومة بتيار الهواء الشديد الآتي من مكان ما خارج تصور الفقاعة، بعضنا يلوذ بخبث خلف التعرجات الكثيرة في جدران الحوض، لكنني لا أعتقد بأنها كانت تخطّط لانتظار فرصة نجاة؛ وهل يعقل ذلك في حياة الفقاعة؟! انتبهت لحجمي مبكرا رغم أنني أرى غيري قد اقترب من نقطة انفجاره لاستبداد الزهو به وإغراء الحجم، لكنني لا أستطيع الأقتراب منه وتحذيره خوفا من انفجاره عليَّ مسبّبا انفجاري أيضا، وتلك برأيي معضلة كبيرة؛ أن ترى غيرك ينفجر ولا تستطيع إنقاذه ثم يختفي ولا يترك أثرا. تنشغل بعد ذلك بلملة أشلائه التي انتشرت على مساحة واسعة، وكان هذا آخر عمل يقوم به كائن الانفجار المنتشر. وهكذا بعد مرور الصدمة تنشغل بالانتباه إلى نفسك فتبحث جاهدا عن مكان تلوذ به، القليل منا من يلوذ بالتعرّجات أو يلوذ بغيره من الفقاعات الكبيرة، والغالب أنه سيحافظ على بهجته وزهوه المشوب بعدم

الاستقرار لحين انفجار الفقاعة التي يلوذ بها. عند ذلك ربما ستفجره معها وينتهي الأمر، لكن الأكيد أن لا معنى لعمر الفقاعة مهما طال. وعندما رأيت الصورة واضحة في نومي واستوعبت المغزى من ذلك لكزني أحدهم قائلا: «انهض، لقد نادى البواب باسمك لكن الموظف ذا الأنف المعقوف لم ينتظر وألقى بملفك جانبا». عند ذلك شعرت بأن رأسي يتوتر.. تمتمتُ: «آه لقد أتت لحظة انفجاري»، نقرت بأصابعي الواهنة على الزجاج الشفيف، وأثناء دخولي صرخ في وجهي «أين كنت؟ ها، اذهب تعالَ غدا». في هذه الأثناء كان جلد فقاعة رأسي قد بدأ بالتمدّد دون شعور إلا بألم مالح مريع. تلفَّتُّ لعلي أجد ملاذا ألوذ به من صفع ريح هذا الكائن البارد فلم أجد، فانفجرت ولم أعد شيئا، وانتبهت إلى أنَّ عينيَّ كانتا فقاعتين صغيرتين تلوذان بمحجريهما، وكنت ممددا على سرير معدني بارد تحف بي أجهزة وأسلاك وأنابيب من البلاستك، وأمامي اسطوانة تتقافز فيها فقاعات مع كل شهيق وزفير، سمعتها تكركر ضاحكة. وغلبني النوم مرة أخرى وعدت فقاعة في حوض كبير لا ملاذ فيه من صفع الريح.

2010

(4)
دخان وريح.. وفقاعات صابون*

ايتالو كالفينو

كاتب وصحفي وناقد وروائي إيطالي (1923-1985)، من أشهر أعماله ثلاثية «أسلافنا»، يمزج بين الواقع والأسطورة بلغة جميلة وسرد محكم، جعلاه يتربع على عرش الرواية الإيطالية، ويصبح واحدًا من أهم الكتاب عالميًا.

يودع ساعي البريد بضع مغلفات كل يوم في صناديق بريد المستأجرين. إلا أن صندوق ماركو فالدو قد ظل خاليًا، فلا أحد كان يكتب إليه إطلاقًا، ولم يكن صندوقه ذا جدوى لأي شيء بالضبط إن لم يُستخدم من حين الآخر لإشعارات دفع فواتير الكهرباء والغاز.

صرخ ميكيلينو: أبي، لدينا بريد.

اجابه: دعك من هذا! إنها أوراق الدعاية المعتادة.

* من مجموعة «ماركو فالدو»، ترجمة: سمير القصير.

كانت تبرز من علب الرسائل ورقة مطويّة زرقاء وصفراء اللون. تعلن أن مسحوق «البلانكسول» هو من أفضل المنتجات من أجل الحصول على رغوة صابون جيدة. وأنّ من يتقدّم بالورقة الزرقاء الصفراء يحصل منه على عينّة مجانيّة صغيرة.

وهكذا بدأ (فيليبتو، وبيتروتشو، وميكيلينو) بتجميع مجموعة من قسائم البلانكسول، جامعين شيئا منها من على الأرض، ومتناولين قليلًا منها من فتحات العلب، وزيادة على ذلك مصطادين بعضها بشريط من الحديد.

– لديّ أنا الأكثر منها!

– لا، عُدها! لنراهن على أنه لدي أنا منها أكثر

كانت الحملة الدعائية للبلانكسول قد اكتسحت الحي بأكمله الباب تلو الآخر. وقد كرّس الأولاد أنفسهم لمسح الحي بابًا تلو الآخر مستولين على القسائم. عدد من البوابات كن يطردنهم صارخات: «يا أولاد! ماذا أتيتم تسرقون؟ سأخبر الحراس!». وأخريات كن مسرورات لأنهم يقومون بتنظيف المكان قليلًا من كل تلك الأوراق التي تتكدس هناك كل يوم.

عند المساء كانت غرفتا ماركو فالدو الفقيرتان قد تلوَّنتا بالأزرق والأصفر بفعل أوراق البلانكسول التي راح الأولاد يعدونها ويعيدون عدها، ويكدسونها على شكل رزم كما يفعل أمناء الصناديق في المصارف بأرواق النقد.

- سأله فيليبتو: أبي، إذا ما حصلنا على الكثير منها، هل سيكون بإمكاننا فتح محل للغسيل؟

في تلك الأيام كان عالم إنتاج المنظفات في حالة فوران عظيمة، إذ إن الحملة الدعائية للبلانكسول أثارت الذعر لدى الشركات المنافسة، ومن أجل طرح منتجاتها وزعت على كل العلب البريدية في المدينة هذه القسائم التي تعطي الحق بالحصول على عينات مجانيّة أكبر حجمًا دائمًا.

وهكذا كان على أولاد ماركو فالدو أن يعملوا كثيرًا في الأيام التالية، إذ إن صناديق الرسائل راحت تزهر كل صباح، مثل أشجار الدراق في الربيع، بأوراق ذات رسوم خضراء وزهرية وسماويّة وبرتقاليّة، تَعِدُ من يستخدم «سبومادور أو لا فالوكس، أو سابوناليا، أو ليمبيالين» بغسيل ناصع البياض. بالنسبة للأولاد فقد توسعت مجموعات القصاصات وقسائم الهدايا بتصنيفات جديدة، كما توسعت غزواتهم ممتدة إلى أبواب شوارع أخرى.

وبالطبع لم يكن من الممكن أن تمر تلك المناورات دون أن تثير الانتباه إليها، فلم يتأخر أولاد الجوار بفهم الأمر الذي يدفع ميكيلينو وإخوته للصيد طيلة النهار. وعلى الفور أصبحت تلك الأوراق التي لم يكن يعيرها أحدٌ حتى ذلك الحين الاهتمام أبدًا، غنيمة مشتهاة، ومرت فترة من التنافس بين جماعات الأولاد المختلفة، أصبح فيها جمع الأوراق من منطقة لأخرى سببًا للنزاعات والمناوشات بينهم.

لم يعد الأولاد ينامون بفعل الإثارة، وهم يعدون مشاريع للمستقبل. يكفي أن نستبدل كل هذه القسائم وسنجمع معًا كمية كبيرة من المنظفات.

- أين سنضعها؟
- علينا أن نستأجر مخزنًا.
- ولماذا لا نستأجر باخرة؟

ولما كانت للدعاية مواسم مثل الفاكهة والزهور، فقد انتهى موسم المنظفات بعد بضعة أسابيع. وظهرت في الصناديق دعايات مفتت المسامير اللحميّة فاقترح أحدهم: «هل نشرع بجمع هذه أيضًا».

لكنهم رجّحوا فكرة تكريس أنفسهم لتحويل الثروات المكدّسة إلى مساحيق تنظيف، وكان المقصود الذهاب إلى المحلات المحددة للحصول على عينة بدلًا من القسيمة.

وهكذا جرت العمليات بنظام متفرّق، فيذهب كل صبي في كل مرة إلى المتجر، وبإمكانه أن يقدم أيضًا ثلاث أو أربع قسائم معًا على أن تكون الأنواع مختلفة، وإذا ما أراد الباعة إعطاءه عينة واحدة من نوع واحد ولا شيء آخر فإن عليه أن يقول:

- إن أمي تريد أن تجربها كلها لترى أيها الأفضل..

لكن الامور تعقدت عندما –مثلما يحدث في العديد من المتاجر– وجدوا أنهم يعطون العينة المجانيّة فقط لمن يقوم بشراء حاجياته. وبالنتيجة، فإن عملية تحويل القسائم إلى بضائع كانت تستغرق وقتًا

طويلًا، وتتطلب مصروفات إضافية لأن المشتريات بنقود الأمهات قليلة، والمتاجر التي يجب التنقيب فيها كثيرة، ولم يكن هناك من واسطة أخرى لتأمين الأموال إلا بالبدء بالمرحلة الثالثة من المخطط؛ أي بيع المنظفات التي سبق جمعها.

فقرروا القيام ببيعها للبيوت، قارعين أجراسها.

- سيدتي! هل يهمّك؟ غسيل ناصع البياض!

ويقدمون علبة من «رشاكويك» أو مظروفًا من «البلانكسول».

- أجل، أجل. أعطني منها شكرًا.. كانت إحداهن تأخذ العينة وتغلق الباب بوجههم.
- كيف؟ والدفع؟ ويمطرون الباب بضربات من قبضاتهم.
- الدفع؟ أليس بالمجّان؟ هيا اذهبوا يا أولاد.

وبالطبع لم تتأخر الإشاعات بالانتشار بين مكلفي الشركات أنّ الأولاد الذين يقومون بمثل جولاتهم على الأبواب بابًا تلو الآخر يبيعون المنتجات نفسها التي يرجون هم من الناس قبولها مجانًا، وباعتبار أن موجات التشاؤم أمر معتاد في عالم التجارة، فما كانت إلا أن اجتمعت مكاتب الدراسات في مختلف الشركات واستُشير مختصون بأبحاث السوق، وكانت النتيجة التي توصلوا إليها هي أن منافسة غير مشروعة بهذا الشكل يمكن أن يقوم بها فقط مخبئو البضائع المسروقة. وبدأت الشرطة على إثر شكوى نظامية ضد مجهولين، تجول الأحياء بحثًا عن اللصوص ومخبأ المسروقات.

من لحظة لأخرى أصبحت المنظفات خطيرة مثل الديناميت، فخاف ماركو فالدو وقال: «لا أريد بعد الآن حتى ولا غرامًا واحدًا من هذه المساحيق في بيتي!». لكن لم يعرف أحد أين يضعها فلا أحد يريدها في البيت، فتقرر أن يذهب الأولاد ويرموا بها في النهر.

قبل الفجر، وصلت إلى الجسر عربة يجرها بيتروتشو ويدفعها أخواه محملة بعلب «سابونالبا، ولا فالوكس»، ثم عربة أخرى يجرها أوغوتشونه ابن البوابة المقابلة وآخرون، وآخرون أيضًا. وتوقفوا وسط الجسر. وأفسحوا المجال لمرور راكب دراجة كان يلتفت إلى الخلف مستطلعًا بفضول، ثم بدأ ميكيلينو برمي العلب في النهر قائلًا: «هيا لنبدأ!». فصرخ به فيليبتو: «أيها الأحمق! ألا ترى أنها تطفو؟ يجب أن تفرغ المسحوق في النهر لا أن تلقي بالعلبة!».

ومن العلب المفتوحة الواحدة تلو الأخرى هبطت سحابة بيضاء خفيفة لتستقرَّ على تيار الماء الذي كان يُرى وهو يمتصها، فتعود لتظهر متكاثرة بفقاعات دقيقة ولتبدو من بعدها وكأنها تغرق في القاع.

- هكذا، جيد.

وتابع الأولاد إفراغ عشرات آلاف الغرامات منها..

صرخ ميكيلينو: «انتبهوا، أنظروا هناك في الأسفل! وأشار إلى الوادي».

بعد الجسر كان شلال الماء السريع حيث تيار الماء يندفع للأسفل. لم تعد الفقاعات الصغيرة تُرى، وتعود للظهور إلى الأسفل بقليل. لكنها

الآن كانت قد أصبحت فقاعات كبيرة تنتفخ متدافعة الواحدة تلو الأخرى من الأسفل، وارتفعت موجة من فقاعات الصابون وتضخمت، وأصبحت عالية بمستوى علوّ الشلال مشكلةً رغوةً بيضاء مثل جفنة صابون حلاق حركها بفرشاة الحلاقة، وبدا أن كل تلك المساحيق من الأصناف المتنافسة كانت تؤكد ما ادعته لنفسها وتبرهن على فورانها. وهكذا فاضت ضفتا النهر بالفقاعات، فما كان من الصيادين الذين كانوا هناك منذ أول خيوط الفجر بأحذيتهم الطويلة، إلاّ أن سحبوا خيوطهم وهربوا. مع نسمات الصباح هبت الريح فانفصل عنقود من الفقاعات عن سطح الماء وطار، طار بعيدًا بخفّة. كان الفجر فتلوّنت الفقاعات بلون الزهر، فصرخ الأولاد الذين رأوها تمضي عاليًا فوق رؤوسهم: أووه..

طارت الفقاعات متابعة مجرى سكك الهواء اللامرئية فوق المدينة، والجةً الشوارع على مستوى ارتفاع الأسطح، هاربةً على الدوام من ملامسة الزوايا والميازيب. حينها انفرطت فقاعات العنقود المتراصّة وطارت الواحدة تلو الأخرى على هواها، آخذة كل واحدة منهن طريقًا مختلف الارتفاع والسرعة والاتجاه وهامت وسط الهواء.

ويمكن القول إنها تضاعفت، بل إن هذا كان صحيحًا لأن النهر تابع فيضانه بالرغوة مثل إبريق حليب على النار. والريح كانت ترفع عاليًا فقاعات وسحبًا تتطاول بشرائط بلون قوس قزح.

ظلال قاتمة لعمال يهرعون إلى المصانع على دراجاتهم النارية المطقطقة، ومجموعات الفقاعات الخضراء والزرقاء المتحررة من فوق

تتبعهم. وكأنما كل واحدٍ بينهم يجر خلفه عنقودًا من البالونات الصغيرة المربوطة إلى قبضة الدراجة بخيطٍ طويل.

وكان أن انتبه الناس إلى ذلك من الترام: «فلتنظروا! أيه. انظروا ماذا هناك في الأعلى؟». فتوقف السائق وهبط كما هبط جميع الركاب من الترام وشرعوا ينظرون إلى السماء. كما توقفت الدراجات الهوائية، وذات المحرك والسيارات، وبائعو الصحف والخبازون؛ وجميع المارة عند الصباح ومن بينهم ماركو فالدو الذي كان في طريقه إلى عمله. وقف الجميع وأنوفهم مرفوعة إلى الأعلى؛ ينظرون متابعين طيران فقاعات الصابون وسألت سيدة عجوز: «هل هذا شيء ذريّ؟».

فانتشر الخوف بين الناس وراح كل من يرى منهم فقاعة تنزل فوقه يهرب صارخًا: «إنها مشّعة». لكنَّ الفقاعات تابعت طيرانها، بألوان قوس قزح، هشةً وخفيفةً لدرجة أن نفخة واحدة تكفيها لكي تنفجر، ولم يعد لها وجود. وسرعان ما أطفأ الذعر بين الناس هكذا مثلما اتقد.

- ولكن أيّ إشعاع، إنه صابون! فقاعات صابون مثل تلك التي يلعب بها الأطفال! وتملكهم فرح عارم: انظر إلى تلك! وتلك.. وتلك..

ومن مداخنها، كانت المصانع قد بدأت تنفث دخانًا أسود مثل كل صباح. والتقت مجموعات الفقاعات بسحب الدخان؛ فقد كانت السماء مقسمة بين تيارات الدخان الأسود وتيارات الرغوة القزحية، وتبدو كأنها تجاهد في بعض زوابع الهواء للحظة واحدة فقط. بدت قمة المداخن وكأنها غُزيت بالفقاعات، لكن سرعان ما حصل اختلاط ما بين الدخان

الـذي كـان يحصـر قـوس قـزح الرغـوة وفقاعـات الصـابون التـي تحصـر وشاحًا من حبيبات سواد الدخان، إلى درجة لم يعد يمكن فهم أيّ شـيء. وإلى حد أن ماركو فالـدو بحـث وبحـث في السـماء فلـم يعـد يفلـح برؤيـة الفقاعات، وإنما فقط الدخان والدخان ولا شيء غير الدخان..

1963

(5)
العاصفة *

سعد هادي

كاتب عراقي وُلد عام 1956، حاصل على الماجستير في الفنون التشكيلية (نحت) من كلية الفنون الجميلة في بغداد، يقيم في فنلندا حاليًا، صدر له: «ليلى والقرد» رواية، «تجريد شرقي» رواية، «عصافير الموموس العرجاء» رواية، «سلاطين الرماد» رواية، «طبيعة صامتة» قصص، «الأسلاف في مكان ما» قصص.

فقاعات ثقيلة متصدعة تطفو في سماء البار، تتجمع مثل عناقيد أو تتفرق بأشكال هلامية يصعب اقتناصها، تنعكس فيها حرارة الموائد والكراسي الفارغة وضجر فتاة لا تطيق الثرثرة، فقاعات ملونة أشبه بكراتٍ صغيرة من المطاط، تتصاعد إلى السقف ثم تهبط فتُحدث أصواتًا

* من المجموعة القصصية «طبيعة صامتة»، 1990.

تكاد لا تُسمع عند ارتطامها بالأرض، ثم تعود للتحليق في دورة لا نهائية، تتصاعد من قدح البيرة الوحيد على المائدة ومن علبة التبغ ومن الزهور الباهتة في ثوب الفتاة، بعضها يذهب نحو الباب الموارب للمطبخ حيث يصدر ضوء ضئيل وبعضها الآخر يصطدم بالواجهة الزجاجية المطلة على الشارع ويعود بأغشية من الغبار وبرائحة تشبه رائحة أصداف الأسماك. فقاعات أشبه بكلمات منحوتة من الخشب تتخيلها الفتاة وهي تنطلق من فم صديقها وتتساقط على الأرض، فقاعات مضيئة آتية من الخارج مع أشعة شمس الظهيرة، فقاعات تتسلّل من صنبور بعيد لا يمكن إغلاقه، أو تتناثر من الثريات ذات الألوان البراقة في سقف البار، ومن المصابيح المطفأة، ومن المروحة ذات الحجم الهائل التي تدور في الجانب المقابل دون أن تكون موجهة إلى زاوية محددة. فقاعات كثيرة تلتقي في الفاصل العميق بين الجسدين، تحجب الرؤية وتجعل الفتاة تستدير قليلًا، وتحاول أن تزيح ذلك الركام الثقيل من الكرات والدوائر المتداخلة التي تتساقط من خصلات شعرها، ومن ثنيات ثوبها ومسند المقعد الذي تجلس عليه، فقاعات باهتة تمرُّ للحظات أمام بصرها ثم تتلاشى.

استدارت الفتاة فرأت منظرًا مرسومًا لغابة تمتد على الحائط بأكمله، تتوالى فيها الأشجار ذات الظلال العميقة، غابة صامتة بأفق لا نهائي، نباتاتها متخيلة وسماؤها مرسومة بلون وردي فاتح.

قالت الفتاة:

- هل يمكنك أن تدير المروحة باتجاهي؟

نهض الشاب وهو مستمر في كلامه، تحرّك بشكل آلي وعيناه نصف مغمضتين، ثم أدار المروحة التي بدأت تُصدر أنينًا مكتومًا. اعتدلت هي في جلستها، حرَّكت خصلة نافرة عن جبهتها ونظرت إلى المروحة وهي تهتزُّ بإيقاع غير منتظم، وفي لحظة واحدة فكّرت في أن كل الفقاعات ستنفجر ثم تتجمع بأشكال أخرى مختلفة وتحلّق في فضاء البار، وأن شيئًا من نسيجها الغامض سيتحوّل إلى ضحك لا نهاية له. رفعت حقيبتها الصغيرة وأعادت الخصلة النافرة إلى ما كانت عليه ثم نهضت واتجهت إلى الخارج. حاول الشاب أن يقول شيئًا، أن يمسك بثوبها، أن يقتنص زهرة وحيدة باهتة يأخذها كتذكار لكنه لم يجد بين أصابعه سوى فقاعة مترهّلة تعيده إلى مكانه.

ظلَّ شبح الفتاة التي غابت يتكرر في كل لحظة أمام الواجهة الزجاجية، صورة شاحبة تضيء في ومضات سريعة ثم تنطفئ، رفع الشاب قدح البيرة المتبقي ثم تركه لينزلق منسكبًا فوق غطاء المائدة.

كان الصمت الذي يبدو خرافيًا وقاسيًا يتجمّع في طنين الفقاعات المتصارعة والمتلاطمة، ويهدر فوق الموائد والكراسي والثريات والأقداح والقناني ومنافض السجائر، وكانت الغابة المرسومة التي استيقظت فيها روح الطبيعة تهيج بشكل مفاجئ، وتنفض عنها الأوراق اليابسة والزهور الميتة والأغصان الخفيفة المتكسرة وتحرّكها نحو القاعة

الفارغـة. وكـان هـواء المروحـة يحمـل كـل مـا لفظتـه الغابـة مختلطًـا بالفقاعات المطاطية اللزجة، ويدور بالخليط الفجِّ فوق الموائد وفي ثنيات الستائر والأغطية في دورة لا نهائية، تذكّر الشابَّ بزهرة ندية مُتخيَّلة في يده، يبحث عنها فلا يجد سوى الفراغ.

1982

(6)
الميتة*

خوان خوسيه ميّاس

أحد أهم الكتّاب الإسبان المعاصرين، وُلد عام 1946، يكتب الرواية والقصة القصيرة والمقالة. جمع بين احترام النقّاد المتخصصين والجماهيرية الواسعة، يمتاز أسلوبه بالمزج بين الواقع والخيال، وكذلك بين المشاعر والفلسفة.

ذات يوم أشار زميل مدرسة إلى امرأة وقال لي:

- انظر إليها، إنها ميتة.

كان يبدو لي مستحيلًا أن تتحرك امرأة ميتة بهذه الطبيعية بين الناس، وبالفعل كنت أعرف أنها أكذوبة، غير أنه بدا لي مثيرًا أن أصدّقها، وهكذا

* ترجمة أحمد عبد اللطيف: مصري، روائي ومترجم وصحفي وباحث، له ترجمات كثيرة مهمة، وكذلك صدر له عدد من الروايات.

اتبعت صديقي في اللعبة، بينما يؤكد لي أن لديه قدرة تمييز امرأة ميتة بين آلاف النساء الحيات.

- لكن، بماذا تميزها؟
- لا شيء محدد، وكل شيء في الوقت نفسه. إن ركّزتَ، تسير الميتات محاطات بشيء كفقاعة من حوائط غير مرئية، حين تتمتع بقدرة الشعور بهذه الفقاعة، ستتعلم تمييزهن.

بعد هذا الحوار بأيام قليلة، كنت أركل بقدمي أحجار شارعي، حين لمحت امرأة داخل فقاعة، لا بد أني أنا من صنعتُ الفقاعة، لكنّ المرأة كانت واقعية بالكامل، سرتُ وراءها في الخفاء حتى شارع «لا أبينيدا دي أميركا»، ثم شارع «فرانثيسكو سيلبيلا»، ثم وصلَتْ إلى محل حدادة ودخلته لتخرج بعد قليل معلَّقة في ذراع رجل طويل جدًا، وله شارب مثل شارب كلارك جيبيل. كان الرجل حيًا بالطبع، ولم يكن يعامل المرأة كجثة، على العكس، كان يقترب من جسدها كلما سنحت الفرصة، وكان ينقل حائط الفقاعة ناحية الجانب الآخر، ثم يقبّلها في رقبتها من خلال غشاء يبدو أنه لم يكشفه.

دخلا معًا في حانة مطلة على شارع «ميخيكو» وتناول كل منهما شطيرة كالماري واحدة، وعندما كانت تمدُّ ذراعها لتأخذ من البار كوب البيرة، كانت تسحب يدها من الفقاعة من دون أن تخدشها، مثل أشياء أخرى لديها القدرة على التسلل إلى فقاعة صابونية.

وبدأت أركّز انتباهي في الرجل، كان يبدو نمطًا لشخص دنيوي، كنتُ أتطلع أنا إلى أن أكونه في ذاك الوقت، وكنت أفكر بسذاجة في أنه رجل من الطبقة العليا، ولا بد أنه يتحرك بالطبيعة نفسها بين الموتى والأحياء. هذا الرجل كان يتصرف برشاقة مذهلة، وكان يعرف في أي لحظة يجب أن يزرر أو يفكَّ زر الجاكيت، ومتى يمرر إصبع السبابة على طرف شاربه، كما يعرف التقاط فتات الخبز كأنه يلتقط فكرة، وعند خروجهما من الحانة، عانق خصرها وشدها ناحيته بعنف، حتى إنه لم ينتبه إلى الفقاعة، حينئذ، انصرفتُ عن مطاردتهما ولديَّ فكرة رومانسية تقول إن الحب يكمن في إنقاذ الآخر من الموت، وقررتُ أن أنتظر فرصتي.

بعد شهور قليلة، جاءت إلى الحي فتاة جديدة، وكانت محاطة بفقاعة، كانت صغيرة جدًا على الموت، لكنني استشرت صديقي فأخبرني أن الموتى من كل الأعمار.

- لديّ ابنة عم عمرها ثلاثة أسابيع وميتة أيضًا.
- وماذا يقول أبواها؟
- لا يعرفان ذلك، أغلب الناس لا يرون الفقاعة.

عشقتُ الفتاة كمجنون، وحين استطعت ادخار المال الكافي، دعوتها إلى تناول وجبة في حانة شارع فرانثيسكو سيلبيلا المطلة على شارع ميخيكو، ثم حاولتُ الاقتراب منها لأنقذها من الفقاعة، لكنها لم تستجب لي.

وفي اليوم التالي حين مررتُ بالقرب من مجموعة تقف معها، لاحظتُ أنها تشير إليَّ بلمحة سخرية، كانت تتباهى بأنها سلبتني الوجبة، وكان ذلك ثروة بالنسبة إلينا، حينئذ، ورغم خجلي، اقتربتُ من المجموعة، وصوّبتُ إصبعي إلى صدرها، وقلتُ لها:

- أنت ميتة، لا تظني أنني لا أعرف.

فابتعدت كل صديقاتها قليلًا، كأنهن يخفن العدوى، ومنذ ذلك الحين غدت تجرّ حياتها وحيدة، وأنا لم أحاول أن أخفّف عنها، رغم أنها ظلت تتوسل إليّ بعينيها، ثم تزوجتْ من رجل ميّت من الجوع، وباتت ترافقه في قداسات الموتى كل أسبوع.

بقيتْ في الحي، وكلما ذهبتُ إلى هناك لزيارة أبويّ، كانت تتصنّع المصادفة لأحرّرها من الفقاعة التي لا تزال مقيدة في داخلها، لكني الآن، حتى لو تمنّيتُ، فلن أستطيع تحريرها، لأني أنا نفسي غدوتُ مسجونًا على مدار كل هذه السنوات داخل غشاء شفاف ومرن لا يمكن أن ينقذني منه إلا امرأة حية.

2008

(7)
تاريخ فقاعة

أحمد الخميسي

قاص وكاتب صحفي مصري وُلد عام 1948. صدر لـه العديـد مـن الأعمـال منهـا: «موسـكو تعـرف الـدموع» دراسـات 1991، «الصـعود إلـى الجبـال الشيشـانية» دراسـات 1995، «عيـون التحريـر في الأدب والسياسة» دراسات 2011، «كناري» قصص 2010، وحـازت علـى جـائزة سـاويرس فـرع كبـار الكتـاب كأفضـل مجموعـة قصصـية لعـام 2011، «رأس الـديك الأحمـر» قصـص 2012، «الأجيـال الثلاثـة» قصص 2015، «أنـا وأنـت» قصص 2015، «ورد الجليـد» قصـص 2019. تـرجم العديـد مـن الأعمال عن اللغة الروسية منها: «المسألة اليهودية» للكاتـب الروسـي دوستويفسـكي، «كـان بكـاؤك في الحلم مريرا» قصص، «لقاء عابر» قصص.

كان كل شيء يمضى بدقة إلى أن ظهرت تلك الفقاعة الصغيرة جدا وبقبقت مرتين: بق. بق. وما هو وزن فقاعة هواء في حركة التاريخ والتطور

البشري؟ قطعا لا شيء، هكذا سيجيب كل من يخلط بين فقاعة في معدة موظف صغير وفقاعة في بطن رجل دولة عظيم الشأن. ودعني أوضح أنني مجرد حارس من خمسة حراس كانوا يرافقون سيادته، أحكي ما حدث بالضبط، فلست ممن يطلقون الشائعات أو ينتمون لحزب أو يؤججون فتنة. تلك البقبقة كانت الحماقة الأولى للفقاعة، وبها عبَّرَتْ في طيش عن فرحتها بمولدها، وبعدها سكنت في تلافيف المعدة. وكما لا يفكر الإنسان في المادة التي خُلق منها فإن الفقاعة لم تفكر في إن كان الفضل لوجودها يعود إلى جرعة هواء دخلت عبرالفم؟ أم إلى تلبك معوي؟ أو كتلة غازات طفت في المعدة؟ المؤكد في كل الأحوال أن الفقاعة بقبقت مرتين، ومن الذي يسعه أن يمنع طفلا من الصراخ أو فقاعة من الضوضاء والبقبقة؟ هنا عضَّ عظيم الشأن على شفته السفلى داخل السيارة وتشنجت ملامحه من الوجع. وأحست الفقاعة -من الألم الذي سببته له- بأن وجودها حقيقة، ففردت ساقيها الصغيرتين بكسل وفرح في الرطوبة والعتمة. حتى تلك اللحظة لم ينتبه أحد إلى خطورة وجود فقاعة غازية في بطن رجل دولة رفيع المقام، إلى أن مضت سيارته فوق الكوبري وأصبح ميدان رمسيس تحتنا، حينئذ، وكنت واقفا على دواسة الباب من ناحية الشمال، دفع الفضول الفقاعة -لعنة الله على الفضول- إلى وثبة صغيرة تستكشف بها عالم المعدة الصغير، وثبت للأمام، ومكثت مكانها تلهو وتضرب في المصران، ثم عادت إلى مكانها، هكذا، لا منطق، ولا فكرة، ولا هدف. حياة لمجرد الحياة كما يقال. في هذه اللحظة نظرتُ في

المرآة الجانبية ورأيت وجه سيادته والعرق يغمره وعليه أمارات تعبٍ شديد. على الفور توقَّف الموكب، وخرجت مهرولة فرقة الأطباء من سيارتها المرافقة. قاسَ الطبيب الضغط واستمع إلى نبضات القلب، وشد الجفن إلى أسفل، ونحن في قلق واضطراب، ثم صبَّ لسيادته قطرات «سيميثكون» الطاردة للغازات في قدح ماء مُثلَّج. وأخيرا واصل الموكب طريقه. الحق أني لم أسترح لما جرى، فهي المرة الأولى التي نتوقف فيها في الطريق لسبب صحي، لكني رحت أدعو الله أن يحفظه ويصونه لشعبه وللعالم.

أنا كما قلت حارس بسيط من خمسة حراس يرافقون سيادته، ولم يكن لي أن أتخيل أن هذه الفقاعة التافهة كانت على موعد مع القدر، هي تحديدا، من بين مليار فقاعة تشكّل المناخ العام الذي نتنفسه، وحدها كانت على أبواب المجد، لأن ولادتها، أو نشأتها، ارتبطت بمعدة، ثم بعقل، ثم بخطاب رجل دولة بارز حدد الكثير.

واصلنا طريقنا إلى مبنى قاعة الشعب، وفي تلك الأثناء كانت الفقاعة تواجه في السر أول تحد لوجودها، ألا وهو مفعول قطرات «سيميثكون» الطاردة للغازات. والمواجَهة كما هو معروف تستنفر كل الطاقات الكامنة حتى لدى فقاعة عابرة. هكذا وقع أكثر الأشياء غرابة، الأمر الذي لم أستطع أن أتكلم فيه لاحقا مع أحد، ولا حتى زوجتي. وحين كانت المعجزة التي وقعت تتسلل إلي أحلامي كنت أطرد صورتها على الفور لأنام مطمئنا. حينذاك، ونحن في طريقنا، تصدّت الفقاعة للقطرات

بصمود مذهل، وبينما مفعول القطرات ينحسر ارتجف على الجدران الداخلية للفقاعة فجأة خيط هشٌّ وردي اللون من وعي محدود، وعي لا يمكن أن تسميه عقلا إلا مجازا، لكن ذلك الوعي ألهم الفقاعة ألا تستسلم للطرد والخروج في فرقعة لن تدوم سوى لحظة، وربما هداها الوعي المحدود إلى فكرة أن فقاعة حية داخل معدة أفضل ألف مرة من فرقعة موت أخيرة. وحين تحللت القطرات مهزومة دق في قلب الفقاعة الشعور بقوة وجودها، فأخذت تقلص المصران وترخيه، وتتواثب بداخله، وتمطّه وتهمله إلى أن اطمأنت إلى تأثيرها، فتضاعف وعيها بذاتها حدة ووضوحا، وواصلت حياتها نحو لحظة مجدها الكبير.

وصلنا إلى المبنى ودخل رجل الدولة عبر الردهة المخصوصة إلى مبنى قاعة الشعب، وحين أخذ يصافح بعض من كانوا في انتظاره شعر بمغص شديد، وشملته حرارة مرتفعة أشبه بالحمى. استأذن سيادته وقصد دورة المياه. هناك، وحده، أخذ يجرب بكل الطرق أن يتخلص من الفقاعة، حاول ذلك بالانحناء على معدته، وبضغط الهواء لأسفل لطرد الفقاعة، وكانت هي تشعر بتلك الحرب، فتتشبث بجدار المعدة وهي تقول: «الضغطة التي لا تقتلني تقويني». وكان ذلك هو التحدي الثاني بعد القطرات الذي واجهته الفقاعة وتغلبت عليه.

بعد قليل خرج عظيم الشأن من دورة المياه منهكا، واتجه إلى القاعة التي سيلقي فيها خطابه التاريخي، وما إن ظهر حتى دوى في الأجواء تصفيق حادٌّ متصل. لكن فورة الاحتفاء تلك لم توقف المغص الذي اشتدَّ

عليـه، ولا حرارتـه الآخـذة في الارتفـاع، فتطلـع إلـى الصـفوف الأولـى مضطربا بعينين تضيقان وتتسعان. تفقَّد ربطة عنقه، وأدنى قـدح المـاء مـن فمه، وساد الصمت. صفوف الحاضرين في القاعة تتطلَّع إليـه، وهـو ينظـر إليها بنظرات زائغة. وطال الصمت. في تلك اللحظة -وكنت واقفا على مسافة مـن سـيادته- أحسـت الفقاعـة بسـيطرتها شـبه الكاملـة علـى البـدن المنهك، وأنه بلا حول ولا قوة، مجرد بدن يرتجف داخل بذلة من قماش لامع. وبادر أحدهم لقطع الصمت بالتصفيق، فارتجَّت القاعـة مـن خلفـه بالهتافـات والتصـفيق، وأدركـت الفقاعـة مـن الأضـواء والصـيحات الحماسـية أن ظرفـا خاصًّـا جـدًّا تهيأ لهـا لترتـبط بحـدث تـاريخي عظـيم. الغـرور أدار رأسَـها، ونشـوة السـلطة، فأخـذت تقـبض علـى معـدة عظـيم الشأن وتُرخيها، وهو يتلوّى، وعندما صار الجسد الواقف واقعًا تمامًا في قبضتها أيقنت أنها أصبحت عقلا لبدن لـم يعـد سـوى تجسـيد لوجودهـا الغازي العابر.

في ما بعـد، لـم أسـتطع أن أتحـدث إلـى أحـد، حتـى مـع نفسـي، بشـأن المعجزة التي وقعت، أقصد حين أخذت الفقاعة تخرج من فم المسـؤول في شـكل كلمـات وجمـل غيـر مترابطـة، وكانـت تخـرج للهـواء متفـاخرة وسعيدة أنها ماثلة أمام هذا الحشد الكبير وتحت تلك الأضواء الساطعة.

هكـذا صـدرت القـرارات التاريخيـة وطفـت مـن فـم عظـيم الشـأن معكوسـة في الهـواء، وبـدلا مـن أن يقـول محـو أميـة الجميـع، قـال محـو

الجميع بالأمية، وهكذا إلى أن اختتم خطابه بقوله نعادي من يسالمنا، ونسالم من يعادينا.

وكنت أنا مضطربا أدعو الله أن يحفظه ويصونه، وحمدت الله عندما انتهى من خطابه ودوت عاصفة من التصفيق. وأسرع سيادته متخبّطا ونحن في أعقابه نحو صالون الضيافة وصدى التصفيق يلاحقنا، وهناك ارتمى على أول فوتيه فاردًا ساقيه على الأرض ورأسه ملقى إلى الوراء، فتلقفه فريق الأطباء بالفحوص السريعة.

لم يبق من بدن الفقاعة بعد الخطاب التاريخي سوى عينين زائغتين في وجه منهك فارقته علامات الحياة. مع ذلك، فإن الفقاعة التي بدَّدَتْ نفسها تحت أضواء المجد لم تستشعر الأسف على عمرها الذي أضاعته في لحظة. لقد انتهت بخروجها، هذا صحيح، ولكنْ منْ في تاريخ الفقاعات نال ذلك المجد كله؟ هي حياة قصيرة لكنها كانت مجيدة خالصة لحدث عظيم.

في ما بعد، تم التحقيق معي أنا وزملائي الأربعة الآخرين حراس السيارة. كنت واثقا ومطمئن الضمير إلي أنني لست مذنبا في شيء، إلا إنْ كانت رؤية الحقيقة تُحسَب ذنبًا، ومع ذلك فقد شعرت بتوتر والضابط يسألني عمّا جرى بالتفصيل في ذلك اليوم. حكيت له ما كان ظاهرًا ومرئيًا للجميع حينذاك، لكنني أخفيت في أبعد نقطة من أعماقي ما أبصرتُه وحدى، لأنني أعلم منذ طفولتي أن الناس لا يصدّقون الحقيقة.

2010

(8)
جامع الفقاعات

ليلى عبداللَّه

كاتبة تونسية حاصلة على الأستاذية في الأدب واللغة الفرنسية. نُشرت لها نصوص أغلبها في موقع ألترا صوت وضفة ثالثة، ومقالات ومراجعات لروايات عربية وأدب عالميّ في جريدة القدس العربي والصباح الجديد ومواقع إلكترونية أخرى.

في فجر يوم صيفي انطلق خالد في رحلة طويلة، مرّ على بيت زهرة مودعا تاركا لها علامة تحت شباك غرفتها، ثم غادر المدينة من بابها ذي الأقواس السبعة. لم يكن يعلم أي طريق يسلك فترك قدميه تأخذانه إلى حيث لا يدري. مرّ عبر حقول وسهول كثيرة دون أن يعلم طريقة إيجاد مبتغاه، ظلَّ هائما إلى أن اعترضه شيخ غلب اللون الأبيض فيه على الأسود، حكى له خالد قصته من باب الفضفضة أولا وطلب النصح ثانيا.

بدا الأمر غريبا للشيخ لكنه سرعان ما تدارك حيرته ونصحه بأن يتبع مجرى النهر فأين وجد الماء وجد ضالَّته.

بدأت الحكاية عندما استقرت في الحي القديم للمدينة العتيقة عائلة لا أحد يعلم من أين أتت، سكنت زهرة ووالدها ذو السنوات السبعين البيت الكبير ذا الباب الاصفر. شغلت الصبية قلوب شباب الحي لكنّ واحدا فقط دقّ له قلبها. أُغرم خالد بزهرة مثلما أُغرمت به وأصبحا حديث كل الحي. حكت له مرة أنها تشتاق إلى صوت مياه الشلال ورائحة التراب المبلل بالمطر وحكايات عجوز لا تنضب أبدا، أخبرته أنها لن ترضى إلا بتلك الأشياء مهرا لها.

اتجه خالد صوب النهر ثم مشى بمحاذاته لأيام غير معدودة إلى أن سمع من بعيد صوت هدير فعلم أنه غير بعيد عن شلال مياه. أسرع الخطى نحو مصدر الصوت إلى أن وصل إلى مرتفع تتساقط منه المياه بشكل عنيف، وكأنّ أحدهم يرمي بها من فوق. نزل إلى الماء متصيّدا فقاعة، أرادها جميلة ومشعّة، بدت له بألوان قوس قزح بسبب انعكاس أشعة الشمس عليها، فتح الزجاجة البلورية ونزل إلى الماء بهدوء دون أن يفسد الفقاقيع، واختار أجملها، وبحركة رشيقة جعلها تنزلق داخل القارورة وأقفل عليها بإحكام ثم واصل رحلته.

علمت زهرة أن حبيبها قد ذهب في رحلة طويلة حتى يجلب لها المهر الذي يليق بها، ساعتها فقط علمت أنها دفعت به إلى الهلاك وأنها خسرته إلى الأبد. مرت أسابيع ثم أشهر لم تغادر فيها زهرة باب غرفتها.. ذبلت وهزلت وحار الأطباء في علاجها.

حثَّ الشابُّ الخطى وكأنه يعرف وجهته القادمة، جعل من غريزته بوصلة توجّهُهُ فكانت هذه المرة نحو قرية تراءت له من بعيد، كلما اقترب منها أكثر زاد جفاف وتشقّق أرضها. مشى إلى أن وصل إلى أول بيت، خرج له شيخ يحمل في وجهه تشققات تزيد عن تلك التي في الأرض. طلب منه أن يرتاح في ظل المنزل إلى أن يعاود سيره من جديد. أخبره الشيخ أنْ لا أحد يزور قريتهم أو يمرُّ منها مخافة الموت عطشا، وأنّ المطر لن ينزل إلا عندما يأتيهم شخص يبحث عن رائحة التراب.

علم خالد أن ضالته ستكون في هذه القرية فلم يغادرها، حتى يوم اسودَّت السماء وهبَّت ريح شمالية باردة معلنة نزول المطر. ما هي إلا دقائق حتى بدأت أول قطرات الغيث في النزول، ثم انهمرت بغزارة مبلِّلة الارض العطشى. شكّل تساقط المطر فقاعاتٍ صغيرة تتكاثر بسرعة ونزول الماء على الأرض وقوته. ساعتها فتح خالد قارورته البلورية وبحذر أخذ فقاعة ثم أغلق عليها بإحكام وغادر القرية.

مرت الأيام وهو لا يزال يركض وراء إيجاد آخر فقاعة والعودة بها إلى مدينته والزواج بزهرة. وصل بلدة سمع أنّ فيها أبرع الحكاءات. ساعده أحدهم في الوصول إلى منزل حكاءة القرية. أجلسته امامها ونظرت في عينيه مليّا متفرسة ملامح وجهه، ثمَّ ذهبت للبحث بين قواريرها المتراصّة على الرف. أخذت واحدة وأعطتها له. علت وجهه الدهشة. أصبحت الفقاعة الثالثة في حوزته ويمكنه الانطلاق في رحلة العودة.

بعد أشهر وأسابيع غير معروف عددها وصل خالد باب الأقواس السبعة، دخله قرابة الفجر، لم يلحظ أيّ تغيير على الأزقة أو الأبواب التي مرَّ منها إلا شحوب طلائها، أو لعله الظلام الذي ما يزال جاثما على المدينة. ساقته قدماه إلى بيت زهرة وتقوقع تحت شباك غرفتها. غفا ولم يستيقظ إلا على أشعة الشمس وهي تحرق وجهه. شعر بوهن شديد وألم في كل مفاصله فأعاد ذلك إلى الرحلة الطويلة التي قام بها. اتجه نحو الباب الأصفر الكبير وطرقه بشكل متواصل، ظلَّ متسمرا أمام الباب ملاحظًا نظرات الاستغراب التي تعلو وجوهَ المارّة.

اخيرا سمع أزيز الباب وهو يفتح ليخرج منه شيخ مقوّس الظهر يسنده عكاز. مدَّ له خالد الفقاقيع وطلب رؤية زهرة. سالت دمعة على خد الشيخ وقفل عائدا إلى الداخل مغلقا الباب وراءه. علم يومها خالد أن حبيبته قد فارقت الحياة حزنا عليه بعد أن غادر لرحلته التي طالت كثيرًا.

أسند ظهره إلى الحائط وجلس تحت شباك غرفتها. أخرج القارورتين من حقيبته، فتح الأولى فطارت منها فقاعة باعثة في الجو رائحة الماء المنهمر من الشلال وصوته، ثم تلتها الفقاعة الثانية التي حملها النسيم عاليا ففاحت رائحة الأرض في الجو منعشة القلوب وأخيرًا، فتح الزجاجة الثالثة فانفلتت منها الفقاعة الثالثة مطلقة في الجو صوتًا جميلًا لفتاة تجيد حكايات ألف ليلة وليلة.

2020

(9)
داخل شرنقة

زكريا عبدالجواد

روائي وصحفي مصري وُلد عام 1951، عمل مديرا لتحرير جريدة «الرؤية» الكويتية، وجريدة «الدستور»، وحاز على جائزة الصحافة العربية عام 2002. له عدد من الإصدارات في الرواية والشعر وأدب الرحلات.

في اليوم الذي غافلنا فيه الطوفان، كنا نغطُّ في نوم عميق، مثل كل سكان البلدة، ويبدو أن الحالة التي كنا فيها، لم تكن تعنيه، لأنه اندفع يضرب بشكل عشوائي في كل الجهات.

هذه المرة، كان قد جاء إلينا من جهة البحر، ويبدو أن الأمواج كانت حبيسة في صندوقه، وإنها تمكنت بعد محاولات عدة، من فك قيودها، والاندفاع إلى خارج محبسها.

ساد اعتقاد لدينا أن ما يجري في الخارج، ليس أكثر من حلم ثقيل، أو شيئا مثل الكابوس، وأنه راح هذه المرة، يطارد نوم كل واحد منا، كان هذا هو ما اتفقنا عليه كلنا، حين تبادلنا الحديث في اليوم التالي، وقت أن كنا

نصِفُ لبعضنا بعضًا، أصوات المياه وقت أن راحت تلطم جدران البيوت، بينما كنا نظن، أنها ليست أكثر من خوار، تطلقه حشود من البقرات المهتاجة.

كان الأكبر منا في العمر، قد أخبرونا أن أهالي بلدتنا منذ أن وُجدت، وهم يعيشون حالة دائمة من الحصار، لأنَّ مكان مساكنهم يتوسط تلك البقعة، التي تقع بين البحر المالح من الشمال، والبحيرة الراقدة عند الطرف الجنوبي.

ولأن معظم تربة البلدة كانت ملحية، فإن مصدر رزق الأهالي، ظل يعتمد على صيد الأسماك من تلك البحيرة أو ذلك البحر، بينما كانت أجزاء من الأراضي غير مأهولة، وتتكدّس فيها تلال من حبيبات ملح الطعام، الذي كانت إحدى الشركات تحتكر استخراجه، وتقوم بتصديره خارج البلاد.

كانت بيوت الأهالي تتجاور في منتصف البلدة، وتبدو كما لو أنهم تعمدوا ذلك، تحسُّبًا لغدر الطبيعة، أو التعاون لصدّ أي غارات قد يشنها طامعون. وكانت أقل غضبة تحدث من البحر أو البحيرة، كفيلة بإحداث أضرار فادحة للبلدة وسكانها، ودائما ما كانت المياه الزاحفة، تستمرُّ لأيام طويلة، وتمنع الصيادين من التوجه لكسب أرزاقهم.

في ذلك اليوم، الذي انهمرت فيه الكوابيس في منامات الناس، داهمتهم مخاوف عارمة، لدرجة أن أحدًا منهم، لم يجرؤ على الخروج من بيته، قبل أن يطلع النهار، لكنهم رأوا فجأة من نوافذ بيوتهم الزجاجية، فقاعات

متلاحقـة تتجـه صـعودًا، ثـم تنفجـر حـين تـرتطم بهـا، بينمـا كانـت هنـاك فقاعات أخرى، تواصل طريقها إلى الأعلى، دون أن نعـرف، مـا إذا كانـت انفجرت هناك أم لا؟

حين كان يحدث ذلـك، قـرر كـل منـا الخـروج، وعنـدما التقينـا خـارج عتبات البيوت، ارتسمت الدهشة فوق وجوهنا، لأننا في تلك اللحظـة، لـم نصدق أنّ تربة البلدة التي كانت سوداء بـالأمس، تحوّلـت فجـأة إلـى لـون أبـيض كالحليـب، وكانـت الفقاعـات التـي انتشـرت فوقهـا، مـن أحجـام متعددة، ظلـت معظمهـا تتقـافز وتلطمنـا علـى وجوهنـا، وكانـت شـظاياها تندفع إلى شفاهنا، فيترك طعم الملح المخلوط بزبد الأمواج بصماته فوق ألسنتنا.

عنـدما سـطعت الشـمس، قـرر عـدد مـن الشـبان استكشـاف مـا جـرى، تجاهلنا تلك الفقاعات الكثيرة التي واصلت مهاجمتنا في شراسة، ومضينا إلى خارج المنطقة المأهولـة. في تلـك اللحظـة، رأينـا غلافًـا كبيـرًا يسـتدير ليصبح مثل كرة عملاقة، أدركنـا حينئـذ، أننـا بتنـا محبوسـين داخـل سـجن بلوري هائل، كانت ترتسم عليه، خيوط مقوسـة لألـوان قزحيـة. وفي تلـك اللحظة شعرنا بالكرة تميل بنـا، وكانـت بيوتنـا التـي لـم يـزد ارتفاعهـا عـن طابق واحد، تميل في الاتجاه نفسه الذي كان يأخذنا إلى جهته.

ظلـت الفقاعـات الصـغيرة تنفجـر، بينمـا راحـت سـوائلها تنـدفع في أفواهنا، كنا ننظر إلى بعضنا بعضًـا ونشـاهد علامـات الضـيق، غيـر أنـه لـم يكن بيدنا ما نفعله لنمنع تلك الوجبـة الممتزجـة بـالملح. رحنـا مـع مـرور

الوقت نستسلم، ونحتمل الارتطامات التي كانت تصيب كل أجزاء أجسادنا.

استمرت الحال أشهرًا عدّة، واصلت فيها الكرة العملاقة تأرجحها، بينما لم تكف الكريات الصغيرة عن نثر شظاياها، إلى أن ظهرت في الأفق البعيد، شمس عفية.

وعندئذ، راحت تغرس أنيابها المدببة في ذلك الغطاء المكشوف، وعلى الرغم من أن الأمر استغرق وقتا، إلا أن الشمس تمكنت في النهاية، من وضع بصمتها، ونجحت في تحويل تلك الفقاعة الملحية الضخمة، إلى بخار.

وجدنا أنفسنا أخيرًا خارج تلك الشرنقة، وقفزنا في الهواء تعبيرًا عن فرحنا الغامر بالحريّة، غير أنه حين استقرّت أقدامنا فوقَ الأرض، أدركنا أنَّ هناك ما بتنا نفتقدُه. كان ذلك هو ما كنّا تعايشنا معه طوال الشهور الماضية، طعم ماء البحر المخلوط بملح الطعام، الذي كانت تسخو به فقاعاتٌ هشَّة، علينا.

2020

(10)
ارتداء الفقاعة

غياث منهل

قاصّ وشاعر عراقي، خريج كلية اللغات جامعة بغداد، حاصل على شهادة الدكتوراه في الأدب المقارن والدراسات الثقافية من جامعة آركنسا في الولايات المتحدة. له نصوص منشورة في مجلات متعددة منها مجلة الكلمة الإلكترونية الشهرية، وفي مجلة الجديد اللندنية. وله كتابات نقدية منشورة في مواقع الحوار المتمدن، والناقد العراقي، ومجلة سبيل الإلكترونية.
يدرّس القصة القصيرة في كلية التربية جامعة الكوفة.

أين تمضي الفقاعة بعد انطفائها؟ ما الذي يحدث لقوس قزح الراقص منحني الظهر حولها؟

لا تفنى المادة ولا تُستحدث، كذلك الفقاعات لا تمّحي من الوجود بشكة دبوس أو فضول يد عابثة. ليس الرذاذ ما أتحدّث عنه، ليس الدهشة

التي تخلّفها فقط. بل هي نفسها، أين ينتهي بها المطاف يا ترى؟ من قال إن لحظةً تنطفئ إلى ما لا نهاية إن لم نكتبها. من قال إن عليك أن تتقن الغوص في ما وراء اللحظة لتصل إلى كنهها؟ أنا أؤمن بانتفاء الأسئلة الفارغة التي لا تبحث عن أجوبة. لا أريد أن أفهم شيئا بعد. يكفيني حِملُ عمرٍ من الأسئلة المربكة. تكفيني شكوكي التي تنمو باضطراد.

هل أعتزل الناس؟ ومتى عايشتُهم لأعتزلهم. فقاعتي مرنة جدا لدرجة تستعيد تشكّلها كلما اخترقها أحدهم. يحيطونني وأبحث عنهم لأدركها.

لكني أحس بملمسها وانكسارات الضوء عنها. تموجات أصواتهم الصاخبة من خلالها. لأيّ شيء أغادرها؟ لأيّ مخلوق أتنكر لرحمي الشفاف الذي يحنو عليّ منذ لفظتني أرحام الآخرين وأصلابهم. أعذر سخافة هذا السؤال. أتلمّسها كل لحظة لأتأكد من وجودها الحميم.

لا أملك إلا أن أفعل هكذا. أضيق ذرعًا بما كان مني قبل لحظة الكلام هذه. كل ما فعلته في حياتي ساذج حتى اللحظة. بما في ذلك جملتي السابقة تلك. يتنكّرالناس لفقاعاتهم باحثين عن خوازيق ومجسات تخرقها من كل حدب وصوب، يريدون المجازفة بما يملكونه من سكينة.

أعجب من إنكارهم لها. صحيح انها تنتن احيانا كلما اعتزلت الشمس في مخابئها. صحيح أن قشرتها تتيبّس أحيانا ولا تعطيك من الألوان إلا مشوهها ومن الريح إلا عصفها. صحيح أنّ تكسّرَ الأصوات فيها مربك لهدأتك المفترضة وأنت فيها. صحيح أن هشاشتها المخيفة تنبيك بلا حولك ولا قوتك.

صحيح أن دبوسًا عابر يفجّرها، وشوكة عارضة على هامش الحياة تخرق عزلتك فيها. إلا أنها كل ما بقي لديك. هي درعك الأخيرة، وهي حصنك الحصين. تعيد ترميمها كل حين وتحوك خيوطها الشفافة كعنكبوت هرم تقاعد من الصيد وأراد أن يحمي وحدته المقدسة من فضول الهاربين من فقاعاتهم. تستمر بطرح أسئلتك المتراكمة بعد كل هذا العمر.

تفكر افتراضًا في الخروج منها، تنتظر من الحياة أجوبة. نعم، هو الأمل الغرُّ الذي جئت إلى هذا العالم وأنت محمل به. هو الأمل الذي ما زلت تحمله ولا تملك سواه.

بالأمس أخذتني شوارع المدينة اليابسة إلى بركة ضوء يرقص ماؤها احتفاء بأولاد عابرين. مهذّبين جدًّا حدَّ احترام فقاعات الطفولة الملوّنة حولهم. كان طيف من الفقاعات الملونة يلفُّهم. كان مشهدا بهيجا لوّنَ صيف هذه المدينة الساكنة. لا أدري ما الذي جاء بي إلى عرضهم البهيج هذا، ربما كنتُ هاربًا من سجني كما كانوا يفعلون.

- لا تمسكها يا توم. انفخها فقط. الفقاعات جميلة جدًا. انظر كيف ينبغي أن يفعل ذلك.

هكذا بهدوء واحتراف مهذب ورشاقة مصطنعة راح الآباء ينفخون كرات الهواء التي يشكّلها صانع الفقاعات العجوز. راح الأخير يحرك عصيَّه الصغيرة التي تنتهي إلى حبل قطني قصير يربط العصي مع بعضها بعضًا من طرف واحد. يقطر الحبل ماءً ورغوة صابون بيضاء تلوّنها أشعة

الشمس البهيجة. يُخرج العجوز العصيَّ والحبل من من دلو مملوء بالرغوة يضعه على حافة الطريق. يخرجها فإذا هي فقاعة تسعى في هواء المدينة الساخن. يتلاعب الهواء بفقاعات الرجل صعودا ونزولا. يقترب إناء النقود الذي يضعه الرجل إلى جنبه من الامتلاء بالعملات المعدنية وأوراق العملة الصغيرة. يستمتع العجوز بعمله الذي يبدو أنه قضى حياته لا يفعل سواه. يبيع جمال لحظة عابرة لمن يريد. جمال هشّ، مؤقت وحميمي جدًا كما ينبغي أن يكون. يتجمع حوله أطفال من مختلف الأعمار مع ذويهم. يبيعهم دهشة طفل تربكه إمكانية يده البضّة على إطفاء هذا الجمال الراقص بمجرد لمسه. يفرح الأطفال وهم يطاردون الفقاعات الهاربة ليفقؤوها. يصرُّ الآباء على إطالة عمرها قدر الإمكان. لا يكترث الصغار بنصائح آبائهم.

- انفخها يا توم، توقفي عن الركض يا سوزي. ستؤذين نفسك هكذا.

يقف طفل عابرٌ وسط تقاطع طريقين أوقف حركة السيارات فيهما ازدحام مهرجان المدينة الموسمي. أراد مطاردة الفقاعات جميعا، أراد مراقصتها وفض بكاراتها. أراد استعادة دهشة الانطفاء ولذة قيادتها إلى مجاهيل النهاية. أن تنطفئ هكذا مثل فقاعة ينتهي عمرها بلا مقدّمات، أن تعيش لحظة الهشاشة هذه راقصا فوق رؤوس العابرين محلّقا فوق سقف خيالاتهم. أراد أن ينفخ جميع الفقاعات وأن يفجّرها. أراد أن يتسلل بغفلة من الزمن إلى إحداها لينطفئ معها إلى الأبد، أو لتطير به بعيدا عن شوارع المدن وما ألفه من الامكنة. ساءه أن تنطفئ الفقاعات هكذا بسرعة.

أسعدته انحناءاتها، تغنجها أمام الضوء وتكورها المرن. اقترب من الرجل الكبير. أخرج كل ما في جيبه من مال. وضعه في إناء النقود أمامه. كان مبلغًا كبيرًا، أوراقا نقدية مبللة وكأنها خرجت من حوض غسيل. ارتبك المارة وعلت همهماتهم. نظروا جميعا إلى الطفل الغريب بثيابه المتسخة.

كان يبدو كأنه قادمٌ من عالم آخر، ابتعد الأطفال عنه، نظر له البعض بشفقة خانقة. بدا كمتسول من مكان بعيد. ردّ نظراتهم بهزّة واثقة لكتفيه.

وسوسَ في إذن بائع الفقاعات قليلًا. هزّ الرجل رأسه. تجادلا وكأن بينهما معرفة قديمة. ترقَّب البعض ما ينتهي إليه جدالهما. أراد البعض استئناف العجوز للعبته، انصرف آخرون غير مكترثين.

- كيف يمكنك أن تقود فقاعة؟ كيف يمكنك أن تُسكن إحداها وتصنع أخريات يا سيدي؟
- عمَّ تتحدث يا ولد؟ لا يمكنك فعل ذلك. الفقاعات هشة، وأنت كبرت على هذا الكلام. قال الرجل وهو يختبر جدية محدثه.
- أنت تعلم أن بإمكاني فعل ذلك. أنت نفسك تفعله. أتريد إقناعي بأنك لا تمتطي فقاعتك في هذه اللحظة.

تلفَّت الرجل العجوز من حوله وهو يحاول إخفاء ارتباكه عن الاخرين بتمسيد لحيته البيضاء الكثة.

- تعال إلى هنا يا ولد. ما الذي تعرفه عن الفقاعات؟ من قال لك إن بإمكانك أن ترتدي فقاعة أو تتخذها مركبا؟ الجميع يعرف هشاشة الفقاعات..

- لأنني افعل هذا بالفعل. ألا ترى فقاعتي؟ فقاعات كل هؤلاء.

ارتبك العجوز وحاول إسكاته خوف تلصّص الآخرين.

- صه. أرى كل ذلك. لكن لا أحد يريد أن يصدّق. عليك ألّا تتحدث هكذا أمامهم. دعني أرى. ما المشكلة في فقاعتك هذه؟
- إنها قديمة صدئة.

قال وهو يتحسّس شقوق فقاعته التي لا يراها أحد غيرهما.

- لا أعتقد أنها تكفيني لبقية الطريق. ألا ترى سخونة المدينة وأشواكها الزاحفة على الأرصفة. ألا ترى ضجيج أناسها وتطفُّلهم وهم يخوزقون بعضهم بعضًا؟
- حسنٌ، اهدأ أولا. أرى كل ذلك. لكن أحدا لم يحدثني هكذا من قبل. كنت أظن أنني الوحيد الذي يدرك فقاعته. من الجيد أن يدرك آخرون ذلك.
- ظننت أن الجميع يدركون فقاعاتهم وقليل فقط من يعترف بها كما تفعل يا عم. عندما شاهدتك تلعب بالفقاعات وتصنع البهجة منها ظننت أنك تستطيع إصلاح فقاعتي أو إهدائي سواها. كنت أبحث منذ مدة عن صانع فقاعات حرّيف مثلك، جبت من أجلك البلاد طولا وعرضا، فلا تعدني خائبا بعد أن وجدت فيك ضالّتي.
- لك ما تريد، وفوق هذا سأحدّثك عن فقاعتي فلم أجد قبلك من ينصت إلى حديثٍ كهذا. تعرّفت عليها منذ عمر طويل. لم أعد أتذكر إذا كنتُ في عمرك وقتها. لكنني أدركت يومها أنها تهرم مع العمر.

حافظت عليها بالصمت والعزلة سنين طويلة. لكنها أنتنت. خنقتني أحيانا. وحرَّرتني أحيانا كثيرة. تحمّلتها طويلًا حتى نسيت أنني أسكنها أو أنها تسكنني. لكنني لم أعد أتحمّلها يا بني. ليس في العمر بقية. ولا بد مما ليس منه بد. لذلك امتهنت مهنتي هذه. أنا أصنع فقاعات أُرمّم بها عزلتي. أُلقي للآخرين أقواس قزح تلوّن وحدتهم. أُبيعهم ألوان جدرانهم وفضاءات سجونها. يغمرني الأطفال دهشة وأحلامًا ويخشخش الآباء جيوبهم معتقدين أن نقودهم البائسة هي غايتي.

- لكن أين تمضي الفقاعات يا عم؟ أين تمضي أقواس قزحها؟ طالما اتَّهمتُ السماء بسرقتها! طالما اعتقدت الهواء لصَّ أحلامها الملونة! ولماذا تشيخ وحولك الفقاعات هذه كلها، ألا تحميك جدرانها من عاديات الزمن؟
- لحظة يا بني. أين أهلك؟ هل معك أحد؟
- لا. لا أتذكر آخر فقاعة لفظتني. لكن كل هذا لا يهم. أنا الآن هنا. أمامك. علّمني. ألبسني إحداها. أريد هذه. ألوانها زاهية أكثر. ما الذي عليَّ فعله لأرتديها. كيف أقودها؟ أم تراها ستقودني؟ وهل سننتهي معًا أم..؟؟
- صه. انفخها إن شئت أو المسها بخفة. كل من يفجر فقاعة يرتديها. الفقاعات تختارك أحيانا. أنت تختارها. لا يهم. خذ هذه وانظر ماذا تفعل بها.

حرك الرجل الكبير عصيّه بكلتا يديه. أخرج الحبلَ من دلوِ الماء والصابون. طارت فقاعات صغيرة تَحلَّقَ حولها الصغار. لمعت حلقة الفضاء الصغير التي صنعها الحبل المبلل. هزّ الرجل يديه وهو يطوّح بالعصي إلى الهواء. أُغلقت حلقة الهواء الممتدّة، ثم تكوّرت أمام أنظار المارّة المتجمّدين. سخّنت الشمسُ الهواءَ داخلها، رقصت الفقاعة الكبيرة أمامي، لم أشاهد فقاعةً بحجمها من قبل. غيّرت شكلها مرارًا. رقصت، غازلتني بألوانها الزاهية. بلحظة تجمّدَ فيها الشارع والمارة والسيارات. خلعت فقاعتي القديمة وأنا أُداري عريي المربك أمام الآخرين. لم يكترث أحدٌ لما فعلت، لم يلاحظ أحدٌ شيئًا. طرقتُ جدار الفقاعة الراقصة أمامي بهدوء حذِر. رآني الآخرون وأنا أُتلف الفقاعة التي دفعتُ بها كلَّ ما أملك. سخروا جميعا من سذاجتي. سخر العجوز منهم وهو ينظر إليَّ بإكبار. غمزني بابتسامته الهرمة، ثم أشار الي برأسه:

- ادخلْ.

2018

قراءة في قصص ثيمة الفقاعة

إنّه لشرفٌ أنْ نكون هواء

فدوى العبود

- *الـرمز ابن الخـوف أم الـجمال؟*

في الخطاب الذي ألقاه «رولان بارت»، في أول درس له في الكوليج دي فرانس حين مُنِح كرسي السيميولوجيا؛ رأى في الرمز دلالةً جماليّةً وخروجًا على المألوف. لكن كونديرا الهارب إلى خارج الحدود – والعابر نحو الضفّة المخالفة للوطن- يرى في الرمز طريقة تمويه وفرار برغم جمالياته من ابتكار خيال ملاحق. كتب مرة «إنّ كوننا مطاردين، ولدينا تفاصيل دقيقة عن الشرطة في شققنا، علمتنا الفنّ العذب واللعبيّ».

يمكن أن ننظر لاختيار الفقاعة باعتبارها دلالة على معنى جماليّ، ولكن إذا توقفنا عند معاني الخفة (خفة الوزن الأنطولوجي للأنا) تأخذ منحىً وجوديّا.. ويصبح اختيار الفقاعة طريقة للهرب.

يكون الرمز أحيانًا وسيلةً لتمزيق الحجب والأسئلة التي تنبثق عن كل نصّ، وتساعد في هذا التمزيق لما كان مألوفًا لطول معايشته.

- *في عبارة لها دلالتها، يبدأ نص مروة ملحم من مشهد عنيف. وهذا العنف الرمزي، اللعبي، هو عنف ضد الذات أولًا وضد الآخر ثانيًا؛ وبهذا الوعد يبدأ نص «الفقاعة».. «بعد قليل ستسمعون صوتًا*

مدويًا.. إطلاق نار من مكان مرتفع في الفراغ». السارد هنا يروي لنا حكايته مع الأب المستبد، من خلال أمواج السرد الرهيفة تصبح الفقاعة سجنًا يمورُ بالغضب والعالم أصم! فلا أحد يسمع صوتها.

إنّ المقابل لكل محاولة طيران هو حفرة أو قبر؛ هذا قانون سنَّته القسوة وصاغه الجور البشريّ، وكل من يحاول امتلاك جناحين يسقط في حفرة!

البيت أو ربما الوطن أو العالم يغدو مع الأجنحة المقصوصة زنزانة كبيرة ويحتاج فيها القُساة أن يضاعفوا صورهم في المرايا! فهم مجموعة نسخٍ مكررة عبر العصور. في النهاية سنسمع دويّ الرصاصة وهي ليست سوى حركة الوعي المتقدم نحو حريته. رغم أن ذلك يحدث بعنف!

- *يبدو نص «الفقاعة» لعبدالفتاح المطلبي، محاولة لتضييق المسافة بين شعوره ولغته، تتعثر الفكرة أحيانًا في نصه لكنها تعاود النهوض، المعنى الذي يبغي قوله، يحتاج للقفز المعاكس؛ أقصد أن يقفز القارئ نحو الضفة الاخرى للغة. سنعثر في هذه القفزة على فكرة تتعلق بـ«فقداننا لهويتنا» أمام موظف بيروقراطي فنبدو كلنا فقاعات. إنها تبدو كتأملات شخص غاب لثوان في حلم يقظة. يبقى جمال السرد محاولة لإنقاذ الفكرة المرتبكة. إن جمال السرد هنا يحاول التقاط المعنى.*

- في «داخل شرنقة» لزكريا عبدالجواد. يبدو ثلاثي (الأوهام- التلاشي- الزوال) حاضرًا بقوة، رغم أن الحدث يبدا بطوفان، إذ يكتشف الناس أن فقاعة كبيرة تهاجمهم. وهي تحاصر القرية!

مالذي أراد قوله هنا؟

هل أراد الإشارة للتلاشي والوهم؟ لخرافات الحياة التي يعتنقها الإنسان المهزوم؟

للاستبداد؟

ربما كل ذلك..

ستتبدد الفقاعة بشروق شمس عفيّة، وتتحول إلى بخار؛ «وقفزنا تعبيرًا عن فرحنا الغامر بالحرّيّة، لكن طعم الملح لم يفارقنا».

- في «تاريخ فقاعة» لأحمد الخميسي من مصر، يبدو الرمز واضحًا في ما يودُّ قوله، فالمسؤول الذي ألمت به فقاعة غازيّة، هو فقاعة كبيرة لا معنى لها، ووعوده الغبية التي تقابَل بالتصفيق هي أيضًا هراء لا معنى له!

- رغبة في إيقاظ الطفولة النائمة:

في مجمل أعماله نعثر لدى «باشلار» على توق للبحث في ما وراء شعريّة الأشياء وما تثيره لدى كل روح! يَهَبُ باشلار لكل عنصر في الطبيعة دلالته. فهو يبحث في التحليل النفسي للنار، أو في اختيار الماء كعنصر أو مادة يسكب عليها الشاعر أو الفنان تأمّلاته، وفي كتاب بعنوان «شاعرية أحلام اليقظة» يطرح السؤال حول ضرورة العالم التخيليّ

للإنسان، بل إن هذا العالم بوسعه ابتلاع العالم الحقيقي، وهو يطلق على ذلك اسم «التأملات الشاردة» التي لا تتطلب إغماض العينين، وتختلف جذريًا عن عالم الأحلام الذي يتأثّر بتكوينها، وهي منبع عذب للشعر والفن.

في نظرية أرسطو حول المسرح: وظيفة الفن تطهير الانفعالات. لكن يمكن إذا وسّعنا زاوية النظر أن نرى أن الكتابة في جانب منها هي احتفال بالإيقاظ. «فعل إحياء الذكرى» لا للتحرر منها على طريقة فرويد بل لمنحها «معنىً وجوديّا وجماليا»، فما الذي يجعل رائحة هري الشعير في بيت طفولتي التي كنت أمقتها في الصغر منبع قصيدة أو لوحة أو حالة شعريّة في وقت لا حق؟

تنبثق القصص هنا عن تأملات وتُنفَخ بمادّةٍ حلميّة، متتبعةً أثر الطفولة.

- يبدو السؤال واضحًا عن الوزن الأنطولوجي للأنا في «داخل فقاعة» لسوزان الصعبي. فهنا ثمة حدث أوليّ هو شعور الطفلة بالإهمال والخزي الذي يتحول إلى رغبة في التلاشي، إنها حساسيّة الطفولة العاليّة الأوليّة لأحداث مؤلمة، ستسم الروح ببصمة خاصة وتطبعها بأحلام يقظة تدور كلها حول الاختفاء.
- يحتفي أيتالو كالفينو في نص «دخان وريح وفقاعات صابون» ببراءة الطفولة فتظهر الطفولة جميلة سيكولوجيًا، «هذا الجمال هو فينا في قعر الذاكرة»، ويخترع حكاية مناسبة لإيقاظها فينقلها من إطار التخيلي إلى الواقعي ويهدم الحدود بينهما، فيضفي على الحدث

اليومي صبغة حلم يقظة. إن انتماء الجمال البدائي إلينا قوي إلى درجة أن توقظه دعايات المنظفات، التي تتحول عبر براءة طفوليّة من وسيلة كسبٍ إلى حلم يعمل على تحرر الطفل فينا من أسر الراشد، وكأنّ الطفل فينا نائم ينتظر أبسط حدث لإيقاظه! من منا لم يجرب لحظة انتباهٍ كهذه؛ الارتماء بين الأمواج، الركض في مكان جميل، أو ركوب أرجوحة! ومع أن دخان المصانع سيغمر كل شيء بالسواد، لكن أيتالو كالفينو يريد التمسك بهذه اللحظة. أليست الابدية تجمع لحظات جميلة ومتناهية الصغر!

- تُشكّل قصة «العاصفة» لسعد هادي ترجمة فعلية لجماليّات حلم اليقظة، وقد اختار لها مكانا في البار -البار يشكل بيئة حلمية مثالية- كما أنه يمنح السارد حصانة الثمِل الذي يرى ويتخيل ما يرغب فيه! يتحول المكان إلى مساحة لعب طفوليّ؛ فالفقاعات ترتطم بالأرض والسقف، وهي تتصاعد من قدح البيرة ومن حوض الزهور، ومن ثوب الفتاة. يمسك السارد بهذه اللحظة بكل جمالها وهي أيضًا تنثال من الثريات ومن المروحة. لكن للحظة ظن أنها ستنفجر وتصبح ضحكًا لا نهاية له، هذا النسيج الغامض لا يحتوي في داخله على شيء، وهو شبيه بالحياة التي تشبه بدورها بارًا تُحلّق في سمائه الفقاعات.

تأخذ الفقاعات في نصه شكلًا لعبيًا، ثم غامضًا حزينًا. لنقرأ التالي:

«رفعت حقيبتها الصغيرة، وأعادت الخصلة النافرة إلى ما كانت عليه؛ ثم

نهضت واتجهت إلى الخارج. حاول الشاب أن يقول شيئًا، أن يمسك بثوبها، أن يقتنص زهرة وحيدة باهتة يأخذها كتذكار؛ لكنه لم يجد بين أصابعه سوى فقاعة مترهلة تعيده إلى مكانه وهذه إشارة للفراغ واللامعنى» . .

- عن الفقاعة والرغبة الموؤودة.

«تسير النساء الميتات محاطات بشيء كفقاعة، من حوائط غير مرئية، حين تتمتع بقدرة الشعور بهذه الفقاعة، ستتعلم تمييزهن» هل يمكن لسطر بسيط أن يثير قضية بهذا العمق والبعد: وهي التمييز بين الحقيقي والمزيف بين الوجود الأصيل والوجود الكاذب؟

بهذه العبارة يفتتح نص «الميتة» لخوان خوسيه مياس، وهو يبني جدارًا بين عالمين، عالم الأنا الحقيقي، وعالم الأموات، حيث تسود التمثيليات والمسرحيات الهزلية.

لنقرأ المقطع التالي في وصف شخص ميت الروح حيّ الجسد: «لا بد أنه يتحرك بالطبيعة نفسها بين الموتى ولأحياء، هذا الرجل كان يتصرف برشاقة مذهلة، وكان يعرف في أيّ لحظة يجب أن يزرر أو يفك زرَّ الجاكيت، ومتى يمرّر إصبع السبابة على طرف شاربه، كما يعرف التقاط فتات الخبز كأنه يلتقط فكرة، وعند خروجهما من الحانة، عانق خصرها وشدها ناحيته بعنف، حتى إنه لم ينتبه إلى الفقاعة، حينئذ، انصرفتُ عن مطاردتهما ولدي فكرة رومانسية تقول إن الحب يكمن في إنقاذ الآخر من الموت، وقررتُ أن أنتظر فرصتي» . . .

«يقال على تخوم الشعور واللاشعور تنبت المأساة».

إذن هناك موتى يتحركون بيننا، موتى أرواح، موتى أفكار.

أشخاص غشاشون تقليديون، آليون، لنرَ كيف تأتي الفرصة لهذا الشاب الساذج؟ لقد حاول الاقتراب لإنقاذ فتاة احلامه من الفقاعة لكنها لم تستجب! إنه سؤال عن الحب الحقيقي والحياة الحقيقية والعلاقات التي يكون بعضها كالجثة، حتى إن العدوى انتقلت إليه ولن ينقذه إلا امرأة حية. إنه نصٌّ وضّاء..

فما حاجتنا لأيّ نص إذا لم تتفتح بَتلَة جديدة في وردة أعماقنا، أو يشعل نورًا في ليل الروح!

- في «جامع الفقاعات» تنسج ليلى عبدالله قصة حب، فتاة تطلب مهرًا من حبيبها؛ ما يضطره للرحيل، لكنّ الرحلة التي استغرقها جعلتها تموت حزنًا عليه، ثلاث فقاعات هي غنيمته: صوت شلال، ورائحة تراب، وصوت فتاة عاشقة. ما الذي يتبقى بعد الرحلة؟ لقد تحوّلت فكرة الفقاعة إلى حكاية عاطفية رومانسية حالمة تظهر فيها صعوبة الوصول في الحبّ.
- يرتدي السارد عند غياث منهل «الفقاعة» وهو ينتقل من الحديث عنها والتساؤل عن مصيرها إلى الرغبة في ارتدائها. فكل شخص يسكن فقاعة غير مرئية، وهي وسيلة لترميم العزلة، أو للحفاظ على الصمت. يطرح النصّ سؤالًا: هل الفقاعة هي أحلامنا التي تمزقت والتي التي دفعنا فيها كل ما نملك؟

والآن..

ألا يُحتمل أن يرتدي الخائف من الموت فينا فقاعة الشهوانيّ النهم؟

الجشع فقاعة للحماية من الفقدان!

الكذب فقاعة لحماية الضعف!

كتب نيتشه مرة: «إذا أردنا أن نبني أسلوبًا مطابقًا لبنية روحنا، فيجب تصوره على صورة المتاهة». لقد تاه نيتشه وأُصيب بالجنون، والجنون توهان سببته شدة الرؤية!

ولكن ماذا يعني هذا الهرب إلى الفقاعة؟

يُطرح سؤال هنا عن الوزن الأنطولوجي للأنا المحبوسة في فقاعة!

هذه السؤال وغيره يحتاج إلى قراءة لجماليات الهشاشة وجماليات الطفولة والخفّة تتألق في هذه النصوص، الفقاعات بكل إشراقها الثرّ (جليّ الوضوح) وهي تحوي فوق سطحها الأملس مادة من كوكب الشمس تتسم بـ(الزوال، الإشراق، والقابلية للإعتام). لإغلاق القوس ربما تنقذنا عبارة ألين بوسكي «إنّه لشرف أن نكون هواء».

الثيمة الخامسة

الأحلام

اقترح هذه الثيمة الأديب العراقي: **زهير كريم.**

وهو أديب عراقي من مواليد بغداد 1956، هاجر إلى الأردن عام 1993، ثم تنقل بين مدن كثيرة حتى استقرت به الحال في بروكسل عام 2002.

خريج آداب لغة عربية.

له إصدارات عديدة: «قلب اللقلق» رواية 2010، «صائد الجثث» رواية 2014، «ماكنة كبيرة تدهس المارة» قصص 2017 (القائمة القصيرة لجائزة الملتقى للقصة العربية القصيرة)، «فرقة العازفين الحزانى» قصص 2018، «رومانتيكا» قصص 2019، «غيوم شمالية شرقية» رواية 2020.

(1)
غيمةٌ على تلّ

زهير كريم

حلمتُ ذاتَ ليلةٍ بأنني صرتُ غيمةً، نعم غيمة، وهذا لا يبدو غريبًا مادام متوافقا مع فكرة العزلة التي أُفضّلها أحيانًا، إذ يبدو المرء خلالها ناصع الوجود وهو ينزع القناع، تاركًا للهواء العبث قليلًا ببراءته المتوارية، فتظهر الابتسامة نزيهة، والعينان مسترخيتين على مسطرة الأفق، والقلب ينبض بايقاع شعريّ، والجسد يأخذ حيّزًا كأنّ العالم يخلو من الانحناءات.

وفي الحلم كنت منفردًا تحت سماءٍ صافيةٍ، أجلس على التلّ فأبدو مثل لحيةٍ بيضاء، أو مثل حفنةِ قطنٍ في فضاءٍ أزرق، لكني حين أفتحُ فمي أبدو مثل تيسٍ منشغلٍ بقضمِ العشب الذي على التل.

مرتْ طائرةُ ركاب، شاهدتُ من النوافذ الزجاجية الصغيرة وجوه المسافرين، وسمعتهم يصيحون: «يا للروعة، هل هذه غيمة أمْ لحية بيضاء، أم تيس أبيض يقضم العشب؟». مرَّ تحت التلّ صيادان في قاربٍ صغيرٍ، لم ينتبها لي، كانا يثرثران ويدخّنان باسترخاء غبي. مرّ سربُ لقالق وسمعت صوتًا متناغمًا، شيء يشبه التحية ربما، قبل أن يواصل السربُ رحلته إلى أرضٍ أخرى.

وفي الحقيقة كنت سعيدًا جدًا بهذا التحولّ، لكنّ شعورًا بالترهل كان قد غمرني فجأة. درجة الحرارة بدأت تتصاعد، وخيوط الشمس اخترقت ظهري. مرَّت دراجة هوائية على طرف البحيرة، كان صبيًا يلبس قبعة من القشّ ويغني بصوت يشبه ثغاء نعجة. لكني كنت على وشك التفتُّتِ لحظتها، تماسكتُ ولم اضحك، لأني أريد التفرج أكثرعلى العالم، تماسكت بصبر حمار، وما أرعبني هو أن أتساقط في البحيرة أسفل التل. ربما سقطتْ قطرات مني على رأسي الصيادين، سيمرران أكفهما الخشنة، أجفّ فيبتسمان وينفثان الدخان كأن العالم لايستحق أكثر من نفث الدخان.

المشكلة أني لا أجيد السباحة، هذه الفكرة مرعبة حقًا، فأنا لا أحبُّ على كل حال أن أتناثر قطرة قطرة، هذا الأمر يبدو مثيرًا عندما يتعلق بالشِعْر، لكنه معقدٌ عندما يتعلق بفكرة أن يجمع المرء نفسه التي تحولت إلى قطرات، ليعيد تشكيلها مرة أخرى على شكل غيمة.

وكنت أثناء ذلك أركل بقدمي، أحرّك يدي بتوترٍ كما لو أني أقاتل الهواء والضوء، أو أنني كنت أقيم في تلك اللحظة علاقة مثالية بين الرغبة المبتورة وخطاب الوجود القاسي. في داخلي جملة تشبه سائلًا مرًا: إنها نهايةٌ لم أحسب لها حسابًا. قلت لنفسي وأضفْتُ بأني لا أريد أن أذوب، وهذه جملة أخرى مجردة من كل شرط، رغبة أصلية، نعم، أريد أن أكون غيمةً منفردة على التل وحسب، أراقب العالم وأضحك، لا أريد أن أتلاشى، فيتوقف الطفل الذي يقف خارج الكوخ عن الإشارة باصبعه

الصغير إلي، لا أريد أن أُفسدَ لوحة البنتِ أخته التي كانتْ ترسمني بألوانها المائية. وفي النهاية كل ما أطلبه هو أن أظلّ لبعض الوقت على التل، غيمة وحيدة مثل لحية بيضاء في فضاء أزرق، غيمةً ليس أكثر من ذلك، ولا أريد أن أكونَ رجلَ دينٍ بلحيةٍ طويلة، ولا ملكًا بتاجٍ يقف في الشرفة العالية ينظر للشعب من الأعلى، ولا تاجرًا يعرض إعلانا لبضاعته المزيفة، ولا عاملاً متعبًا لا يعرف أن نسخة الحياة التي يعتمدها ليست أصلية. لا أريد أن أكون جنديًا أيضا بعينين مجهدتين في برج الحراسة، ولا شاعرًا أو حمارًا، حتى لو كان حمارًا أبيض، أريد أن أكون غيمة على تلٍّ مثل تيس يقضم العشب، يراقب الطيور ولا يبكي، لانه حين يبكي يتلاشى. أعرف هذا الشيء، ولا أريد أن أكشف عن نفسي لهذه اللحظة باعتباري شخصًا يحب العزلة، وهو يحلم الآن بأنه غيمة. أنا رجلٌ لايستطيع أحد في النهاية إجباره على الذوبان. لكنها الحرارة وخيوط الشمس التي اخترقت ظهري، ولا حل سوى أن أخرج من الحلم، أعتبر كل هذا تجربة فريدة، تجربة أن يكون المرء غيمة في عزلته المفضلة، يتفرّج على العالم من على التل، فيبدو لهم مثل لحية بيضاء، أو تيس أبيض يقضم العشب.

2019

(2)

رانيــة

هبة شريقي

كاتبة وشاعرة سورية، طالبة في كلية الآداب والعلـوم الإنسانية/ أدب إنجليزي. تكتب الشعر والقصة القصيرة وأدب الطفل. تعمل في مجال التدقيق اللغوي والتحرير في عدد من دور النشر العربية. لها نصوص منشورة في عدد من الصحف والدوريات العربية منها: الشارقة الثقافية والعربي الصغير.

تعلّمتُ الكلام باكرًا، هكذا تقول أمّي. وابنةُ خالي (رانية) التي تكبرني بعشر سنوات تشهَدُ على ذلك. كانت طفلةً بقوامِ أنثى شهيّ وعاطفة بالغة وشهيّة أيضًا، وكنتُ لعبتَها (أمّ لسان) كما كانَتْ تناديني وتضحكُ بعدها.

كان عمري ثلاث سنين عندما سألني البقّال مُلاطِفًا:

- ما اسمك يا عمّو؟

فأجبتُه بعد ثوانٍ من التّفكير:

- رانية.
- اسم جميل مثلك. وكم عمرك؟

وبسرعة أجبت:

- تلَطّعش

ضحك البقّال كثيرًا وحمَلني وقبّلني على وجنتَيّ وهو يقول: «صبيّة ما شاء الله!».

ثمّ أنزلني من حضنِه وقال:

- إن أخبَرْتِني ما هو حلمك عندما تكبرين، سأعطيك هذا. (وأشار إلى كيس بطاطا مقرمشة ولذيذ).

وبينما كنت أمسحُ آثار قبلاتِه بطرَف كُمِّ سترتي، وقفتُ أفكّر في جوابٍ للسّؤال الذي لم أفَهمْهُ، ثمَّ هرعْتُ إلى رانية أسألها:

- رانية! رانية! ما هو حلمي؟

ضحكَتْ كثيرًا وحملَتْني وقبّلَتْني على وجنتَيّ وهي تقول: «أم لسان! ألَا تعرفين ما هو حلمك!».

ثمَّ أنزلَتْني من حضنِها، جلسَتْ أمامي وبدأتْ تشرح لي معنى هذه الكلمة اللامعة، ودون أن أمسح آثار قبلاتِها، جلسْتُ أراقب شفتيها الممتلئتَين والورديّتَين.

أعطتْني أمثلة، قالتْ:

- مثلًا، حلمي أن أنجِبَ ابنةً مثلك، حلمي أن أصبح مغنِّية مثل «نجاة الصّغيرة»، حلمي أن أسافر إلى باريس مع حبيبي، حلمي أنْ..

قاطعتها:

- لماذا لا تُنجِبين ابنة مثلي؟

- لأنني لست متزوّجة، ثمّ إنه لن يكون هناك أحد مثلك في العالَم.

- ولماذا لا تُصبِحين مغنِّية؟

- لأنّ خالَكِ لن يسمح لي.

بتَململٍ:

- لماذا لا تسافِرينَ إلى باريس مع حبيبك؟

- لأنّه لا يملك النّقود الكافية.

ثمّ حملَتْني في حضنها وقالت:

- والآن! ما هو حلمك يا أمّ لسان؟

وبسرعة أجبتها:

- حلمي أن أصبح جميلة مثلك.

وكأيّ إنسان، كلّما كبرْتُ كبرَتْ أحلامي وكثُرَتْ. علّمتْني رانية الرّقص باكرًا، وأصبحتُ بارعةً فيه، حلمتُ بأن أصبح راقصة، ينتابني هذا الحلم من حين إلى آخَر حتى اليوم. كبرْتُ ودخلْتُ المدرسة، حلمْتُ بأنْ أصبح مُعلِّمة، وعندما مرضْتُ حلمْتُ بأن أصبحَ طبيبة. في البيت، أمام التّلفاز، كنتُ أحلم بأن أصبح ممثّلة كلّما ظهرَتْ «عبير شمس الدّين» تلوّح بشعرها راقصةً في مسلسل «عشّ المجانين». أمام التّلفاز أيضًا، كنتُ أتسمَّر وأشعُر بالرّهبة حين أتابع برنامج «أمير الشّعراء»، لم أكن أفهم شيئًا

ممّا يقوله الشّعراء، لكنّ أسلوبَ إلقائهم كان يحثّ شيئًا ما في داخلي على قول شيءٍ ما، فحلمتُ بأن أصبح شاعرة.

عندما بكيتُ لأنّي لم أحقّق حلمي بقضاء عطلة الصّيف على الشاطئ، قالت لي رانية:

- لا تتحقّق كلّ الأحلام.

ثمّ قرأتْ لي رسالةً كتبَها حبيبُها لها، يقول فيها:

«أحلم بأن نعيش في جزيرة لا يوجد أحدٌ فيها سوانا». وضحِكَتْ:

- هذا حلم غير معقول، فلن يتحقّق بالنتيجة، لأسباب عدّة.

وأخذَتْ تشرحُها، قاطعتُها كالعادة:

- ماذا عن الأحلام المعقولة؟ لماذا لا تتزوّجان؟

- لأنّ الأمر غاية في الصّعوبة.

كبرْتُ أكثر، كبرَتْ أحلامي، انتقلْتُ فجأةً من مرحلة التّعليم النّظريّ إلى مرحلة المواجَهة العمليّة مع الحياة.

حلمْتُ بأن أتزوّج الرَّجُل الذي أُحِبُّه، وعندما فقدْتُ الأمل، كتبْتُ حول ذلك قِصّةً جعلتُهُ بطلَها وعشْتُ فيها دور الزّوجة لمدّة ثلاث سنين، ثمّ دفنْتُه في القِصّة نفسها وتابعت حياتي.

حلمْتُ بأن أبني مشروعًا هائلًا بأقلّ التّكاليف بحسب مقدرتي الماديّة، وكان ذلك ممكنًا جدًّا لو لم تندلعِ الحربُ في بلادي وتسقط العملةُ سقوطًا ما بعده سقوط. فقدْتُ الأمل وكتبْتُ قِصّةً لعبْتُ فيها دور

سيّدة أعمال ناجحة، نُهِبَت كلُّ ثروتها، فعادَتْ فتاةً عاديّةً مثلي، تبني مستقبَلَها حلمًا تلو حلم، وتروي أحلامها قِصّةً تلو قِصّةٍ. وتابعْتُ حياتي.

وهكذا، كنْتُ كلّما فقدْتُ الأملَ بحلم ما، أكتبُ عنه.

أمس، سمعتُ أنّ رانية البعيدة، التي تسكن مع زوجها وولديها في قريةٍ لا تُحِبُّها، أُصيبَتْ باكتئاب حادّ ومُزمِن، سمِعْتُ أنّها لا تستجيب لنداء أحد ولا ترغب في التَّحدُّث إلى أحد. حلمْتُ لو أنّني طبيبة نفْسِيّة، أو فيلمٌ هنديّ يروق لها، أو حكواتيّة تُشعِرها قصصي بشيء ما أو تُعلِّمُها شيئًا ما.

وعندما فقدتُ الأمل، وجدتُني أكتب هذا.

2018

(3)
أيام الأمس

مهند الخيكاني

كاتب عراقي، عضو اتحاد الأدباء والكتّاب في العراق، خرّيج كلّية الآداب/ الجامعة المستنصرية، خريج المعهد الطبي التقني/ باب المعظّم. شارك في العديد من المهرجانات والتظاهرات الثقافية. تُرجم بعض نصوصه الى الإنجليزية. صدر له: «يرمي الحياة من النافذة»، شعر.

في الآونة الأخيرة طرأ أمرٌ عجيب تسلّل إلى حياتي دون مقاومة تذكر، وعلى غير المعتاد كان يبدأ من لحظة ارتداء نظارتي الطبية السوداء، ذات الإطار البلاستيكي والعدسات المدوّرة الشبيهة بعيني بعض السيارات المؤنسنة، وأغطّ بعدها في نوم عميق.

تقول زوجتي: «كل ليلة تشخر مرتين حد الاختناق وتشهق شهقة غريق، ثم تستمرّ في نومك السلس السريع مثل قطار الرصاصة».

أهملت في الأيام الاعتيادية استخدام نظارتي، لم تعد الحاجة اليها ملحّة، يمكنني ببساطة التكيّف مع الرؤية المضبّبة، والأجسام الشبحية، والأصوات المهموسة، لا حاجة إلى العينين لأجل القراءة والكتابة، وتأدية النشاطات الأخرى، يكفي أنني أتماهى مع نظارتي وأغطّ في النوم. وهناك في عالم الأحلام والكوابيس حيث أفضّل أن أعيش الحياة من الجهة الخلفية للصور المتوالية للحياة، أرى كل الأشياء التي أرغب في رؤيتها دون مجهود واضح، بل يصبح بإمكاني رؤية اليوم السابق الذي لم أره جيدًا في صحوي، مبتدئًا الأحداث من زرِ التشغيل الصباحي مع فرشاة الأسنان، إلى وجبة الإفطار التي لا يهمّ إذا ما كانت وجبةً شهيةً أو مريعة. المهم عندي هو الشاي لا غير، فهو شرابي السحري في هذه الفترة الزمنيّة. يعقب تلك البداية المملّة القيام بواجبات الزوج، إذ يُشترط عليّ تأدية تلك الوظيفة بالحركات البطيئة والممعنة دون تلكؤ أو تقطّع وإلا فلن تمرَّ الليلةُ بسلام، ثم يحين دور واجبات المنزل، ثم احتياجات الأطفال، إلى أن يجيء وقت المساء، أكون قد أُنهكت تمامًا وعدت من عملي من الدكّان الصغير المتشكِل على هيأة كرفان مزدرع في مقدمة المنزل. أختتم اليوم بفرشاة الأسنان كما ابتدأتُه، أترك بعض التعليقات القاسية للإهمال الذي يغزو وجهي، عبر خطوط وألوان التعب الزرقاء والسوداء والصفراء في البقع الصغيرة، التي تشبه محطات تستقر فيها وتتجمع إحباطات الحياة والأحلام المسنّة التي فقدت بريقها. وبينما أراقب الأمسَ من وسادتي المنتفخة بالريش عبر نظارتي العاكسة للضوء بنسبة ٢٠ في المائة، أسرق

بعض الوقت لنفسي، وأغيّر تفاصيل اليوم الذي مضى، أضع الأطفال في حديقة مسيّجة بالحيوانات الأليفة، وأُرسلُ الزوجةَ إلى الحمام كي تؤدي مهامها الشهرية في ترطيب الجسد وتقشيره وترميمه وتعطيره وتقليم الأظافر وتسريح شعرها، وأبدأ أنا بالكتابة فهي الوسيلة الوحيدة التي تشعرني بالاكتمال، في هذا النقص الطازج الأبدي الذي طغى على حياتي منذ سنوات. وإذا مللت أو تعبت من الكتابة، أُخرِج فلوس الدخل وأقيمُ حفلًا لعدّ الأوراق النقدية ومصادقة بعضها المتسخ بالأحبار والأصباغ والتواقيع، وأحيانا كثيرة أتوقف عند الأوراق النقدية التي تعرضت إلى نكبة؛ إذ إنها فقدت طرفًا من أطرافها أو تعرضت للانهيار في الغسّالة. وأضحك من الموقف الذي يستغل فيه الناس من الجيران خصوصًا، ضعف بصري لتمرير هذه النقود، كما أنني خبير في تمييزها بشكل يخيفني، إذ إنها أكثر النقود التفافًا وانقلابا والتباسًا بين الباطن والظهر، وأرى أنها تحمل مصيرا لا يختلف عن مصيرنا، فنحن مُستخدِمون منذ ولادتنا ومجيئنا إلى هذا العالم، ومستخدَمون أيضا، يتبادلنا الناس بالمواقف والأحداث، حتى تغدرنا الأيام، وترهقنا مقاومة الزوال، ويحين وقت استبدالنا بعملات جديدة ناصعة الجلد والقلب، تملؤها الطاقة والطموح للتمدد والتمثل في الوجود الفسيح.

بقيت على هذه الحال في مزاولة نشاطاتي الحياتية المرافقة لكوني كائنًا حيًّا يعيش في ظروف اجتماعية من الرياضيات المعقدة، تتحكم فيها الفانتازيا من الداخل، فهي طريقتي المريحة في قبول العيش وتحمّل فكرة

الواجب والمسؤولية والانسلاخ من أبدية هذه الفكرة المزمنة كما لو أنني سجين بعقد غير مؤقت.

وفي أحد الأيام كنت قد أتممت نهاية اليوم كما ينبغي لرجل يدرك مشقةَ أن يكون صاحبَ عائلة، ويفيها حقها، وحان وقت النوم.. بحثت عن نظارتي كما اعتدت دائما، وقت أرغب في النوم، فهي بعد كل شيء مفتاحٌ نفسيٌّ للولوج إلى عالم الأحلام الوديع البارد والهادئ، حيث أصمّم الأحداث على مزاجي، وأقنع نفسي بأن حاجتي إلى النظّارة في الأحلام أعمق من حاجتي إليها في حياة الواقع؛ فليس هناك ما يريح النظر فيه. ولهذا السبب تحديدا تأقلمتُ مع ضبابية الرؤية الواقعية، وكنت قد بدأت أتفنن في تحديث الأيام المستعملة، مختصًا بأيام الأمس. لكنْ دقّ المنبّه فجأةً ثم سمعت زوجتي تنادي: «استيقظ، فاتك الإفطار والدكّان لا يزال مغلقًا والجيران صاروا يدقّون الباب». استغربت ذلك صراحة، لقد كنت أنوي النوم قبل ثوانٍ قليلة، كما أنني كنت أبحث عن نظارتي، هذا ما قلته لزوجتي.

ضحكَتْ ساخرةً مني، مدتْ يدها إلى وجهي، سحبتِ النظارة، ووضعتها في يدي. لم أفهم حينها ما الذي حصل بالضبط. لكني مع ذهولي وشعوري بكدمات الإرهاق تملأ جسدي وطعم المرارة يفور في فمي، قرّرتُ ممارسة يومي كالمعتاد، وما إن تحركتُ خطوة حتى شعرت بخفة نقية، اختفى معها الشعور بالتعب، ذكّرني هذا الشعور بالأوقات التي كنت أحلم فيها، وأتخلّص من أعباء الحياة قليلا،حفّزني ذلك الإحساس

الذي أُحبُّ وطالما اعتراني في عالم الحلم على أن أمارس مهارتي المتقنة كنوع من التدريب الذهني، فاخترت لزوجتي برنامجها المفضّل على التلفاز، وانتشلت من مخيلتي فكرة صنعِ حوضٍ للسباحة على هيئة فيل، حيث يلهو أطفالي في بطن الفيل، ويرشّهم من خلال خرطومه بالماء، وبهذا يتركون أمهم وأباهم قليلًا. لكنّي فوجئت بأن كل ما فكّرت فيه على سبيل التدريب، تجسّد أمامي بلمح البصر، وقد هالني ما رأيت وأُصبتُ بالذعر. لذا كان لا بد من التأكد، فأعدت الكرّة، واخترت نقل المنزل على شاطئ دجلة، فالهواء عذب هناك، والبساطة فيه آسرة وليس سوى المتنفذين من رجالات السياسة والقدامى جدا من يملكون أرضًا أو قصرًا هناك. أزحت الستارةَ، وألقيت نظرةً عبر النافذة المطِّلة على الشاطئ، وفوجئت مجددا برؤية أسراب من النوارس تُحلّق، والسيارات تترك خلفها صوتًا أثناء عبورها الجسر القريب. ضحكتُ بسعادة أولا ثم ضحكت بحزنٍ قاتم يدلُّ على الانهيار في ما بعد، إذ إنني لم أعد أعرف: هل أنا مستيقظ وهذا هو الواقع أم أنني ما زلت نائما! ثم أين اختفت نظارتي؟

2020

(4)
علبة الأحلام

غفران طحّان

كاتبة سورية، حاصلة على شهادة الماجستير في اللغة العربية وآدابها.
صدر لها: «كحلم أبيض» قصص 2009، «عالم آخر يخصني» قصص 2014، «حلم يغفو على مطر» نصوص نثرية 2016، «أزرق رمادي»، قصص، 2020.

نادرًا ما أسمح لنفسي بحلمٍ عفويّ، فكلّ أحلامي مرتبة ضمن قائمة أُحضّرها، حتّى الكابوس، كان له وقته الذي أحدده أنا، وحدها ردّة فعلي تجاهه كانت عفوية، رغم معرفتي المسبقة به.

أفتح خزانة الذاكرة، وأختار للحلم مكانه، مقاسه، زمانه، وأبطاله، أحيانًا كنت أُخرجني من حلمي، وأتركني محض متفرج على تلك الشخصيات التي أخترتها أبطالًا لذاك الحلم، لا أنكر أنّها كانت تفاجئني أحيانًا، فتمدّ يديها إليّ وتجبرني على التدخل في الحلم.. مرّة سحبتني جدتي من ركني المعتم في حلم جمعها مع جدي الذي لا أعرفه، ولكنها

أجبرتني على تقبيل يديه، وقام هو بالمقابل بوضع عقد من الذهب في رقبتي. على الرغم من إعجابي بذلك العقد، إلا أنّ والدتي قالت الذهب في الحلم تعب! لا أدري كيف تسلل الذهب إلى حلمي، على الرغم من كرهي له في الواقع..

نادرة تلك الحوادث التي اقتادني فيها الحلم صوب ما يريد هو..

وكنت نادرًا ما أصحو مستاءة منه، أو غير واعية بما حدث فيه!

أستيقظ الآن من حلمٍ مفاجئ، لم أعد منذ الحرب قادرةً على توضيب الأحلام كما كنت أفعل، مهارتي في الاختيار فقدتها، كما فقدت عددًا كبيرًا ممن أحبّهم، مع أنني اليوم بحاجة ماسّة لتلك القدرة العجيبة، أكثر من أيّ وقت مضى..

مرةً نجحت في اختيار الحلم، ولكنْ بعد طقوس متعبة ومرهقة منعت نفسي من فنجان قهوة آخر الليل، واستبدلت به كوبًا من الأعشاب الزهرية، قليلًا من البابونج وبعض وريقات من الحبق، زهرتي أقحوان، ووريقات من إكليل الجبل، وقليلًا من الختمية والياسمين، وأزهارا برية، لم أحفظ أسماءها جميعًا، لست كجدتي ماهرةً في معرفة روح تلك النباتات. شربت ذلك الكوب مع ملعقة من العسل وحبة البركة، خليط عجائبي بنكهة ورائحة مثيرة للقلق، ولكنها بجميع الأحوال رائحة زكية.. لم أستسغه مباشرة، لكنه جرى في حلقي بعدها بسهولة، وربّما بمتعة لدرجة لم ألحظ معها الرصاصة الطائشة التي اخترقت سور الحديقة

وهوت أرضًا، إلى أن قال لي أخي: «لقد كدتِ تُقتَلين، يبدو أنّ هذه الأعشاب التي تشربينها مسكرة!».

بعدها وضعت قطنًا في أذني، واستسلمت لنوم طويل، لا حلم فيه، كدت أصحو على خيبة اللاحلم، وهذا النوم الطويل الهادئ، لولا أنّ من خططت للقائه، قد فتح بوابة قلبي في اللحظة الفاصلة قبل الصحو، دخل الحلم، وأمسك يدي، ودعاني لرقصة فالس، كنت قد تدربت عليها طويلًا لمثل هذه اللحظة. كان الانسجام سيّد الحلم، لولا أني دست على قدمه، واستيقظت..

على الرغم من عدم إتمام الحلم، وخروجي المبكر منه،فإنني شعرت بالفرح لنجاحي في اختيار الحلم مجددًا!

***

مرّ شهر على تلك الحادثة، ومازلت أخطط كلّ أسبوع لإكمال الحلم الذي بدأته، أسعى للاعتذار منه، والهروب من حلبة الرقص ليتبعني نحو حديقة بيتنا، لنحتسي القهوة معًا، ونكمل حديثنا الأخير الذي انتهى بخلاف مازال مستمرًا حول تسمية ما نعيشه الآن، حربًا أو ثورةً أو أزمة، كنت أصرّ على مفردة حرب، بينما كان مصرًا على أنّها ما زالت ثورة..

مازلت رغم خوفي الكبير أضع له قلبًا كبيرًا على ما يكتبه في الفيس بوك، ولكنني أعلّق بما يزعجه، فأنتشي لخلاف يدفعه لدخول الغرفة الداخلية

والنقاش الذي ينتهي دومًا بقبلةٍ افتراضية، ودعوة للعشاء أو فنجان قهوة قرب القلعة!

ولكنّ قبلتنا الافتراضية سقطت في آخر خلاف خارجًا، ولم يعد لها حضور في زخم غضبه العارم، تركت له قلبًا معلقًا، ولم يفتح باب الغرفة لاستلامه..

أحتاج أن أكمل الحلم، أحتاج أن أعيش معه حلمًا جميلًا لأذهب وأقصّه عليه، علّي بهذا أكسر جليد المسافة بيننا..

ياااا للحرب.. هذه اللعينة تقتنص كلّ محاولاتي لترتيب لقاء خارج حضورها، في محاولتي الأخيرة لإكمال الحلم اهتزت الأرض، ومالت حلبة الرقص بنا، وسقطتُ أرضًا، فصحوت لأجدني على الأرض، وقد سقطت من الأرجوحة، والغبار يملؤني، وأمي تردّد: «مجنونة، كيف تنامين هنا في الحديقة، ماذا لو قُتلتِ بشظية؟». أسحب وسادتي وخيبتي ورائي، وأنا أجيبها: «عمر الشقي بقي يا أمي.. لا تخافي!».

***

صوته هذا الصباح كان ميناء سلام، حملني من خيبتي، وزرعني غيمة في السماء، قال: «عرفت بشأن ما حدث البارحة، سلامتك حبيبتي، هل أنت بخير؟». أجبته: «لا شيء لا شيء مهم، شكرًا لذلك الصاروخ فقد حمل صوتك إلي!». ضحك تلك الضحكة التي تُسكرني، ثمّ قال: «تعلمي الرقص قبل أن تصري على دعوتي إلى حلم دستِ فيه على قدمي

ألف مرّة!». أجبته: «وما أدراك بحلمي.. هل بتَّ تتسلل إلى الأحلام أيضًا، وتتابع تفاصيلها؟».. ضحك وقال: «أراك الليلة، ولكن تدربي أكثر!».

جنّ جنوني، فبين نشوة حضوره الصباحي، ومفاجأة معرفته بحلمي بتّ مهووسة أبحث عن الأسباب، كيف له أن يعرف أحلامي؟ علبة الأحلام خاصتي لم أُطلع عليها أحدًا!

اللعنة على الحرب، لا ريب هي اللعينة قد وشت له بكل هذه الأشياء، وأخبَرته بإحداثيات حلمي، وقد تقبّلها منها بحب، أليست في قلبه ثورة!

***

لم أسأله عن كيفيّة معرفته بحلمي، مع أنّ الفضول كاد يقتلني، رحت أحدّثه بتفاصيل كثيرة، أُخبره عن «حلب» التي أنتظر أن تجمعني به في حضنها، أن تضمنا معًا في عناق أبدي، رحت أسرد عليه كيف تحوّلت مناطق كاملة إلى خراب، أُحدثه عن بؤر الحرب المنتشرة.. أخبره وأخبره، والطائرة التي تزرع الموت لا تفارق الفضاء، حدثته عنها، وأخبرته عن تلك القذيفة التي سقطت بالقرب مني وأنا عائدة إلى البيت، فارتددت خوفًا منها نحو شابّ استغل الموقف، واحتضنني بقوة، ذلك اللعين، لولا رائحته المزعجة كنت نسيت نفسي في حضنه، وضحكت.. لأتلقى صفعة غياب مفاجئ منه، أدت إلى انطفاء الأخضر لتظهر عبارة «آخر ظهور منذ سبع دقائق» اللعنة، يبدو أنني أزعجته حقًا.. رحت أتسلل

كلّ بضع دقائق لأجد أنّ تلك العبارة تزيد لتصل إلى الساعتين، شعرت بالسأم وأنا أنتظر، أرسلت له رسالة على جواله، لم يجب، وغفوت في حَرّ سريري هذه المرّة..

تكرر الحلم مرّة أخرى، وانتهى حيث أراد، ولم أفلح في تجنب قدمه، ودستها مجددًا، صحوت والحَرُّ يدوس جسدي بسياط لئيمة، وغفوت مجددًا، ودست قدمه، ومرة ومرة.. كدت أختنق، سئمت هذا الحلم الغبي، سئمتني، غسلت وجهي، وأعددت كوبًا كبيرًا من القهوة، وفتحت علبة الأحلام..

***

رسالة صباحية منه: «في المرة القادمة إن زارتكِ قذيفة تقدّمي نحوها، أهون من أن تقعي في حضن رجل غيري! سأكون في حلب نهاية الأسبوع، أعدّي نفسك وتدربي على رقصتنا»..

دخلت في دوامة من فرح وقلق، عن أيّ حلب يتحدث ذلك الأحمق؟ حلب ليست مدينة تُزار على عجل، ليست مكانًا يمكن ارتياده كعطلة! من يحتاج لعطلة من السلام ليعيش الحرب معنا، أيّ مجنون هو؟!

***

غدًا موعدنا، ومازلت أتعثر وأدوس قدمه في ذلك الحلم اللعين، في هذه الليلة سأحلم به خالصًا من شوائب تلك الرقصة، سأحضرني للقاء تحت عريشة ياسمين، فزهرها في هذه الأيام يسوّر روحي بالأمان.. نعم.. الياسمين.. لمَ لم أفكر فيه؟! سأضيفه الليلة لخلطتي السرية، وأظنني

سأنجح في رؤياي هذه الليلة، رتبتُ كلّ شيء.. نفيت القهوة منذ السابعة، واغتنمت فرصة نوم أمي باكرًا لأغفو على الأرجوحة في الحديقة، ربّما بعض الهواء سيسرّب لي سكينة النوم، وسيغري ذلك الحلم المعلّق بين علبة الأحلام وقلبي.. بالسقوط أخيرًا في دائرة اللاوعي حلمًا!

***

ياسمينة كريمة جدًا تلك التي مدت عناقيدها وعانقتني عطرًا، لم يكن لنجومها ذلك الانحناء الذي بات يشوب ياسمين حلب هذه الأيام، كانت ساطعة ببياضها ويسكنها في المنتصف بعض حمرة، مد كلتا يديه، وأخذ يقطف منها، كانت تستجيب له، بل كأنها كانت تهوي في يديه، كان كلّما جمع حفنة منها، يسكبها على جسدي، ليُسقط كلّ ما أرتديه، وأغدو عارية إلا من بعض ياسمينات، أو كثير منهنّ، لم أشعر بالخجل، بل كنت مرتاحة وسعيدةً بحلتي الجديدة، وبيديه اللتين تعيدان تشكيلي، بدأت أنفاسه تسهم في العملية أيضًا، وبدأ جسدي يستجيب لقبلات أنفاسه ويديه بارتعاشات من خوف وشوق وشغف، كاد قلبي يقفز مني، عندما وجدتُني عارية من الياسمين حتى بالقرب منه، وما بيننا من مسافة ليس أكبر من تنهيدة ورعشة! ابتسامته حلّت أخيرًا لتكون ختامًا لحلمٍ رسمته، فتجاوزني جرأة وجمالًا.. ظهر صوتي أخيرًا، وسألته: «لمَ تخبرني ما أدراك بحلم الرقصة، وأنني دست قدمك مرات؟». ضحك طويلًا وقال: «إنّه حلمي أيضًا.. ألم نكتبه معًا عندما كنا صغيرين؟».

***

لم تكن الياسمينة الشهيدة الوحيدة في ذلك الحلم، بل كان صوته الذي خرج منه لاهثًا، وسقط على مسافةٍ قريبة مذبوحًا بسكين مسنون، وجثتي كانت هناك أيضًا، بكامل أناقتها، معلّقة بالقرب من جسده على كتف تينة عتيقة!

وحده صوتي المبحوح مازال هنا، خارجًا من الحلم، وهو يصرخ باسمه مرات ومرات، مذبوحًا مثلي بالحرب التي كانت أقرب هذه المرّة من قذيفة، جسدي الجثة، مازال يمارس حياته، بينما غادرتني روحي، لتبقى معه، مذ أخبرني أحدهم أنّ ذلك الذي وعدني صوته بزيارة لحلب.. ضاع جسده المذبوح في مكان ما من حلب!

2017

(5)
هبوط اضطراري

نبأ حسن مسلم

قاصة عراقية، عضو الاتحاد العام لأدباء وكتاب العراق منذ عام 2006، حاصلة على درع الجواهري من الاتحاد العام لأدباء وكتاب العراق بعد حصول قصة «الحصان» على المركز الثالث، 2017، صدرت لها مجموعة قصصية بعنوان «حرب قيد الإنشاء»، 2018.

لا أعرف ما هي مشكلتي مع المروحيات؛ فمؤخرًا لا يكاد يمر يوم دون أن أرى إحداها أو أسمع صوتها على الأقل!!

الظلام يهيمن على شفاه المكان كقبلة مغشوشة.. كالعادة كنت منغرسة في حديقتي الصغيرة، تحفُّ بأقدامي أعشاش مائية باردة ومنعشة. أحمل بيدي طبقًا من الفاكهة الصيفية الشهية، آكله بشراهة منقطعة النظير. لم أكن أفكر إلا في الحرب والجدوى من استمرارها كل هذه السنوات. أتوقف لبرهة وأحاول جاهدة منع نفسي من الإجهاز الكلي على محتويات الطبق.. فماذا لو حصلَتْ مجاعة فجائية؟؟ أليس من الأجدر

بي الاحتفاظ بهذا الطعام وادخاره و.. تحديدًا، وفي تلك اللحظة المشرقة بالتفكير، انزلقت مروحية من فوق رأسي، بدنها المعدني أُصيب بقذيفة مباشرة.. النار تندلع من كل جزء منها بصورة رهيبة. أخذَتْ تدور حول نفسها بسرعة فائقة كذراع طاحونة مجنونة قبل أن ترتطم بالأسفلت المتصدع للشارع المحاذي لمنزلي، وتتبعثرت أجزاؤها بصورة أليمة في الفراغ المظلم.

تجمّدت في مكاني حتى أحسست بالأعشاش المائية التي غمستُ بها قدماي قد بدأت بالغليان. في الواقع هذا ليس الشيء الوحيد الذي أحسست به، بل إن هناك أشياء عدة لن أخبركم بها!!

مرت لحظات الانفجار الأولى بدويّ وعصف هائل. امتدت النار إلى داخل حديقتي وأتت على القصب خاصتي (لم يكن هناك سوى القصب؛ فلا شيء ينمو في السبخة هنا غيره). الهسهسة الصادرة من احتراقه أخذت تقرص أذنيّ وتفركهما كما تفعل المعلمة مع الكسالى. ما العمل؟؟ سألت نفسي مرات عدة وأنا أتلفت بفزع مهول. في حالات كهذه يجب أن تصل فرقة عسكرية، سيارة إسعاف، سيارة شرطة أو سيارة أجرة على الأقل.. لكن لا شيء على الإطلاق لحد تلك اللحظة!!

أخذ المكان يترنح ما بين مطرقة الظلام وسندان الصمت.. وهنا تحركت نحو الشارع مباشرة فقد اختفى سور منزلي ولم يبقَ الا ركائز الأساس الإسمنتية الخاصة به. سحبت أقدامي بحذر عبر الأعشاش المائية المحشوة بجذور القصب المحترق. كل المنازل من حولي كانت

مظلمة وبلا حياة. ربما أصابت الطائرة الكابل الرئيسي للمنطقة أثناء سقوطها. حدّثتُ نفسي بأمر كهذا وأنا أحاول أن ألمح المحول الفرعي المحشور بين فكي عمودين ابتلعهما الصدأ منذ أمد بعيد، وسط الدخان الذي بدأ ينقشع بصورة تدريجية. لا يهم.. فأنا الآن وجهًا لوجه مع ما بقي صامدًا من الهيكل المعدني المحترق!!

إلى اليسار قليلًا حيث تحتشد قطعان النفايات التي كنت أكدّسها هناك بصورة غير شرعية، لمحت الطيار. كان كما ولدته الحرب تمامًا ببزته العسكرية وحذائه الجلدي. لم تمسه النار على الإطلاق، على ما يبدو فإنه قفز من المروحية قبل الانفجار بلحظات.. طوقته سيور من الحديد والجلد وتكورت قريبًا منه حقيبة من القماش تحتوي على مظلة داكنة مفرودة بصورة جزئية فضلًا عن خوذة مهشمة. الرجل كان فاقدًا لوعيه، إضافة لذلك كان قد فقد الأزرار الثلاثة الأولى من لباسه العسكري، وبان من تحته طقم فانيلة بلون رمادي قاتم. لاحظت حول عنقه القلادة التعريفية.. اسمه لم يكن واضحًا، لكن فصيلة دمه كما هي فصيلة دمي (A-). وهذه هي كل الأضرار التي أقف عليها لحد الآن.

لم أحاول إيقاظه.. استدرت خلف رأسه تمامًا وأمسكت بذراعيه وبدأت اسحبه ببطء نحو الداخل. عندما استدرت لم يكن منزلي موجودًا!! فقط هيكل حجري مظلم. بدا الأمر كمزحة ثقيلة لكني ولسبب ما لم أعر الأمر أهمية، بل استدرت نحو سلم صغير يفصل منزلي عن منزل والديّ وأكملت مهمتي. أسندته بصعوبة إلى إحدى الأرائك. إن

استيقظ سيكون جائعًا بلا شك.. هذا ما فكرت فيه... لديّ رز، مرق فاصولياء، لحم دجاج، خبز ولبن؛ في الحقيقة الكثير من اللبن!! لديّ كل ما أحتاجه تقريبًا. اتجهت نحو المطبخ باطمئنان لتجهيز الطعام.. لم تمر سوى لحظات حتى استفاق الطيار مذعورًا. هرعت نحوه لأهدئ من روعه.. سألته العديد من الأسئلة (لا أذكر أغلبها الآن) لكنه لم يجب على أيٍّ منها قط. بل لم يتفوه بكلمة واحدة.. كان يتلفت بذهول كمن فقد شيئًا ما.. هذا هو كل ما كان يقوم به حتى تلك اللحظة الحرجة!!

وضعت الطعام أمامه وتركته فربما كان الرجل خجولًا. ثم سمعته..

ذلك الصوت الوحشي مجددًا. في الواقع كنت أسمعه بين الفينة والأخرى، إنه صوتٌ لقاصفة غريبة الشكل بأجنحة منحنية ورأس مدبب، فقد كانت أشبه بعلامة تجارية غامضة منها لطائرة. أسرعت إلى سطح الدار وأستطعت أن المحها وسط الظلام بلون فضي باهت وهي تحوم كصقر جائع!! وسرعان ما بدأ سيل من الصواريخ الحمراء ينهمر كرشقات لسهام عدائية. تراجعتُ إلى الخلف واصطدمت بشيء ما.. في البداية، ظننت أنه الطيار. فلا بد للفضول من أن يدفعه لاكتشاف مصدر الفوضى السماوية.. لكنها كانت أختي، أجل يا جماعة إنها أختي!! لا أعرف كيف وصلت إلى هنا!! فيفترض بها أن تكون الآن مع زوجها في منزلهما البعيد نسبيًا. سألتها أسئلة عدة لكنها لم تجب، بل لم تتفوه بأيّ كلمة على الإطلاق تمامًا كالأخ الموجود في الأسفل!! بل اكتفت بحركات إيمائية فهمت منها أنني يجب أن أغادر المكان لخطورته.

راقبت القاصفة وهي تغادر صفحة السماء. وعندما استدرت مجددًا لم أجد أختي! كانت قد اختفت.. اختفت بكل بساطة كما القاصفة اللعينة. أسرعت بالنزول للأسفل لأبحث عن.. لا أعرف عن ماذا! كان الطيار قد اختفى هو الأخر!! لا بأس؛ فالأمور الغريبة تصرّ على الحصول معي دائمًا. عدت إلى حديقتي الصغيرة. الظلام والسكون يحكمان المكان، منزلي تحوّل إلى غابة مليئة بأنصاب حجرية مقيتة ودغل مزعج.. رحت أبحث بجيوبي المتعددة عن هاتفي النقال.. أُريد أن أتصل بأحدهم.. أريد أن أفهم ماذا يحصل معي. فقد أضفت لمشكلتي الحالية «الجيوب المتعددة» فملابسي دائمًا خالية من الجيوب أو تحتوي على اثنين في أفضل الحالات!! بصعوبة بالغة كنت أبحث عن الأسماء المحفوظة بهاتفي الذي صار ثقيلًا وبطيئًا على غير العادة!! وما هي إلا لحظات حتى راحت الأرقام تغطس بجسد الهاتف الذي تحول إلى ما يشبه قطعة من العجين اللين!! صوت القاصفة مرة أخرى.. أرفع رأسي بذعر نحو السماء، لا بد من أنها نوبة قصف جديدة.. همست لنفسي وأنا أشعر بتغير ملمس الهاتف بيدي، إذ شعرت بأني امسك بشيء مدور، نحيف وبارد. إنه قرص مضغوط.. من أين جاء هذا القرص الغريب؟؟ ثم تذكرت أني صباح هذا اليوم كنت أنقب بأنقاض دكان للأقراص الليزرية في «كراج باب الحسين» تم تفجيره قبل أيام. كنت أبحث عن أشرطة لأغانٍ سمعتها وأخرى لم أسمعها.. ما زلت أذكر وجه البائع المرعوب بعد تهديده بنسف الدكان ووجوه الزبائن الحائرين و.. أمعنت النظر بالقرص مجددًا

فطالعني وجه «هاريسون فورد» المطبوع على الورقة الدعائية التي تغلّف القرص بملامح حزينة قبل أن يحدّثني بحرقة وغضب. اللعنة على المترجمين!! لقد أخطؤوا بترجمة عنوان فلمي!!

- عذرًا يا صديقي!! قلتها وأنا أشعر بصداع يهاجمني كجائحة لمرض ما.
- ألا تجيدين القراءة يا سيدة؟؟ قارني المكتوب أدناه: «اختطاف طائرة الرئيس» أو «القوة رقم واحد».
- هذا فظيع يا صديقي.. فظيع «Air Force One».

قلتها وأنا أهمس لذاتي.. ها قد عدنا للطائرات من جديد. وأضفت بملل:

«على أي حال هم لم يبتعدوا كثيرًا.. أليست طائراتكم الرئاسية تسمى «مارين وان للمروحيات و».. فقاطعني بغضب:

- أكره التلاعب بما يخصني.. هذا كل ما في الأمر!!

رحت أبادله كمية الغضب وزعقت فيه بحرقة:

- أين كنت يا صديقي!! ها.. أين كنت عندما فجّروا أصحابك.. لقد قتلوهم كلهم يا رجل.. جوني ديب، جاك نيكلسون، هيو جاكمان، روبن وليامز.. لا، انتظر هذا المسكين قد شنق نفسه!!

فقاطعني قائلًا بإشفاق

- عزيزتي، أنت تتخيلين وتخلطين الأمور. هذا الحدث المريع قد حصل عام «2004»!!

- لا يهم متى حصل.. لأنه قد حصل وأنت لم تكن موجودًا. بالمناسبة أين كنت يا صديقي؟؟
- كنت على متن «الميلينيوم فالكون» أحارب «دارث فيدر».
- آها.. «دارث فيدر».. في الواقع هناك الملايين من صنفه هنا على الأرض!!
- ماذا؟ هل تريدينني أن أتحول إلى قاتل؟؟
- إيه.. وكأنك لم ترسل العشرات من الجنود الروس والألمان إلى «مجاهل المجرة» في بحثك عن «الكأس المقدسة والجمجمة الكرستالية»!!
- عزيزتي.. أنا لا أذكر.. متى حصل كل هذا بالضبط؟؟
- أعتقد بأنه عام «2004» أيضًا مسيو لطيف!!.. «قلتها بتهكم»
- لا عزيزتي، في هذا العام كنت في حفل تخرجك وكان قميصك الرمادي فظيعًا للغاية. أليس لديك أدنى ذوق في اختيار الملابس أو تنسيق الألوان؟! إنها حفلة تخرج لا مأتم!!
- ما قصدك؟؟ (كنت على وشك أن أسدد له لكمة قوية قبل أن يقاطعني متحدثًا بنبرة جادة).
- عزيزتي أنا هنا لإيصال رسالة لك.. سرية، خطيرة وعاجلة!!
- وما هي؟؟ (هتفت بحماس وأنا أشعر بخلايا دماغي قد تحفزت وكأنها ترقص على أغنية شعبية)

- أحضري النردين وساعدي ديوجانس على الخروج من برميل النبيذ. لا تتحدثي مع نابليون فهو جاسوس، ثم التحقي بنا إلى الطائرة الرئاسية «تي- بيرد».
- ماذا؟؟
- أحضري النردّين و..

أخذ صوته يتلاشى وبرز بدلًا منه صوت آليٍّ خاطبني بلهجة معدنية: «خطر.. إنذار.. الرسالة ستدمر خلال خمس ثوانٍ من الآن!!» وبالفعل بدأ القرص بالذوبان في يدي مخلفًا دخانًا بلون وردي فاقع على غرار ما يحصل مع الرسائل السرية التي تُبعَث للعملاء السريين في الأفلام!! عندها شعرت باهتزاز طفيف في أحد جيوبي المتعددة.. هل هي رسالة سرية أخرى؟؟ سألت نفسي بفضول وأنا أُخرج هاتفي النوكيا «3310» بجسده الرصاصي الثقيل كحذاء عسكري وأخذت أراقب الشاشة الصغيرة وهي تلمع بلون أصفر مقيت مذكرة إياي بانتهاء وقت الحلم وبداية يوم عمل جديد!!

2017

(6)
رؤيا (Heren straat)

صلاح حيثاني

كاتب وفنان وباحث عراقي. درس الفن التشكيلي في هولندا.

يعمل مديرًا لقاعة عين غاليري في أبو ظبي، ومؤلفًا في مؤسسة ارتياد الآفاق والمركز الجغرافي العربي.

لا أحد سيعرف ماذا حلّ بحلمي الأخير، لأنني ربما سأموت قبل أن استيقظ من نومي..

بادرني رجل يبدو في نهاية العقد السابع بهذا الكلام بعد أن رآني أتطلّع إلى عليّة صيدلية (هوخينس) في شارع هيرن سترات. إنها ليست حبكة قصصية، ولا يرتبط الأمر بكتابة نصّ أدبي جديد، بل برجل كان يحدّق بي من مقعد مجاور في شارع «هيرن سترات» ويحاول تبديد أوراق الأكاسيا التي تجمعت أمام مقعده الخشبي وهو يقول ببطء:

«إنها ليست حقيقية، وكذلك الريح التي تدفعها باتجاه شارع «كوك شورن» لأنها لا تحدث إلا في حلمي..

أنت أيضا (قالها وهو يشير إليّ بعصاه) لست حقيقيا إلا بالقدر الذي يمتدّ فيه زمن حلمي، بوسعك أن تغادر، لا بأس، غادر الآن إن أردت»، ثم قال بلهجة آمرة: «غادر»، وأردف بعد هنيهة صمت: «لكنك لن تبتعد، لأنني وببساطة شديدة لم استيقظ من نومي بعد.

أنا من منحك هذا الجسد الذي يبدو أنك لم تعتد عليه، ولكن لا بأس أيضا، لأنه لن يكون جسدك خارج هذه الرؤيا، وكذلك لأنني سأمنحه إلى كائن آخر في رؤيا جديدة.

لماذا تبدو مأخوذًا على هذا النحو؟

لا يمكنك ذلك، ستزول بمجرد أن أستيقظ، لست جوهرا لتكون واجما ومتفكّرا وكأنك ستدخل متلمّسًا أحلامي كلّها..

انظر إلى رقم الهاتف على واجهة الصيدلية، إنه جوهر.. الأعداد جواهر لأنها تقوم بنفسها، فالواحد جوهر مستقل بنفسه، تطلّع إلى قامته المنتصبة وستدرك أن الأشياء كلها خرجت منه.

جرّب أن تتّصل به، جرّب، أريدك أن تفعل ذلك الآن، لن يكون في الصيدلية سواي، لأن هذا الرقم سيُمعن في تحوّله في كلّ مرة تنظر إليه..

هذا هو الفرق، فأنت لست موجودا بنفسك، أنا علّة وجودك أنت معلول ضعيف، تحتاج إلى حلمي لتشعر به.

أصدقاؤك ليسوا في حقيقة الأمر سوى أشخاص مرّوا بحياتي، بعضهم مكث فيها طويلا على امتداد سنوات عمري، وبعضهم الآخر غادرها

على عجل، وها أنا أستعيدهم كما أفعل دائما فيبدو الأمر وكأن ذاكرتك هي التي تفعل ذلك.

هل أُخبرك بأسمائهم؟

.. أشجارك، نساؤك، صوتك، الهواء الذي يعبرك الآن، يومياتك التي تعكف على كتابتها، خرائطك، نباتاتك، هاتفك.

آه.. هاتفك

هل تعتقد أنه هاتفك حقًّا؟

إنه هاتفي، هاتفي أنا،

سيتّصل أحدهم الآن..

هل أقول لك شيئا؟

أنت تفكّر في نفسك، ماذا سيحلّ بك إذا لم أستيقظ من نومي، ماذا سيحلّ بحلمي الأخير؟..

في هذه اللحظة تمامًا رنّ هاتفي، التفتُّ ناحية الرجل، كان ما يزال يبدّد أوراق الأكاسيا بعصاه، رفع رأسه ببطء وهو يتمتم بصوت خفيض:

- أخبره أنني لم أعد حيّا.

2007

(7)
ماجستير

حنان الحلبوني

كاتبة سورية. صدر لها: «النجاة غرقًا» قصص 2015، «بحرٌ من حب» شعر. حائزة على المرتبة الثانية في مسابقة الشعر التي أقامتها الجامعة الكاثوليكية في مدينة سانتياغو دل أستيرو الأرجنتين عن قصيدة بعنوان «حلم الجندي». حائزة على المرتبة الثانية في مسابقة الشعر المخصص للطفل التي أقامتها الهيئة العامة السورية للكتاب عام 2017 عن قصيدة «أمي».

إنها العاشرة ليلًا، وعوني متعبٌ، بل منهكٌ، فقد أتمّ اليوم أربع سنواتٍ من البحث والعمل ووَصْلِ الليل بالنهار، من أجل رسالة الماجستير في الأدب العربيّ: «الفضائل العربية وتجلياتها في حياة الشعراء العرب».

أربع سنواتٍ من العناء والسهر والانتقال بين المكتبات والجامعة، حذفٌ وإضافة، أخطاءٌ جعلت تعب أيامٍ وأشهر يختفي من ذاكرة الحاسوب، انقطاع التيار الكهربائي، ضعف الشابكة، البحث عن كتبٍ

ومخطوطـاتٍ نـادرة، اضـطراره للإذعـان لاسـتغلال بعـض أصـحاب المكتبات، آلام الرقبة والظهر ضريبة الجلوس الطويل.

يبدو أنه قد آن الأوان كي ينهي هذه المرحلة المهمة من دراسته. جلس خلف مكتبه وأنار ضوء الشاحن الضعيف، شعر بصداعٍ رهيب، لكنه لـن يستسلم له، ابتلع قرصي مسكّن وبدأ بجمع أوراقه، أمسك بقلمه الذي شارف على الموت وخطّ أولى حروف المقدمة: «الفروسية والمروءة والشجاعة والكرم، إنها الصفات التي نكررها ونعيدها بمناسبةٍ أو من دونها، هكذا علمتنا المدارس والكتب منذ نعومة أظفارنا، هكذا كان أجدادنا، وهذا ما أخبرنا به الشعر الذي وصل إلينا من الجاهلية حتى العصور المتقدمة. تُرى هل تجلّت هذه الصفات في حياة الشعراء؟ أم في شعرهم فقط؟ وهل صدق عنترة حين قال: «وأغضّ طرفي مابدت لي جارتي حتى يواري جارتي مأواها»؟

وهل تطابق قول المتنبي: «الخيل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم» مع حياته العملية؟

اللعنة على هذا القلم الغبي، الآن اخترتَ الموت؟ قال عوني ذلك ورمى بالقلم من دون أن يرفع عينيه عن أوراقه، وإذا به يسمع صوتًا آتيًا من الجهة التي رمى القلم إليها: «آه، ماذا فعلت؟ لقد كدتَ تقتلع عيني».

خاف عوني واضطربت دقات قلبه، رفع رأسه ثم وقف مذعورًا فأوقع كرسيه أرضًا، لقد رأى ثلاثة رجال يرتدون أزياءَ غريبةً ويضعون عماماتٍ على رؤوسهم، أحدهم أسود البشرة، والثاني أعمى والثالث سليمٌ معافى،

جلسوا على الأريكة المقابلة له، فركَ عينيه جيدًا فالنور كان شحيحًا، وقد يكون ما رآه وسمعه هلوساتٍ سببها الإرهاق، لكن لا، إنها حقيقة، وها قد بدؤوا يتنحنحون ويهمهمون!

«لا تخف يا بنيّ، نحن هنا لمساعدتك ولن نؤذيك أبدًا» قال الأول.

ردَّ عوني بصوتٍ متهدجٍ وكلماتٍ متقطعة: «ولكن يا سيدي من أنتم؟ وكيف أتيتم إلى هنا؟».

أخذ الثلاثة يتكلمون في وقتٍ واحد واختلطت الأمور، ولم يفهم عوني كلمةً واحدةً، إلى أن رفع الرجل الأسود سيفه وزأرَ كالأسد: «اصمتا وإلا قطعتكما إربًا، اتركاني أشرح لهذا المسكين شيئًا قبل أن يفقد عقله».

وافق الاثنان؛ تفضل وأتحفنا أيها الفارس الهمام، قال الرجل الأعمى:

«أنا يا بنيّ عنترة بن شداد بن قراد من قبيلة عبس، وهذا أحمد بن عبدالله بن سليمان القضاعي التنوخي المعري»، فيقاطعه المقصود بالكلام ويقول: «نادني أبا العلاء» ويهز برأسه، يكمل عنترة كلامه: «وذاك أحمد بن الحسين من قبيلة كندة»، يهز الأخير رأسه قائلًا: «نادني أبا الطيب المتنبي».

يتابع عنترة: «نحن هنا يا بني كي نعينك في عملك الجبار، فذلك يهمنا ويحسن إلى سمعتنا، وقد يسيء إلينا إن أنتَ أغفلتَ الجوانب المشرّفة من حياتنا.. واللاة والعزة لأنصرنكَ في عملك ولأعيننّك حتى تنال الدرجة التي تبتغيها، وليس لنا أي هدفٍ شخصيّ من وراء عملنا هذا، وإنما هو مرضاةٌ للآلهة أولًا وتجلٍّ للفضائل التي طرحتها في عملك ثانيًا، ودليلٌ دامغٌ على أنّ هذه الفضائل لم تكن يومًا هباءً، بل هي حقيقة، ستجعل

أقرانكَ الذين يستهزؤون بنا يعودون إلى جادة الصواب ويعترفون بفضلنا إلى أيامكم هذه».

كان عوني يستمع إلى كلامه فاغرًا فاه مصغيًا لكل كلمةٍ ينطق بها، مومئًا برأسه إلى الأعلى والأسفل، وحين أنهى عنترة كلامه بدأ أبو العلاء مداخلته: «يا بنيّ، ما كان اسمك؟».

«عوني يا سيدي».

«لا تقل سيدي، يا عوني أنا مثل والدك، وكما قال زميلي عنترة نحن لا نبتغي إلا مرضاة الله تعالى أولًا ونجدتكَ ثانيًا، والآن قل لي ماذا تحتاج من معلوماتٍ تاريخية أو علمية أو وثائق؟ إني أراك فتىً أريبًا ألمعيًا، هيا قل لي يا بنيّ ولا تخجل».

أجاب عوني وقد انفرجت أساريره قليلًا: «في الحقيقة يا عم أبا العلاء، بعد أربع سنواتٍ من العمل المضني، بدأتُ أشعر بالضياع؛ فالتناقض الكبير الذي لمسته بين ما قيل من خلال شعركم، والوقائع التاريخية، جعلني أندم على خياري، وتمنيتُ لو أنني اخترتُ موضوعًا سهلًا لا يحتمل الأخذ والردّ، كتحقيق مخطوطٍ أو البحث في أحد المواضيع عند شاعرٍ ما، لكن يبدو أنني وقعتُ في بئرٍ عميقةٍ، و.. حضوركم اليوم سيغني بحثي ويعينني على اجتياز المشاكل التي أوقعتُ نفسي فيها، وسينتشلني من قاع البئر».

زأرَ عنترة مرةً أخرى: «وما الذي تقصده بالتناقض الكبير بين الشعر والتاريخ؟».

عندها وقف المتنبي وقال: «ألم تلاحظوأ أنني لم أنطق ببنت شفةٍ قط؟».

أومأ المعري برأسه قائلًا: «تفضل يا أبا الطيب، طيّبَ الله ثراك».

«أشكرك يا أخي وزميلي أبا العلاء، والآن سأوجه كلامي لك يا عوني؛ إذا كنتَ تجد أننا قصّرنا يومًا في حقّ أمتنا، فذلك لأننا لم نحصل على الوسائل التي لديكم الآن والتي لم تحسنوا استغلالها، وأسألك لماذا أوصلتم أمتنا إلى الحضيض؟ فضحتمونا يارجل، رائحتكم وصلت إلى السماء!».

ردّ عوني: «في الحقيقة يا عمّ، نحن نتعرض لمؤامراتٍ كل يوم وكل ساعة؛ الطامعون كثر والغزوات على بلادنا لم تتوقف منذ ارتحلتم؛ المغول والتتار والصليبيون والعثمانيون والصهاينة و..».

وقف المعري وسأل: «ومن أيضًا؟! من بقي في هذا العالم ليغزو بلادكم؟ أم أنك تتحدث عن عوالم أخرى؟ لا بدّ أنك تقصد ذلك، فقد وصلت إلينا أخبارٌ عن أن العلم في زمانكم تطور كثيرا».

عوني: «لا يا جدي، أقصد يا عمي، أقصد»..

ثم بدأ عوني بالبكاء، وصار نَفَسه متقطعًا ولم يتمكن من إتمام كلامه، فاقترب المعري منه وربتَ على كتفه، وقال له: «اهدأ يا بني، لا بدّ أن الأمر أعقد مما كنا نتصور، اهدأ الآن واجلب لنا شرابًا لنتابع حديثنا بهدوء».

أحضر عوني عصير الليمون المثلج بالنعناع، وحين دخل الغرفة كان الثلاثة يتهامسون، فصمتوا مباشرةً، وطرح المتنبي عليه سؤالًا بعد أن أخذ رشفةً من كأسه: «كيف كنتم تواجهون الغزاة يا بنيّ؟»

عوني: «لقد كنا»..

وعاد إلى البكاء ثانيةً.

المعري: «لا لا، يبدو أن الفتى متأزمٌ جدًا».

زأرَ عنترة مجردًا سيفه: «وماذا يفعل هذا؟» (يقصد السيف).

أجابه عوني بعد أن مسح دموعه عن وجنتيه: «هذا لا يفيد يا جدي، لا هذا ولا غيره، نحن مهزومون من الداخل ولن ينفعنا أيّ سلاح إلى أن ننتصر لأنفسنا، نحن نكره أنفسنا ونحارب أنفسنا، ونقتل أنفسنا».

المعري: «أنا لم أعد أفقه شيئًا».

المتنبي متهكمًا: «وكيف ستفقه ما يقول؟ ومنذ متى كنتَ تفقه؟ وهل من يقول: (ولا تفجعنّ الطير وهي غوافلٌ) هل هذا عاقل؟ هيا اصمت أيها الملحد الزنديق، اصمت ودع الكلام لغيرك أيها الأعمى».

المعري: «الأعمى أعمى البصيرة أيها الذليل الحقير، أنت آخر من يحق له الكلام، بعد كل ذاك التذلل أمام كافور وسيف الدولة ولا أعرف من أيضًا».

قاطعه عنترة: «كنتُ أودّ أن أقول ذلك من بداية الجلسة، لكنني صبرت ليحين الوقت المناسب، أنتَ أيها الأعمى الذي يدّعي العلم والفلسفة،

كيف تضعني في جهنم؟ ومن أنت حتى ترمي هذا في النار وذاك في الجنة؟ أنتَ مختلٌ ولستَ فيلسوفًا أيها البعير الأجرب».

المعري: «ولو قُيض لي لرميتُ الجميع في جهنم، إنهم يستحقونها، ألستَ تسمع ما يقول هذا الفتى؟ ألا تستحق هذه الأقوام الحرق؟ أمّا أنني مختلٌ وبعيرٌ أجرب، فاحترم نفسك واعرف مع من تتكلم، يبدو أن أخباري لم تصل إليك؛ أنا صاحب «سقط الزند» و«رسالة الغفران» و«اللزوميات»، لو أنك عشت ألف عامٍ لن تتمكن من إنجاز جزءٍ يسيرٍ من لزومياتي أيها الطرطور؛ السيوف والرماح تنهل من دمك، وأنتَ تفكر في تقبيل السيوف لأنها تذكّركَ بابتسامة عبلة! لا أدري ما الذي يعجبكم من النساء؛ تلك المخلوقات الغبية!».

واضعًا يديه على رأسه، صرخ عوني بأعلى صوته: «كفى، كفى، يكاد الصداع يقتلني، عودوا إلى قبوركم واتركوني، لا أريد منكم شيئاً سوى أن تتركوني وشأني».

اقترب منه عنترة واضعًا يده على كتفه، وقال له بهدوء: «هدئ من روعك يا فتى، نحن لم نقصد إزعاجك، سندعك تكمل عملك بهدوء، ولكن قبل أن أرحل، اقبل مني هذا السيف عربون صداقتنا، دافع به عن نفسك وعن أمتك العظيمة، لا تدع للهزيمة موطئ قدمٍ في حياتك، أعتذر منك».

أمسك عوني السيف مبتسمًا، محدثًا نفسه: «بماذا سيفيدني هذا السيف أمام الأسلحة الفتاكة والحرب الناعمة والفوضى الخلاقة؟».

اختفى عنترة بعد أن أكمل كلامه، ثم اقترب المعري من عوني، ووضع يده على كتفه وهمس في أذنه: «اعذرني يا بنيّ إن أزعجتك، أنا لم أقصد ذلك قط، لكن ذلك الحقير استفزني. على كل حال أتمنى لك عملًا موفقًا، واقبل مني هذه السنبلة، إنها رمز الخير، اقنع بالقليل يا بنيّ واحفظ كرامتك وكرامة أمتك العظيمة».

عندها انتفض المتنبي قائلًا: «إياك يا عوني أن تقنع بالقليل، ولا تكن إلا في المرتبة الأولى دائمًا».

أبدى المعري استياءه وتلمّس طريقه بيديه ثم اختفى، واقترب المتنبي من عوني ووقف نافخًا صدره، رافعًا رأسه، وقال: «اسمعني يا عوني، هما كلمتان؛ أنا تعرضتُ للإهانة في بيتك، مع أنني حفظتُ لساني كي لا أقع في مهاتراتٍ مع أولئك القوم السذج، وتلك كبيرةٌ من الكبائر، لكنني سأترك لك عربونًا لصداقتنا كما فعل ذانك المقبوران، خذ هذه يا عوني، بصق المتنبي في وجهه ثم اختفى».

فتح عوني عينيه، ليكتشف أنه كان غارقًا في نومٍ عميق، ورأسه ملقىً فوق المكتب، والرجال الثلاثة لم يكونوا سوى كابوس، رفع رأسه ودلّك رقبته التي كانت متيبسة، نظر حوله فلم يجد أحدًا من الرجال، ولا حتى السيف أو السنبلة، لكنه مسح وجهه الذي كان مبللًا بالبصاق، ثم مزّق أوراقه وقرر البدء من جديد.

2018

(8)
جامع الأحلام*

زوران جيفكو فيتش

كاتب وأستاذ جامعي وباحث وناشر ومترجم صربي. له إصدارات كثيرة، منها رواية شهيرة هي «المكتبة»، وقد تُرجمت إلى العربية. وتُرجمت له أيضًا إلى العربية مجموعة قصصية هي «جامع الأحلام الأرجوانية».

في البداية ظننت أني سمعت صوت رنين الأجراس التي كنت أعلقها على جسدي وأنا طفل، لكني لم أعد طفلًا الآن. ثم شعرت وكأنّ جرس يتدلّى من رقبة خروف يقود قطيع غنم. لكنّي لم أكن في قرية. وأخيرًا خلصتُ، وبسبب قوة الرنين، أنها لا بدّ أن تكون أجراس الكنيسة. لكن في حلمي لم تكن هناك من كنيسة.

* ترجمة: فاطمة النعيمي كاتبة ومترجمة من البحرين. صدر لها: مطاف، شعر، السكر غيّر العالم، ترجمة، إرم الرئيس، ترجمة، جامع الأحلام الأرجوانية، ترجمة، الفتى الذي أحب، ترجمة، الفوهر، ترجمة، رسائل سيلفيا بلاث، ترجمة.

إدراكي لكوني كنت أحلم أيقظني. لم أستطع رؤية نفسي في الحلكة، ولم يكن هناك من شكّ أن الرنين كان عائدًا إلى الهاتف الجاثم على الطاولة بقربي. يقطع سكون الليل زعيقه المتواصل المزعج.

مددت يدي للوصول إلى المصباح المثبت أعلى السرير، سطوع النور جعلني أغمض نصف إغماضة وأنا أنقلب لجانب الطاولة.

نظرت أولًا للساعة، إنها الثالثة وسبع وعشرين دقيقة. بالرغم من أن الرنين بقي يدوي دون توقف، إلّا أني بقيت محدقًا في عقارب الساعة غير مصدّق.

أخيرًا رفعت السماعة: «هلو» قلتُ بصوتٍ أجش.

«مساء الخير.. أعتذر عن اتصالي بوقت كهذا لكن يجب علينا التحدث دون تأخير» كان الصوت عميقًا وناضجًا.

«من أنت؟».

«جامع الأحلام».

كان يجب أن أفصل سلك الهاتف قبل خلودي إلى النوم. لكن من يمكنه أن يتوقع حدوث أمر كهذا له؟ لم يكن ينقصني سوى أن أصبح ضحيّة للمعتوهين الذين لا شاغل لهم سوى إزعاج الناس في جوف الليل.

«تصرف صبياني كهذا لا يليق بعمرك» قلتُ بنبرة عصبية وانا أهمّ بإعادة السماعة عندما استوقفتني كلماته «رجال الإطفاء الأقزام»..

أصبحت خلال لحظة في تمام يقظتي: «عفوًا».

«كنت تحلم برجال إطفاء أقزام يلبسون خوذات أرجوانية يحاولون إخماد حريقٍ يلتهم عنكبوتًا ضخمًا، وما يخرج من الخراطيم لم يكن ماء بل»...

«أعرف ما كان يخرج من خراطيمهم». قلت مقاطعًا اياه باقتضاب، «لكن كيف تعرف ما أحلم به؟».

«أي جامع أحلام أكون إن لم أستطع معرفة أحلام الناس، لستُ أعرفها فحسب بل أتذكرها أفضل من أصحابها. لذلك أسرعت بالاتصال بك قبل أن يصبح الأمر متأخرًا جدًا، ففي الصباح غالبًا لن تتذكر أحلامك».

بقيت صامتًا بعض الوقت، أحاول جمع أفكاري قبل أن أنطق بكلمة، قرصت خدي بيدي اليسرى. كان الألم حقيقيًا.

سألته أخيرًا بصوت هادئ: «ماذا تريد مني؟».

«حلمك».

«حلمي؟!».

«نعم».

«لماذا تريد حلمي؟».

«أريد ضمّه لمجموعتي طبعًا. أنا أجمع الأحلام التي فيها تفاصيل أرجوانية. لو لم يكن الأقزام يرتدون خوذات بذلك اللون لَما أزعجتك أبدًا».

«ومالذي منعك من أن تأخذها دون مشورتي؟ دون أيقاظي؟ ألا تقول إني سأنساها صباحًا؟».

«سيكون هذا مخالفًا للقوانين. لا يمكنك ضمّ حلم لمجموعتك من دون موافقة صاحبه».

«هل يعني هذا أنه بإمكاني الرفض؟».

«طبعًا، لكن هذا لن يكون في صالحك».

«حقًا، وكيف هذا؟».

«لأنك بهذا لن تحصل على الجائزة».

«جائزة؟».

«هذا صحيح، الأحلام لا تمنح هكذا مجانًا، لكل شيء ثمن حتى الأحلام».

«لم أكن أعلم».

«طبعا ليست كل الأحلام متساوية في الثمن، غالبها في الحقيقة لا تساوي شيئًا ولا أحد يطمع فيها، أنت أحد المحظوظين هنا، ذلك أن الأحلام ذات التفاصيل الأرجوانية هي أغلى الأحلام وأندرها. يمكنك أن تحيا حياة باذخة لسنين طويلة معتمدًا على ما سأعرضه عليك في مقابل حلم الأقزام ذي الخوذات الأرجوانية».

انتظر جامع الأحلام أن أقول شيئًا، لكنني بقيت صامتًا وأنا غارق في حيرتي.

قال بعد مضي لحظات: «ربما من الأفضل أن تقبل هذا العرض. انظر للأمر على أنه عمل فني وليس بالضرورة حلمًا. المقارنة لا تجعل منه نقيضًا. الكثير من الناس يحاول خلق أعمال فنية لكن القليل فقط من ينجح في ذلك.

هذا شبيه بعالم الأحلام، الكثير يحلم، لكن عدد الأحلام الناجحة قليل جدًا، هذه طبيعة الأشياء، الموهبة ضروريّة للأحلام كما للفن، وأصحاب الأحلام الموهوبة نادرون، أنت حتمًا أحدهم».

«لم أكن أعلم بهذا» تمتمت. «هذا يحدث دائمًا، الحالم الموهوب لا يعلم أنه كذلك إلا عندما يخبره بذلك جامع الأحلام، أفخر بأنني قمت باكتشاف عدد من أكثر الحالمين موهبة. لو رأيت مجموعتي.. ليس هناك جامع أحلام لا يحسدني. لديّ معرض كامل من روائع الاحلام الأرجوانية. سيكون حلمك في رفقة ممتازة».

«كم هذا لطيف!» قلت ببلاغة. من دون أن تطرأ على بالي كلمة متماسكة أخرى في ساعة متأخرة كهذه.

«إذن كل ما عليّ فعله لتلقي الجائزة هو منحك موافقتي».

«نعم، وأيضًا عليك أن تجيب عن بعض الأسئلة».

«أيّ أسئلة؟».

«أسئلة تتعلق بك. يجب أن أتأكد من بعض الأمور. فهناك عدد من عوائق التي تمنع الأحلام من الانضمام للمجموعة».

«عوائق؟».

«نعم، لسنا كبقية تجار الفن في هذا الشأن. تحقق كهذا لن يكون ضروريًا لو كنا كذلك، فلنقل فنانا وصاحبَ معرض. حياتك الخاصة لن تعنيني مطلقًا. لكن جامعي الأحلام يجب أن يتمسكوا بالقوانين الصارمة. فقط الأحلام الصافية من أي شوائب يمكنها أن تنضم للمجموعة. هذا الشرط تسبب في فقدي لعدد من العينات المميزة لكن لا تقلق، تقريبًا يمكنني التيقن معك من أن كل شيء سيكون على ما يرام. هل نبدأ؟».

«تفضل» قلت بعد وقفة قصيرة.

«هل قتلت أحدًا؟».

«ما الذي أعطاك انطباعًا كهذا؟».. (قلت بغضب)

«رجاء لا تشعر بالإهانة، السؤال ليس موجهًا إليك بشكل شخصي. القتلة يحلمون أيضًا. بل أحيانًا تكون أحلامهم قيّمة أكثر من أحلام الناس العاديين. واحد من أجمل الأحلام هرب مني فقط لأن العجوز الحالم كان، دون قصد، قد تسبب في شبابه في موت امرأة عجوز، بالرغم من أنها ستموت لاحقًا في السنوات اللاحقة بالطريقة نفسها. لكن ليس بيدي شيء. القوانين تبقى نفسها. فلنكمل، هل تعاني من أي حساسية ضد حبوب اللقاح أو ريش الإوز؟».

«لا، لا أعاني من أي منها».

«حسنٌ. هل عانى أحد من أسرتك في الأجيال الثلاثة السابقة من أي اضطراب عقليّ؟».

تفاقم غضبي مجددًا لكنّي بالرغم من ذلك أجبته من بين أسناني المطبقة «بالطبع لا».

«جميل جدًا، هل عانيت من مرضٍ مُعدٍ؟».

«الحمى القرمزية والنكاف».

«أهذا كل شيء؟ ألم تعانِ من التيفوئيد، الملاريا، الكوليرا، الجدري أو الطاعون؟».

هززت رأسي بقوة مع أنه لم يكن مجديًا: «لا».

«رائع، هل تلتذُّ بتعذيب الحيوانات الأليفة؟».

«ليست لديّ أيّ حيوانات أليفة».

«إذن لا تجد لذة في تعذيب الحيوانات. حسنٌ، هل تعاني من عمى الألوان؟».

«كيف لي أن أحلم بالأقزام ذوي الخوذات الأرجوانية إذا كنت مصابًا بعمى الألوان؟».

«لم يكن هذا ليقف في طريقك، ربما لا تعلم هذا، أحلام المصابين بعمى الألوان متخمة بها. محزن أن القوانين لا تسمح لنا بضّمهم إلى مجموعاتنا. هل تخاف من المرتفعات؟».

«قليلًا نعم» أجبته، على مضض.

«عندما تكون على حافة هاوية، هل تصبح غير قادر على الحركة، تصاب بالغثيان أو تغرق في عرق بارد؟».

«أحاول البقاء بعيدًا عن المنحدرات».

«تفكير ذكي، يمكننا استنتاج أنك لا تعاني من خوف مرضيّ من المرتفعات. هل تجمع الطوابع؟».

«لا».

«هذا رائع، إلى الآن فقدت أحلامًا كثيرة كان أصحابها من هواة جمع الطوابع».

«وما الخطأ في كون الحالم جامع طوابع؟».

«ليس بخطأ طبعًا، أنا شخصيًا لا مشكلة لديّ مع هواة جمع الطوابع، في الحقيقة أنا معجب بهم، مع أنهم سبّبوا لي شيئا من الخسارة، لكن تلك هي القوانين ولم أكن من وضعها. بكل حال أنت تبلي جيدًا. بقيت لدينا ثلاثة أسئلة فقط. هل تعرضتَ يومًا لزلزال أقوى من ست درجات بمقياس ريختر؟».

«لم أتعرض يومًا لأيّ زلزال».

«ولا حتى زلزال صغير؟».

«ولا حتى زلزال صغير».

«أنت محظوظ حقًا، حتى الزلازل الصغيرة مؤذية. هل تعد السلالم وأنت تصعد؟».

«لا أفعل، وعادة أستخدم المصعد».

«هذا ليس خيارًا صحّيًا، تبين أن الأشخاص الذين يستخدمون السلالم للصعود يعيشون في المتوسط ثلاث سنوات وأربعة أشهر وسبعة ايام أكثر. في الجانب الآخر أدرك أنه من الصعب رفض الخيارات

المريحة. وها نحن نصل إلى السؤال الأخير. هل شربت مشروبًا كحوليًا قبل خلودك للنوم في الليلة الماضية؟».

«نعم، شربت نصف كأس من النبيذ، كما أفعل كل ليلة» قلت بتردد..

«نبيذ ابيض أم أحمر؟».

«أحمر».

سادت فترة صمت على الجانب الآخر من الخط.

«هذا ليس جيدًا؟» سألته بعد لحظات.

تنهد جامع الأحلام قبل أن يجيب «لا، ليس جيدًا، القوانين صريحة بهذا الشأن. غير مسموح بقطرة من النبيذ الأحمر، لأنه يعتبر منشطًا قويّا، بعكس النبيذ الأبيض المسموح بكميات معتدلة، الأحلام التي تأتي تحت تأثير النبيذ الأحمر تعتبر مصطنعة وليست طبيعية».

«لو كنت أعلم لما لمسته».

«لو كنت تعلم لكان من المشكوك فيه أن تحلم برجال إطفاء أقزام يرتدون خوذات أرجوانية».

«والآن، ماذا؟» قلت بعد فترة صمت. «لا شيء، كلانا خسر. أنت لن تحصل على جائزتك السخيّة؛ وأنا خسرت حلمًا رائعًا، لكن لا تفقد الأمل. كما قلت لك قبل قليل، أنت حالم وموهوب. فقط تجنّب النبيذ الأحمر قبل خلودك للنوم. سابقي عينيّ على أحلامك. وسأتصل بك مجددًا عندما يمرّ فيها شيء أرجواني على الرغم من احتمال مضيّ وقت

طويل إلى أن يحدث الأمر مجددًا. لكن على الأقل لن نضطر للخوض في الأسئلة مرة أخرى. والآن عد إلى النوم، ليلة سعيدة».

«ليلة سعيدة» أجبته بعد أن أقفل الخط.

أعدت السماعة إلى مكانها وأطفأت المصباح. بقيت مستلقيًا محدقًا في الحلكة التي تحيط بي، إلى أن جاء صوت رنين من مسافة بعيدة. الأجراس المدويّة للكنيسة وصلت أولًا. متبوعة بالصوت المكتوم للجرس المعلّق برقبة الكبش، سرعان ما أصبح الصوت متصلًا مع الرنين الخافت لطفولتي. وأخيرًا لم يكن يحيط بي سوى الصمت.

2005

(9)
مؤامرة

سيد الوكيل

قاصّ وروائي وناقد مصري، له العديد من الأعمال النقدية والإبداعية.

اجتمعت العائلة كلها.

جاؤوا من قراهم وبلدانهم ومقابرهم.

اختاروا حجرتي مكانًا لجلسة الصلح بيني وبين المرحوم جدّي، قالوا إنني لم أحمل من صفاته غير الاسم، ودون ذلك لا أشبهه في شيء.

ضايقني أنهم اختاروا حجرتي رغم ضيقها وسوء حالها، لكنهم غمروها بأضواء قوية، فبدوا في ملابسهم البيضاء ناصعين حتى لم أعد قادرًا على تمييز ملامحهم، بينما أنا وجدّي نجلس متواجهَيْن على الأرض في انتظار الحُكم.

كانوا يتحدثون كثيرًا، ويصرخون بأصوات غاضبة وهم يتبادلون أوراق الكوتشينة بينهم، وعندما انتهت اللعبة، وقعت الورقة الأخيرة في يد أبي.

لاذوا جميعًا بالصمت في انتظار أن ينطق أبي بالحكم. عندئذ وجدتُني عاريًا تمامًا، وأصابعهم تشير ناحية الشرفة المفتوحة على الشارع، ففهمتُ أن عليَّ أن اقفز منها عاريًا تنفيذًا للحكم.

لم يكن الأمر مخيفًا بالنسبة لي، أعرف أنها مجرد لعبة، وأنَّ باستطاعتي القفز بهدوء وخفة كأني أطير.

ها أنا أمضي عاريًا وسط الشارع، أقفز وألامس الشرفات وأحبال الغسيل، أقفز وأرى الناس في حجراتهم يتحلّقون حول موائد الطعام، أُلوّح لهم فلا يرونني، أناديهم فلا يسمعونني.

ثمة عربات قليلة في الشارع ألهو بها، أطوحها بعيدًا وأضع بعضها في جيبي. وثمة أطفال يجرون إلى مداخل بيوتهم عند مروري. كان بإمكاني دهسهم بقدمي، لكنهم ليسوا خائفين، أمسك بهم فيفلتون من بين أصابعي، يضحكون ويدخلون بيوتهم. ويتحلّقون حول موائد الطعام.

في نهاية الشارع وقفتْ أمي بفستان زفافها. تفتح ذراعيها وتصفق، وأنا أتعثر في خطواتي الأولى حتى ارتميت في حضنها. بينما أفراد العائلة والجيران، كانوا جميعا، يُطلّون من الشرفات ويضحكون.

2014

قراءة في قصص ثيمة الأحلام

اعتبرنــي حلُمًا

فدوى العبود

*بعد أن ينهي زيارته للمعبد الحجريّ، يذهب الرجل الذي لم يدوِّن حرفًا ولن يترك كتابًا تحت إلحاح النعاس إلى فراشه. إنّه متعب -فتوليد الأرواح أشقُّ من توليد الأبدان- ورجّة السؤال أشدُّ على الروح من هناءة الجواب. وما إن يدلف إلى عالم الحلم حتى تأتيه عرّافة دلفي. لقد تركها في المعبد بعينين مطفأتين -إنّها مُبصِرة ولها نظرة أموميّة- أشارت للكلمات المنقوشة بحروف بارزة فوق بوابة المعبد وقالت: «**ياسقراط اعرف نفسكَ بنفسك**». رضّت هذه العبارة سؤال الفلسفة عن الوجود والطبيعة. وكان عليه أن يعود إلى نقطة انطلاق السهم.*

الحلم هو هذا الضبط. «فهم ما يصعب فهمه». فمعرفة دواخلنا ليست بالأمر الهيّن لذا نتفنن في الهرب (الصحبة العمياء، تبني قناعات المجموعة التي ننتمي لها. الركون إلى المتعارف عليه) وأقسى ثمن يدفعه الكائن هنا هو ضياع الذات. في جانب آخر قد يتآمر المرء -بقصد أو بدونه- مع الجماعة ضدّ هذه الذات، ليريح ويستريح. وهذا وهم! تنجم عنه عبودية مرّة، فكم عملت السلطات الدينيّة والسياسيّة والثقافيّة على

ترويض الروحِ الحرّة؛ عن طريق وأد السؤال وتدجين الجواب، ووضع عصابةٍ فوق عين البصيرة الفطريّة!

لكن مالذي يفعله الحلم؟

يكتب صديق للمخرج السرياليّ لويس بونويل «إن أول مشهد صادم في فيلم **«كلب اندلس»** -أول أفلامه- سكين تقطع العين. وآخر مشهد في سلسلة أفلامه السرياليّة (سيدة ترفو قطعة ممزقة ملوثة بالدماء)؛ هذه هي العلاقة بيننا وبين الحلم؛ فهو يرصد غياب الذات. يطرح الأسئلة التي زيّفها الوعي. إنّ وظيفته «فتح جرحنا كي نلأمه لاحقًا». أو بمعنى أدق هز غصن الشجرة لإسقاط الثمر الفاسد! «ولا يمكن ترويضه» هل يمكن أن نعرِّفه بهذه العبارة!؟».

بعد نهاية الحرب العالميّة الأولى واندثار الحركة «**الداديّة**» نظر مجموعة من الشبان الغاضبين -يطلقون على أنفسهم السرياليّة- للوعي كزنزانة لا يمكن تحطيمها إلا بثورة؛ ومن ثَمَّ باتت محتوياته تهدد تكامل الشخصيّة، ولا بد من الذهاب إلى اللاوعي ذلك المكان السري ونبش مكنوناته الغامضة. لكن وصلت إلى مرحلة أنها لم تعد تهدف سوى للتحطيم فبدت وكأنها موضة «**والفن لم ولن يصبح موضة رائجة**»!

هل الحلم منطقة لتبديد الانسجام مع النفاق الاجتماعي كما أرادت السريالية؟ هل هو بصيرة داخلية؟

في كل الأحوال سواء كان يتجه للمستقبل ويبدو كرؤيا (من حلم زوجة قيصر إلى حلم الفرعون إلى حلم يوسف) أو يظهر كانفتاح معرفيّ

كحلم ديكارت الذي ألهمه بيت شعريّ «منهجه الفلسفيّ» أو كحلم سقراط الذي قَلَبَ مسار التفلسف. وسواء التفت الكتّاب لجمالياته وغموضه كما فعل بورخيس، أو إلى الجانب الكابوسيّ منه كما نجده عند «إدغار آلان بو» يبقى الحلم انفتاحًا على الذات التي وُصفت بالمرآة لكنها ليست مرآة عاكسة بل تحوي بداخلها عالمًا آخر مشابهًا للعالم الذي دخلته «أليس» في قصص «لويس كارول». عالم ثريّ يفوق قدرة الوعي، إذ يتخبط الأنا وحيدًا فوق أرض اللاوعي وعليه أن يعثر على أجوبته منفردًا لا ينتظر معونة أحد! في جمهورية الحلم لا يُسمح للزمن بتجاوز العتبات، ولا يُقبَل أيّ وجود للمنطق، وعلى الحالم أن يدخل عاريًا. فلا يستطيع أحد أن يقرأ تجربتنا أفضل منّا! والحلم هو إشارة ضمن مجموعة كبيرة من الإشارات ليس هو أولها ولا آخرها بل ربما أغناها وأكثرها أهمية. هل تخاف أحلامك؟ هل تهرب من الأسئلة التي تطرحها عليك إلى النسيان؟

أهلًا بك في السقوط الحر المسمى الحلم! والبداية مع حلم «**غيمة على تل**» للكاتب زهير كريم. يتحرر السارد هنا من ثقل الجاذبيّة، ويرفض كل شكل وجوديّ ثابت. وربما يكون السؤال الذي يطرحه النص مرتبطًا بقلق الذات من أشكال التجمد في هوية محدودة فالثبات يتعارض مع الحالة الإنسانيّة «لا أريد أن أكون جنديًا ولا تاجرًا، ولا حتى شاعرًا» بل غيمة سابحة مثل لحية بيضاء، (تيس أبيض يقضم العشب) ينبثق هذا النص من أعماق البديهة النقيّة للكائن الإنساني الرافض لكل أشكال

التبلور والجمود. «حلمت ذات ليلة بأني صرت غيمة» الرغبة في الخفّة، والتحرر من الثقل المادي للحياة وثقل الوجود القاسي. يبدو النص هنا كقصيدة رعويّة لسارد ذي نزعة مثالية، يرغب في أن يكون «علامة جماليّة في جسد الحياة» تثير بهجة طفل أو تُرسم في لوحة، غيمة تنشد البقاء في تلك الوضعية وترفض الذوبان. جميعنا دون استثناء نحلم أن نكون غيمة «**وحده الشاعر يفعلها**».

على العكس تنحو قصة «**هبوط اضطراري**» للكاتبة نبأ حسن مسلم نحو الجاذبيّة وثِقل الحرب، فيحاول السارد إنقاذ ما لا يُنقذ. في غرائبية كابوسيّة تُظهر الأشياء وتختفي (البيت الذي يتبقى منه الهيكل، الهاتف الذي يتحول إلى عجين) والسارد مشدود وعالق في مكان تحيطه نثارات أو بقايا (جذور القصب، هيكل الطائرة المعدني، طيار جريح، صواريخ عدائيّة) يبدو الحلم هنا كمحاولة لتفكيك معنى الحرب. يظهر ذلك في تكليف السارد بمهمة سريّة! لكن ما هي؟ لا معنى لكل ذلك! والنسيان والذوبان سيد الموقف «فكل شيء يتحول إلى عجين» وتعجز الذات عن الفهم!

إلى جماليات أحلام اليقظة ينتمي نص «**رانية**» للكاتبة هبة شريقي وهو يعرض بذكاء عالٍ ولغة رشيقة سلسلة متدرجة من الأحلام، تبدأ بسيطة ثم تنغلق كقوس على نفسها. من حلمها أن تكون جميلة وفي مرحلة لاحقة معلمة (يبدو الحلم هنا وطنًا) ورانية الجميلة دلالة رمزية فهي أول حلم «أن أصبح جميلة مثلك لكن رانية أُصيبَتْ باكتئاب حادّ ومُزمِن، سمِعْتُ

أنّها لا تستجيب لنداء أحد ولا ترغب في التَّحدُّث إلى أحد. حلمْتُ لو أنّني طبيبة نفْسِيّة، أو فيلمٌ هنديّ يروق لها، أو حكواتيّة تُشعِرها قصصي بشيء ما أو تُعلِّمُها شيئًا ما». وهنا تغلق الساردة قوس الحلم على الفقدان «وعندما فقدتُ الأمل، وجدتُني أكتب هذا». والسؤال الذي يلح هنا هل يمكن للجمال عمومًا وللنوايا النقيّة خصوصًا أن تنقذنا؟ يبدو أنها تنتهي بنا إلى الخيبة، ولا ننسَ تحذير ماركوس أوريليوس لنا من الأمل.

*يمنح الحلم في «**أيام الأمس**» لمهند الخيكاني للحياة الواقعيّة دلالة جديدة. فالأيام الضبابية تبدو واضحة في الحلم. وهو يرى في حلمه الأيام السابقة بوضوح بعد أن رآها في الواقع غائمة «لا حاجة إلى العينين لأجل القراءة والكتابة، وتأدية النشاطات الأخرى، يكفي أنني أتماهى مع نظارتي وأغطّ في النوم». عبر الحلم يمكن تغيير تفاصيل اليوم السابق، لكن في مرحلة ما تتعقد الأمور ويختلط الواقع بالحلم تنتهي الأمور بفقدان الحد الفاصل بين منطقتين كان يفترض بإحداهما أن توضح الأخرى وأن تنقّيها «ضحكتُ بسعادة أولًا ثم ضحكت بحزنٍ قاتم يدلّ على الانهيار في ما بعد، إذ إنني لم أعد أعرف: هل أنا مستيقظ وهذا هو الواقع أم إنني ما زلت نائمًا! ثم أين اختفت نظارتي؟».*

*تشارك الساردة في نص «**علبة الأحلام**» للقاصّة غفران الطحان. في صياغة حلمها وتتحكم به وهنا يبدو الحلم فعلًا واعيًا نشعر فيه بحضور المؤلف «نادرًا ما أسمح لنفسي بحلمٍ عفويّ، فكلّ أحلامي مرتبة ضمن قائمة أُحضّرها، حتّى الكابوس، كان له وقته الذي أحدده أنا، وحدها ردّة*

فعلي تجاهه كانت عفويّة، رغم معرفتي المسبقة به» . الحلم وحده قادر على رأب الصدع بين قلبين، لكن الواقع يتسلّل للحلم ويدمره فكلما غرقت الساردة في حلم جاءت شظية أو قذيفة فينتهي بكابوس طويل. أما في نص رؤيا (Heren Straat) للكاتب صلاح الحيثاني. فنحن نعثر على نزعة نيتشوية، تمس الحالم والمحلوم به وعلة الحلم؛ فتحيله إلى نثار. يرى الحالم نفسه موجودًا في حلم رجل آخر، وهذا يعني أنه يكفي أن يستيقظ أحدنا حتى يتلاشى الآخر. هذا هو الفرق، فأنت لست موجودا بنفسك، أنا علّة وجودك، أنت معلول ضعيف، تحتاج إلى حلمي لتشعر به. فالحالم لم يعد حياة الوجود وعلته، والمحلوم به يجد نفسه وحيدا من علته وسبب وجوده.

في نص «**ماجستير**» للكاتبة «حنان الحلبوني» يلتقي طالب الماجستير بالتراث عبر مجموعة من الشعراء (عنترة والمعري والمتنبي) وهذا النصّ له بنية مسرحيّة كما أنه بعيد عن بنية الحلم وينتمي لإطار أحلام اليقظة بمعناها الدقيق. وهو يبدو محاولة لفهم أسباب انحطاطنا والهزيمة التي لحقت بحاضرنا. لكن «عوني» الطالب الذي يطرح سؤاله يتلعثم كلما حاول إيجاد جواب. فالفاجعة اكبر من أيّ قدرة على الفهم. لماذا تأخرنا؟ لماذا وصلنا إلى الحضيض؟ وفي النهاية ما يتبقى من الحلم هو البصقة التي تركها أحد الشعراء كجواب وحيد.

في قصة «**جامع الأحلام**» للكاتب الصربيّ «زوران جيفكو فيتش» يخبرنا السارد عن نفسه؛ فكل نص كُتب ليقول شيئًا، وهو يريد أن يخبرنا عن وحدته، فلا أنيس له سوى نومه ويقظته وأجراس الكنيسة «رددتُ السماعة لمكانها وأطفأت المصباح. بقيت مستلقيًا محدّقًا في الحلكة التي تحيط بي، إلى أن جاء صوت رنين من مسافة بعيدة. الأجراس المدويّة للكنيسة وصلت أولًا. متبوعة بالصوت المكتوم للجرس المعلّق برقبة الكبش، سرعان ما أصبح الصوت متصلًا مع الرنين الخافت لطفولتي. وأخيرًا لم يكن يحيط بي سوى الصمت».

يحضر السارد في قصة «**مؤامرة**» للكاتب المصري «سيد الوكيل» اجتماعًا عائليًا لأفراد عائلته المتوفّين. وهم بصدد اتخاذ قرار، يوقعنا الكاتب في الإيهام، بحيث يطلب منه والده القفز عاريًا من الشرفة. مهلًا فهي ليست قضية انتحار! إنّه الطيران نحو خفّة الطفولة، فالسيارات تتحول إلى ألعاب بالتزامن مع الرجوع للطفولة والأم ما تزال بثوب زفافها؛ وها هي تفتح ذراعيها لاستقبال أول خطواته. يغلق القوس على الطفولة التي تبدأ منها كل حياة، وهذا ربما يعطينا ملمحًا غريبًا عن طبيعة الحلم الذي لا يرفض الزمن ضمن بنيته بل يسير في الضدّ منه. من غيمة ماطرة، إلى عميل سريّ ضائع، من محاول للتفسير، إلى الطفولة، تبدو الأحلام كجبل الجليد وهي تخفي الكثير..

*في ليلةٍ ماطرة كتب شابّ مريض بالسل يدعى نوفاليس هذه العبارة: «كل ما هو مرئي يقبع فوق خلفيةٍ غير مرئية، وما هو مفهوم، فوق خلفية غير مفهومة، وما هو ملموس فوق خلفية غير ملموسة». نحن نعيش الحاضر وما عدا ذلك يدخل حيّزَ الذاكرة أو التخمين، أما الحلم فهو كالموسيقى الرقيقة، وهو شبيه بالسؤال -الذي طرحه الوحش الأسطوريّ على أوديب- عن الكائن «الذي يمشي في الصباح على أربع وفي الظهر على اثنتين وفي المساء على ثلاث» يأتي الحلم كسؤال، ومضة برق عابر! كإشارة للطريق الذي ينبغي أن يسلكه أحدنا حين تنعدم الخيارات. قبل أربعة عشر شهرًا من وفاته، كتب آينشتاين في خطابه إلى العالم الفيزيائيّ الأمريكيّ ديفيد بوم: «إذا كان الله قد خلق العالم، فأنا على يقين من أنّ أولى أولوياته لم تكن أن يسهِّل علينا فهمه». لكن الخيال والحدس، وهما العصب الرئيس للحياة يجمحان في طرق جعلت «أيلون ماسك» يقول: «إننا لا نعيش في عالم حقيقي على الإطلاق» أي نحن مجرد كائنات حلميّة. فكرة في خيال الله أو ربما حلم من أحلامه. ذات مساء دخل بالخطأ «الرجل الذي عاش الحياة كحلم» إلى غرفة والد صديقه ماكس برود ما أفزع الأخير فقال «**كافكا**» وهو ينسحب معتذرًا: «**اعتبرني حلمًا**».*



فكرة وإعداد: روعة سنبل

قراءات نقدية: فدوى العبود

الديكاميرون 2020

نحكي لننجو

في زمن الوباء اللعين كورونا، وبعد قرون من ديكاميرون بوكاشيو، يخطر لنا أن نتساءل: هل ما زالت الحكايات مجدية؟ هل ستؤنسنا ونحن نعيش هذا الرعب من كوفيد 19، وهذا الانتظار الذي قد يبدو لنا في لحظات يأسنا لا نهائياً.

يراهن كتابنا هذا أنّ: نعم، ما زلنا نحكي لننجو!

لم نختر قصصاً كُتبت في ظروف العزلة والخوف من كورونا، أدرنا ظهورنا لما يحدث، وجمعنا نصوصاً كُتبت من قبل، تعود لكتّاب من أجيال مختلفة، ومن أمكنة وأزمنة متنوعة، نصوصاً تتناول ثيمات تحفر عميقاً في الذات الإنسانية عموماً، فتكشف خباياها، مخاوفها وهواجسها.

يضم هذا الكتاب خمسين قصة، ضمن خمس ثيمات، بالإضافة إلى خمسة مقالات نقدية، نأمل أن ترسم هذه الحكايات نافذة من ضوء.





